المعاني المختصرة

من دروس تفسير سورة البقرة

أعدها

إبراهيم إسماعيل غانم

أبو عبد الرحمن

المعاني المختصرة

من دروس تفسير سورة البقرة

اللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك..

ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك..

ومن التفويض إلا عليك ومن الطلب إلا منك..

ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك..

ومن الصبر إلا على بابك..

ومن الرهبة إلا لجلالك الكريم..

اللهم تتابع بِرُّك، واتصل خيرك..

وعمت فواضلك، وتمت نوافلك..

وبر قسمك، وصدق وعدك، وحق على أعدائك وعيدك..

ولم تبقى حاجة لنا إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين..

فلك الحمد حتى ترضى..

ولك الحمد بعد الرضا..

ولك الحمد حمدا سرمدياً أبدا..

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله العليّ الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قَدّر فهدى.. وأصلي وأسلم على سيد الخلق والورى، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن به اقتدى، وبهديه اهتدى..

أما بعد.. فإن كتاب الله أجَلّ كتاب، وأصدق حديث، وأعظم دستورٍ يُنَظّم حياة البشرية، فيهديها لكل الخير، أنزله الله على عبده ونبيه محمد ﷺ، فَخَتم به الرسالات، وأكمل الدين للناس، وأتم عليهم النعمة، قال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)**﴾ (سورة المائدة).

وقد أمَرَ الله البشرية جمعاء بِتَدَبُّر كتابه، والتفكر في آياته، فقال: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)**﴾ (سورة ص).

هذا مُختصر لدروس تفسير سورة البقرة، التي كنت ألقيتُها في مسجد الهدى، بناءً على رغبة بعض الأخوة والأحباب، وقد اعتمدتُ فيها على أمهات كتب التفسير وأصحها، القديمة والحديثة، ورجعت إلى عشرات المراجع في عدة مجالات، أثبتها في هوامش التفسير المطول، أما في هذا المختصر فقد عَزَوتُ الأحاديث إلى واحد من كتب السنن على الأقل في متن الكتاب، وجُلها صحيح أو حسن، إلا ما بينتُه في الهامش، ولم أضع هوامش سفلية إلا لزيادة معلومة؛ كضعف حديث أو توضيح مسألة.

ثم إني أشكر كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب وتدقيقه، وأخصّ الشيخ عمار الجيوسي، والأستاذ طارق عطايا، والأستاذ وجدي العاروري، بارك الله فيهم وحفظهم من كل سوء، أسأل الله تعالى أن يتقبل منا أعمالنا، وأن يجعلنا من المتدبرين لكتابه، العاملين به، وأن يدخر لنا جهدنا عنده، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

إبراهيم إسماعيل غانم

أبو عبد الرحمن

1-9-2024 م

سورة البقرة

هي سورة مدنية كلها بالإجماع، وهي أطول سورة في القرآن الكريم في عدد الآيات (عدد آياتها 286 آية). وفيها أطول آية في القرآن وهي آية الدَّين رقم 282، تدور السورة حول موضوعين أساسيين:

الأول: إثبات سمو هذا الدين وعظمته مقارنة بالسابقين من أهل الكتاب وتحدي المخالفين لدين الحق وعقيدة التوحيد.

والثاني: تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وإصلاح المجتمع بهذه الأحكام.

ولسورة البقرة فضل عظيم، فهي تُسمى "فُسطاط القرآن" لعظمها وكثرة أحكامها، فقد قالوا: فيها ألف أمرٍ وألف نهيٍ وألف حكمٍ وألف خبرٍ. والأحاديث في فضلها كثيرة، منها ما روي أن النبي ﷺ بعث بعثاً ذوي عدد وقَدَّمَ عليهم أحدثهم سِنّاً لحفظه سورة البقرة، وقال له: (**اذهب فأنت أميرهم**)[1].

وفي صحيح مسلم مرفوعًا: (**اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان**[2] **أو كأنهما فِرقان من طير صواف يحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة**) والبطلة هم: السحرة. وقال ﷺ: (**اقرؤوا سورة البقرة في بيوتكم فإن الشيطان لا يدخل بيتاً يُقرأ فيه سورة البقرة**).

وقال ﷺ: (**إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تُقرأ، خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة**) (أخرجه الحاكم).

۞ ۞ ۞

(1) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وصححه، وخالفه الألباني وقال في ضعيف الترغيب رقم 864: بل ضعيف.

(2) الغياية: مظلة يُستظل بها.

البداية، وصفات المتقين (1- 5).

﴿الٓمٓ (1)﴾ بادئة تحدي، فيها إيقاع وقرع للآذان لمن تحدى القرآن وقال بأنه غريب الألفاظ والنظم، وكأن الله تعالى يقول لهم: هذه حروفكم التي تتحدثون بها في لغتكم، هذه حروفكم التي تكتبون بها أَشعارَكم وخُطَبَكُم، هذا الكتاب جُمعت كلماته من هذه الأحرف، ألا تستطيعون أن تأتوا بمثله؟؟ أم أنه قد أعجزكم وأعياكم؟

ولا شك أن لهذه الأحرف سرّ، يعلمه الله تعالى، فقد يُكتشف يوماً ما، فالحافظ ابن كثير رحمه الله يقول: "بعد حذف المكرر تبقى أربعة عشر حرفاً تشكل جملة: (نصٌّ حكيمٌ قاطعٌ له سرّ)"، قال الزمخشري مُعلّقاً: "هذه الأربعة عشر حرفاً مُشتملة على أصناف الأحرف كلها، المهموسة أو المجهورة، والرخاوة والشدة، والمطبقة والمفتوحة، والمستعلية والمنخفضة، وكذا أحرف القلقلة، فسبحان الذي دقّت في كل شيء حكمته".

﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** (2)﴾.

أشار الله تعالى باسم الإشارة: (ذلك) الذي هو للبعيد للقرآن وهو قريب؛ دلالة على:

1- علو منزلة هذا الكتاب وعظم درجته في الهداية.

2- وعلى بُعد الزمن الذي سيكون فيه هذا الكتاب هادياً، فهو سيكون صالحاً لهداية الناس -كل الناس- إلى يوم القيامة.

3- وأيضاً دلالة على بُعد معارضته أو الإتيان بمثله.

﴿**لا رَيْبَ فِيهِ**﴾، الريب: هو قلق النفس واضطرابها، فهذا الكتاب الذي أُنزِل عليك يا محمد ﷺ لا يجوز لأهل التقوى، بل لكل عاقل، أن يَشُكَّ أو يرتاب في:

1- كونه من عند الله تعالى.

2- كون ألفاظه وكلامه وما فيه من علمٍ ومعلومات، صحيحة صادقة.

3- علو شأنه وعظمته، فلا يستطيع مخلوق -أياً كان- أن يُعارضه أو يأتي بمثله.

4- أن هذا الكتاب فيه كُل طُرُق الهُدى والهداية لمن اتقى ربه وأطاعه.

﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ والهُدى لغة: الرُّشد والبيان، أي يُبيّن لأهل التقوى سبيل الهداية والصلاح الذي يجب أن يسلكوه، والهُدى عكس الضلالة والضياع، فالإنسان بدون القرآن يكون في ضلال مبين، ضائع تائه، يسير في هذه الدنيا ولا يعلم لم هو مخلوق؟ وإلى أين مصيره؟ وقد عَبَّرَ عن هذا إيليا أبو ماضي الشاعر المشهور فقال:

جئتُ ولا أعلم من أين ولكني أتيت..
ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمشيت..
وسأبقى ماشياً.. إن شئتُ هذا أم أبيت..
كيفَ جئتُ؟ كيفَ أبصرتُ طريقي؟ لستُ ادري..

والقصيدة طويلة يقول فيها أيضاً: أتُراني قبلما أصبحتُ إنساناً سوياً..

أتُراني كُنتُ محواً، أم تُراني كُنت شَيًّا؟
ألهذا اللغز حلٌّ أم سيبقى أبدياً؟ لستُ ادري.... إلى آخر قوله..

۞ ۞ ۞

أهم صفات المتقين:

✍ الصفة الأولى: أنهم ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾. يُصدقون تمام التصديق، ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ وهو: كل ما غاب عنا، فَلَم تدركه الحواس، وإنما يُعرف بخبر الأنبياء عليهم السلام.

فإذا تحصل الإنسانُ على الإيمان بالغيب فإنه لا يتأثر بأي شائعات ولا شُبهات يضعها المشككون حول الإسلام ونبيه وأحكامه على مرّ الأزمان، فلا تضره فتنة، ولا تزعزعه شبهة ولا يسقط عند شهوة، وهذا يدفع المسلمين لتعلم دينهم وقُرآنهم ليتمكنوا من الدفاع عنه أمام هذه الهجمات الشرسة.

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بمحمد ﷺ، فقد أخرج الإمام أحمد أنه ﷺ قال: (**طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى** -سبع مرات- **لمن لم يرني وآمن بي**) ، وفي مستدرك الحاكم: قال ﷺ عن أفضل أهل الإيمان إيمانًا: (**أَقْوَامٌ فِي أَصْلابِ الرِّجَالِ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي وَيُصَدِّقُونِي وَلَمْ يَرَوْنِي، يَجِدُونَ الْوَرَقَ الْمُعَلَّقَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا**).

✍ الصفة الثانية للمتقين: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ يعني يُوثّقون صلتهم بالله تعالى، ويجعلون معه اتصالاً مباشرًا بإقامة الصلة التي أمرهم بها.

ولم يقل: (يُصلّون)، أو (يؤدون الصلاة)؛ فلا يكفي الإتيان بحركاتها فقط، فإقامة الصلاة يعني كل ما يتعلق بها من: النية السليمة الصادقة وإتمام التحضير لها (الطهارة والوضوء). إتمام أركانها وواجباتها وشروطها، والاطمئنان وعدم الاستعجال، وإقامتها على وقتها، والخشوع وحضور القلب فيها....

وقد يكون معنى: ﴿**وَيُقِيمُونَ**﴾ يُداومون ويستمرون عليها ولا يقطعونها، قال في مختار الصحاح: "وَأَقَامَ الشَّيءَ أَي أَدَامَهُ. وَمِنهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾".

وإقامة الصلاة تتطلب أيضاً أن تكون في خارج الصلاة كأنك في صلاة، ويترتب عليه تصحيح الأخلاق والمعاملات، فينطبق قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)**﴾ (سورة العنكبوت).

✍ الصفة الثالثة من صفات المتقين: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)**﴾ : (مِمَّا) أصلها (مِنْ مَا) وحرف (من للتبعيض) أي: ليس كل ما رزقك الله تُنفقه، لكن تُنفق بعضاً من كل شيء، ولفظ (الرزق) عام شامل لكل أنواع الرزق، فلا يقتصر على المال أو الماديات، بل كل شيء في هذه الدنيا رزق من الله تعالى، فالمال رزق، والصحة، والذكاء، والعيال رزق، والنظر والصوت والسمع وكل شيء رزق، والأخلاق رزق... ووجب أن ننفق منه.

والضمير (نا) في قوله: ﴿**رَزَقْنَاهُمْ**﴾ يعود على المتكلم، وهو رب العباد جل جلاله، وهو يُفيد الحصر، فلا رازق إلا الله، فهو الذي يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾. أما الإنسان فهو حامل وحافظ يوصل هذا الرزق الذي هو من الله للناس.

✍ الصفة الرابعة: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**﴾.

ومن صفات المتقين أيضًا أنهم يؤمنون بما أُنزل إليكَ يا محمد، وهو نوعان:

1) ما يُتلى، هو القرآن الكريم: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزيلًا**﴾ (سورة الإنسان: 23).

2) والذي لا يُتلى، هو الحديث والسُّنة الصحيحة، الذي يبيّن ويُفصّل أحكام الدين، مثل عدد ركعات الصلاة والحدود والزكاة وغيرها، قال ﷺ: (**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه،...**) كما في مسند أحمد.

☜ والملاحظ أن الفعل هنا جاء بصيغة ما لم يُسَمَّ فاعله، مع العلم أن الفاعل موجود ومعروف، يعرفه القاصي والداني، لكن الغرض من ذلك بيان عظمة المُنزِل جل جلاله، وعظمة المُنزَل، والمُنزَل عليه أيضًا، وهذا يتكرر كثيرًا في القرآن الكريم.

✍ الصفة الخامسة: ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾. ويؤمنون بكل ما أنزل الله من كُتُب، فيجب على كل مسلم أن يؤمن بما أُنزل إلى الأنبياء السابقين من الكُتب والصُّحف، فالإيمان بالكُتُب السابقة من أركان الإيمان كما هو معلوم.

وفي الآية أيضًا إشارة إلى أن من صَدَّق بالأنبياء السابقين وآمن بالكتب التي أُنزلت إليهم هم من المتقين أيضًا، كما أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة أو الإنجيل ثم آمنوا بالقرآن، هم أيضًا من المتقين، مثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره الكثير.

✍ الصفة السادسة: ﴿ **وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)** ﴾ هذه هي الصفة السادسة من صفات المتقين، وهي يقينهم بالآخرة، ولاحظوا اللفظ ﴿ **يُوقِنُونَ** ﴾، عندهم يقين تام لا يتزحزح، ولا يؤثر عليه أي مؤثر، حتى الموت لا يؤثر به، لذلك كان بعض الصحابة إذا أصيب في المعركة إصابة قاتلة يقول: فُزتُ ورب الكعبة.. لأن عنده يقين تام على وجود الدار الآخرة، وأنها هي الحياة الحقيقية، وأن الدنيا كلها -بما فيها- فانية زائلة منتهية في يوم ما.

والإيمان بالآخرة من الإيمان بالغيب؛ لكن خصَّها لأهميتها، فالإيمان بالآخرة من أعظم ما يدفع الإنسان إلى امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "لولا الإيمان باليوم الآخر، لرأيتَ من الناس غير ما ترى"؛ أي: لَتهالَكَ الناس على الشهوات والمناهي، وتَنكَّر بعضهم لبعض.

۞ ۞ ۞

أهم جائزة للمتقين أصحاب هذه الصفات الستّ:

من اتصف بهذه الصفات: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ... (5)**﴾ أي: سينالون الهداية الحقيقية التامة من الله، هذه الهداية التي نطلبها كل يوم في صلاتنا، عندما ندعو الله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ فمن تَحَصَّل عليها نال الخير العميم والفضل الكبير والشرف الرفيع، هذه الهداية تُؤدي بهم إلى أن يكونوا من (المُفْلِحِينَ)، والفَلاح هو: الظفر بالمطلوب أو النجاة من المرهوب. فالمُتقين سيظفرون بما يطلبون وسينجون مما يرهبون.

لاحظوا قوله تعالى: ﴿**مِنْ رَبِّهِمْ**﴾ حيث تُفيد حصر الهداية فقط من الله تعالى، فلا هادي سواه، فيهدي قلوبهم ليَعقِلوا مُراده جل جلاله، ويهدي عقولهم إلى التفكير في كل ما يُرضيه، ويهدي جوارحهم لفعل كل ما يُرضيه.

﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ فهم سينالون الفلاح العظيم في الدنيا والآخرة حيث يوجد بقاءٌ بلا فناءٍ، وغنى بى فقرٍ، وعزّ بلا ذُلٍّ وعلم بلا جهل. لذلك قال ﷺ: (**اللهمّ لا عيش إلا عيش الآخرة**) كما في الصحيحين، وكان من أسماء الله (الهادي) جل جلاله.

هذا جزاء المُتقين، والتقوى أفضل عمل في هذه الدنيا.. فإنَّ المتقين يُحبهم الله تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)**﴾ (سورة آل عمران)، ويُدخلهم جناته: ﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)**﴾ (سورة مريم) ويقول: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)**﴾ (سورة القمر).

۞ ۞ ۞

من صفات أهل الكفر (6-7).

قال مجاهد ﷺ: "نزلت أربع آيات من سورة البقرة في المؤمنين، وآيتان في وصف الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين". فبعد الحديث عن المتقين، ذَكَرَ الصنف الثاني وهم الكُفّار: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)** ﴾، قال الشيخ الشعراوي ﷺ: "سُمّوا بذلك لأنهم ستروا وجود الله تعالى فأخفوه عن قلوبهم وعن قلوب الناس، حتى يعملوا ما يُريدون، فيتكبروا ويظلموا ويُجرموا كما يُريدون".

﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ كفروا بماذا؟ كفروا بما آمن به المتقون الذين ذُكروا سابقاً:

أولاً: كفروا بالغيب، وهي أول صفة للمتقين، فهم لا يُصدقون بالغيبيات فصار عُلماؤهم يبحثون عن تحليل مادي لكل شيء، ومنها الخلق والحياة، حتى جاء (داروين) بنظريته، التي أثبت العلم فشلها وخطأها؛ لأنها تخالف الفطرة السليمة والعقل والدين.

ثانياً: كفروا بما أُنزل إلى محمد ﷺ وما أُنزل من قبله، لا يؤمنون بالقرآن ولا بالكتب السابقة الحقيقية، بل يؤمنون بالتي حرفوها وبدَّلوا ما فيها حسب أهوائهم، ولو أنهم آمنوا بغير المحرفة لآمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن، لأنها بشَّرت به وذكرت صفته ﷺ.

فكما أن لأهل التقوى جائزة، فإن لهؤلاء عقوبة، فما هي عقوبتهم؟

1) ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾: مهما تقلّبت قلوبهم هنا وهناك، شرقاً وغرباً؛ فإنها لن تهتدي، فلن يؤمنوا؛ لأن الله تعالى أغلقها بالختم فلن يدخلها الإيمان.

2) ﴿**وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ يعني أن أسماعهم وأبصارهم عليها غطاء يُغطيها، فآذانهم لا تسمع الحق وأعيُنهم لا تراه، فمهما رأوا من الآيات والمعجزات فلن يؤمنوا.. فإن هذا القرآن بنظمه المعجز أبهَرَ عقولهم وقلوبهم، لكنهم لم يُؤمنوا لأن الله قد ختم عليها. هذا في الدنيا، أما في الآخرة:

3) ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ يعني عذاب هائل لا يستطيعون احتماله.

لقد شَبَّهَ الله تعالى في هذه الآية قلوبهم بالوعاء المحكم الإغلاق الذي لا يسمح بدخول إي شيء إليه. فقد غطوا بصرهم فلا يروا ما يدلّهم على الإيمان من الآيات في

الكون كالمجرات، والإعجاز في الخلق الذي أمرنا الله تعالى بتدبّره والتفكر فيه في آيات كثيرة، ولم يتدبروا في آياته المقروءة أيضاً، آيات هذا القرآن العظيم: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** (17)﴾ (سورة القمر).. فلو أنهم كشفوا هذا الغطاء وتدبروا وتفكروا لفُتحت أمامهم أبواب الإيمان، ورأوا صدق هذا القرآن وهذا النبي ﷺ.

۞ ۞ ۞

من صفات المنافقين (7-20) .

قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** (7)﴾.

صفات المنافقين ذكرها الله تعالى في ثلاث عشرة آية، بينما صفات المتقين في أربع آيات، والكافرين في آيتين، وذلك لخطرهم الشديد، فهم أشد خطراً حتى من الكفار أو المشركين، فهؤلاء كفار معروفون، وعداوتهم لهذا الدين وأهله غير مستورة، لكن المنافقين مُختبئين تحت ثوب الإيمان والإسلام، بينما ولاءهم لغيره؛ لذلك فإن الرسول ﷺ يقول: (**إن أخوفَ ما أخافُ عليكم بعدي كل مُنافِقٍ عَليم اللسان**) كما في المسند.

بدأ جل جلاله هذه الصفات بقوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾، فالله تعالى قَسَّمَ الناس إلى قسمين: مؤمنين وكافرين، و﴿**من**﴾ حرف للتبعيض، يعني أنهم بعض الناس، فهم بالنسبة للمسلمين والكافرين قليلو العدد، لكنهم أشد منهم خطورة.

وهناك معنى آخر نأخذه من حرف الجر (من) هو أن المنافقين جزء من الناس، فَهُم ليسوا قسماً ثالثاً، إما أن يكونوا في الأصل مسلمين، أو كافرين، فالمنافق من المسلمين يخدم الكفار ويفضّلهم على المسلمين مع أنه مكتوب في بطاقته الشخصية: مسلم، بل قد يُصلي في الصف الأول، ومُطلِقٌ لحيته، أو إمام في الصلاة، أو في منصب "المُفتي العام" أو "رئيس دولة".. لكن ولاءه لغير الله، ولغير دينه، أما المنافق من الكافرين فأصله كافر لكنه يُظهِر الإيمان مثل بعض المستشرقين، الذين أظهروا الإسلام لا حُبًا فيه ولا قناعة بشرعه، بل بنيّة تدميره وإسقاط أهله في وحل العقائد المنحرفة، والأخلاق العفنة.

والأول أكثر خطراً من الثاني، ففي صحيح ابن حبان أن رَسُول اللهِ ﷺ يقول: (**إنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيكُم رَجُلٌ قَرَأَ القُرآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَت بَهجَتُهُ عَلَيهِ وكان رِدءاً لِلإِسلامِ غَيَّرَهُ إِلَى**

مَا شَاءَ اللهُ فَانسَلَخَ مِنهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهرِهِ وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيفِ وَرَمَاهُ بِالشِّركِ) قَالَ: قُلتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَيُّهُمَا أَولَى بِالشِّركِ المَرمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قال: **(بَل الرَّامي)**.

أول صفة للمنافقين هي أنهم يقولون: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، يعني يَدَّعُون أنهم يؤمنون بالغيب، والحقيقة: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ**﴾ وهذه شهادة من الله تعالى بأنهم كاذبون، وإذا شهد الله تعالى بأمر فهو الصدق بعينه، وكفى بالله شهيداً.

والصفة الثانية: ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي: يَظُنّون في أنفسهم أنهم يُخادعون الله والذين آمنوا، لكنهم في الحقيقة ما يُخادعون إلا أنفسهم دون أن يشعروا.

فخداعهم لله تعالى بترك طاعته، ولرسوله بإظهار الإيمان والمحبة واستبطان الكفر والعداوة، وبالرياء، لكن الله يعلم السّرَّ وأخفى، فلا يخفى عليه خداعهم ومكرهم.

وخداعهم للمؤمنين بإظهار محبتهم لهم وأنهم معهم، لكنهم في الحقيقة يُخفون الكُره والحقد، بل ويعملون في السّر على إلحاق الضرر بهم وإفشالهم وإحباطهم وإبعادهم عن دينهم وعن أخلاقهم وعن عباداتهم وتدمير وإفشال كل من يُريد أن يُحَكّم شرع الله تعالى في الناس، بل إنهم يدعمون الكفار ويُؤيدونهم ضد المسلمين.

ومن عجيب وصفهم في سورة المائدة (41): ﴿**الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾، يعني ما دام الأمر في صالح الكُفار فإنك تراهم يُسارعون ويُهرولون ويتفاعلون ويُحاولون الدفاع عنهم بأي طريقة أو وسيلة، والإعلام أهم هذه الوسائل حاليًا.

وخداعهم لا يضر الله شيئاً، بل يضرّون أنفسهم فقط، لأنهم عَرَّضُوها لغضب الله وسخطه، فجاء بعدها: ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**﴾، وفي آية أخرى: ﴿**وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾، بينما خداعه لهم يضرّهم ويُهلكهم ويُشقيهم في الدنيا والآخرة.

﴿**وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ أي: لا يفطنون أو يتذكرون أو يحسبون حساب العواقب، ويظنون أنهم فازوا إذا رأوا بعض النجاح الذي يُمليه الله تعالى لهم، وبعض الأموال التي جنوها من الكفار الذين خدموهم. والحقيقة: أن الله هو الذي سيخدعهم، وسيُعاقبهم، فهو يُملي

لهم، ثم ينتقم منهم بعده، فالله تعالى يقول: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾، ويقول الرسول ﷺ: (**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته**)، ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد**﴾ كما في الصحيحين.

ومن صفاتهم أيضًا: أنَّ ﴿**فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾، وهذه استعارة عن الفساد في عقيدتهم، أي أن قُلوبهم مليئة بالفساد العقائدي، إما شكاً أو جُحوداً، مثل القلب الذي داهمته الجلطات والأمراض، ويُمكن وصف الجمادات بصفات الأحياء على سبيل التشبيه، كقول ليلى الأخيلية: إذا هبط الحَجّاج أرضاً مريضةً *** تتبّـعَ أقـصى داءها فشفاها

وقول آخر:

ألم ترَ أنَّ الأرض أضحت مريضةً *** لفقد الحُسين، والبلاد اقشعرَّتِ

وعلى عكس ذلك قد توصف قلوب المؤمنين بأنها سليمة، أي: غير مريضة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ (الشعراء).

وبسبب إصرارهم على هذا المرض الذي في قلبهم، ولم يحاولوا علاجه بالإيمان: ﴿**فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا**﴾، ازدادوا شَكاً وريبةً، وازدادوا غِلاً وحقداً وناراً تتأجج في صدورهم بسبب إعلاء كلمة الدِّين ونُصرة الحق، وتأييد رب العزة جل جلاله للنبي ﷺ والمسلمين، وهذا عذاب يحرق هذه القلوب ويقتلها في الدنيا، ثم يُردون إلى أشد العذاب يوم القيامة، لهذا قال تعالى بعدها: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ الباء للسببية، يعني بسبب كذبهم، وقولهم: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ**﴾ والحقيقة ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾، وهذا الكذبة الأولى لهم.

وهناك كذبة أخرى يكذبونها دائمًا، ويَجتَرُّها أتباعُهم في كل زمان: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)**﴾.

فمن أهم صفاتهم أنهم يُفسدون في الأرض، والفساد هو خروج الشيء عن كونه نافعاً، يُقال: فسدت البضاعة: إذا أصبحت غير نافعة.

والفساد في الأرض هو: تخريب أي شيء يُنتَفع به في الأرض من والمنافع الدينية والدنيوية؛ كالمأكل أو المشرب أو الزروع، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي**

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، ومنها إزهاق الأرواح بالحروب والقتل والاعتداء، ونشر الفرقة بين المسلمين، قالت الملائكة لربها جل جلاله: **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾**.

ومن أنواع إفساد المنافقين في الأرض موالاة الكفار وإفشاء أسرار المسلمين لهم، ودعمهم وتأييدهم في قراراتهم وفي أعمالهم ضد المسلمين، قال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** (سورة الأنفال:73).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)﴾. فيَدَّعُون كذباً وزوراً أنهم مُصلحون، بينما هم أصل الفساد، فقد رأينا مثلاً من يمُدّ اليهود المعتدين قتلة الأطفال بالغذاء بحجة أن التجارة ما لها علاقة بجرائمهم. فحَكَم الله عليهم بقوله: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**، هم أهل الفساد الحقيقيون، بل هم أصل الفساد، لكنهم لا يشعرون بعاقبة ذلك الفساد ومآله.

ومن صفاتهم أنهم لا يقبلون النصيحة: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾**.

ومن صفاتهم أنهم يستهزئون بالمسلمين المؤمنين ويحتقرونهم، فإذا قال لهم الناصحون الذين يأمرونهم بالخير والصلاح والمعروف: آمنوا كما آمن هؤلاء الصادقين. احتقروهم واستهزأوا بهم وقالوا في سؤال استنكاري: **﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾**؟

فهم يتهمون أهل الصلاح بالتُّهم الباطلة، ويصفونهم بالسفه والرجعية والتخلف، ولكنهم في الحقيقة هم أهل السَّفه والضلال وأصحاب العقول القاصرة التي لا تُفكر إلا في مصلحتها الشخصية، أو مصلحة أسيادهم الذين ينتفعون من فتات موائدهم، وهم أوليائهم من الكفار.

وهنا حَكَمَ الله تعالى عليهم: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾**، لأنهم اختاروا الضلال والنفاق، ولم يؤمنوا حق الإيمان، فهم أصحاب الرأي السفيه، والعقل القاصر. **﴿وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾** ما ينتظرهم من العذاب والعقاب على فعلهم هذا، أو أنهم لا يعلمون أن ما هم عليه هو السَّفه والضلال بعينه.

ومن صفاتهم أيضًا: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ**﴾. هذه طريقة الكذب على المؤمنين الصالحين التي تنتهجها تلك الفئة، فإذا التقوا ببعض المؤمنين في الشارع، في اجتماع، في المسجد، في الإعلام، في أي مكان، إذا تلاقوا فإنهم يقولون لهم: إنَّا مؤمنون مثلكم، بل يحلفون على ذلك أغلظ الأيمان، قال تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ... (96)**﴾ (سورة التوبة)، وفي قصة زيد بن أرقم ﷺ مثال على حلفهم الكاذب، عندما سمع عبد الله بن سلول يقول في تبوك: ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾، فأخبر النبي ﷺ، فدعاه فَحَلَفَ ابن سلول أغلظ الأيمان أنه ما قال[1]، فأنزل الله آياتٍ تصديقًا لزيد وتكذيبًا للمنافق.

لكنهم إذا خلو إلى أسيادهم أخبروهم أنهم على العهد، وأنهم يستهزئون من المسلمين الصادقين الصالحين، ويصفونهم بصفات لا تليق، وهنا نلاحظ:

1-قوله: ﴿**خَلَوْا**﴾ وهذا يعني أن عملهم مع الكفار مخفيّ (سِرّي)، لكنهم عند ضعف المسلمين، أو ظهور الكفار عليهم، يُظهرون العداوة ويُعلنونها، ومثال ذلك خيانتهم في غزوة الخندق ونشرهم الإشاعات.

2-قوله ﴿**شَيَاطِينِهِم**﴾ وهذا أبلغ في التشنيع عليهم، فهم يعملون عمل الشياطين من الفتنة والدعوة إلى الكفر، وروي عن أبي ذر ﷺ: قال رسول الله ﷺ: (**نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن**) فقلتُ: يا رسول الله أوَ للإنس شياطين؟ قال: (**نعم**)[2].

3-قولهم ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)**﴾ فالعمل الأساسي لهم هو الاستهزاء والتشويه، ونشر الشبهات حول العقيدة والأخلاق والعبادات، لتشكيك الناس في دينهم، وهذا ملاحَظٌ بجلاء في هذه الأيام.

وفي مقابل استهزائهم بأهل الإيمان: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ بخُذلانهم، وبإحباط مُخططاتهم وإفشال أعمالهم. وفي الآية بُشرى للمؤمنين الصادقين تقول لهم: أن الله

---

(1) يقول زيد: "فلامني قومي وقالوا ما أردتَ إلا هذه، فأتيت البيتَ، ونمتُ كئيباً حزيناً، فأتاني النبي ﷺ أو أتيته، فقال: (إن الله قد صَدَّقكَ) قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾" (سورة المنافقون)، والقصة في سنن الترمذي(3313)، وصححها الألباني.

(2) ضعف الألباني إسناده في ضعيف النسائي رقم 5507.

معكم دائماً، حتى لو رأيتم الاستهزاء والكذب من المنافقين فإنهم يوماً ما سيفشلون، وتُحبَط أعمالُهُم، وسينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم.

وفوق ذلك: ﴿**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (15)﴾ أي أن الله تعالى يطيل لهم المدة ويمهلهم ويملي لهم، "في طغيانهم" أي: كفرهم وضلالهم، ليزداد عذابُهم: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**﴾، وفي الصحيحين: (**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أَخَذَهُ لم يُفلتهُ**) ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾.

والعَمَهْ هو عمى القلب وعدم رؤية الطريق الحق، فقد غطوا قلوبهم حتى صارت لا تُبصر الحق، كما أنها لا ترى العقاب الذي ينتظرها: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (46)﴾ (الحج).

ما هي عقوبة المنافقين ؟

﴿**أُولَئِكَ**﴾ الذين يتصفون بهذه الصفات، وهذا الاسم الموصول يُستخدم للبعيد، جاء لبيان بُعد منزلتهم في الشر والسوء، وبعدهم عن الخير، كما أن فيه معنى البُعد الزمني، أي كل من اتصف بصفاتهم وعمل عملهم على مر الأزمان؛ فإنهم مثلهم في العقوبة.

﴿**الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**﴾ هؤلاء استبدلوا الضلالة بالهداية، والشر بالخير، وكل من استبدل الضلالة بالهداية فهو مغبون.. وكل من استبدل الشر بالخير فهو مغبون، أحمق لا عقل له، فمن يقبل بالدني ويرفض الشَّريف والرفيع والنّبيل؟ من يرفض ما ينفعه ويَقبَل ما يضُرُّه؟

لأجل هذا: ﴿**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**﴾ هذه التجارة ليست رابحة أبدًا لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن رأس مالهم الهداية، وهم ضيعوا حتى رأس المال فضلاً عن الربح.

﴿**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** (16)﴾ فمن يختار هذه الصفقة الخاسرة لا شك أنه ليس على هُدى.. ليس على الطريق المستقيم السديد القويم.. فما كانوا مثل التُجّار المهرة الذين يختارون من البضاعة ما تَعُود عليهم بالربح والفائدة.

بعد ذلك تضرب الآيات مثلاً لهم، والأمثال من أفضل الوسائل في التعليم من أجل لإيصال الفكرة أو المعلومة، فهؤلاء المنافقين: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** (17)﴾.

(مثلهم) -أي مثلهم في النفاق- كمثل أشخاصٍ يسيرون في الليل، فاستوقد أحدهم ناراً (أي طلب من غيره أن يوقد له) ليُضيء طريقه ويتدفأ بها، فأبصر طريقه وتدفأ وأمِنَ مما يخاف، لكن هذه النار سرعان ما انطفأت (أطفأها الله)، لأنه لا يوجد أساس متين تستقيم عليه الحياة، فعادت الظلمة فلم يبصروا طريقهم.. ووجه الشبه أنهم استضاءوا بنور الهُدى والهداية والخير والدين قليلاً، فرأوه وعاينوه، وعرفوا أن الخير والنفع في كلمة (لا إِلَهَ إلا الله)، فأمِنُوا على أنفسهم، وأزالت عن قلوبهم ظُلمة الشرك والكفر، لكنهم سرعان ما أطفئوا هذه النار، ورضوا بأن يبقوا في الظلمات.

لاحظوا لفظ ﴿**ظُلُمَاتٍ**﴾، تشمل كل أنواع الظُّلمَة، ليست واحدة، بل ظُلمَة النفاق التي تؤدي إلى ظُلمة سخط الله وغضبه، وظُلمة العقاب في الدنيا بإفشال مخططاتهم وخسارتهم، وظلمة القبر، ثم ظلمات الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** (145)﴾ (سورة النساء).

وحقيقة من اختار هذه التجارة الخاسرة أنهم: ﴿**لَا يُبْصِرُونَ**﴾ الحقيقة في الدنيا، فقد عميت أعينهم عنها كما عميت قلوبهم، ولا يُبصرون في الآخرة أيضًا، فإن الله تعالى سيحشُرهم عُمياً وبُكما وصُمّاً، لهذا كانت الآية التالية: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾ فقد أصموا آذانهم وأغلقوا أعينهم عن الحق كما أخرسوا ألسنتهم عن قوله، والجزاء جنس العمل، فيوم القيامة يُحشرون كذلك، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** (124)﴾ (سورة طه).

﴿**فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** (18)﴾:

1- في الدنيا، فهم لا يرجعون إلى الهدى بعد أن باعوه واشتروا الضلالة.

2- وفي الآخرة لا يرجعون إلى الدنيا، فيتمنى أحدهم ويقول: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ** (99) **لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ فيكون الجواب لهم: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ**﴾ (سورة المؤمنون).

ثم يضرب الله تعالى مثلاً آخر: ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾.. و(الصيّب) هو المطر، فمثلهم كمثل أناس في الليل الحالك المظلم، (فيه ظلمات) للمبالغة في الظلام، يُصاحبه رعدٌ شديد، وبرق خاطف، وهم يضعون أصابعهم في آذانهم خوفاً من أن يُصعقوا فيموتوا.

﴿**وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** (19)﴾ بِعلمه وقدرته، وهذه الجملة اعتراضية مُنبّهة، تُخبرنا أن وضعهم أصابعهم في آذانهم لن يُغني عنهم شيئاً، فإن القدر لا يدفعه الحذر، وبأسه جل وعلا لا يرده شيء: ﴿**وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** (147)﴾ (سورة الأنعام). كما أن لفظ (محيط) يُعطي معنى الشمولية، فلا مخرج لهم من قَدَرِ الله وأمره.

﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (20)﴾ يُشبه الله تعالى:

1- حيرة المنافقين وترددهم بين الحق والباطل، فمرة يمشوا مع الحق ومرة يقفوا.

2- ويُشبه شدة النفاق وما فيه من حقد داخلي لا ينطفئ بشدة صاحب هذا الموقف العصيب، حيث يقف في المطر والبرد والرعد والبرق، وفوق ذلك ظلام الليل فلا يرى طريقه ولا يرى أمامه، فإذا رأى نور البرق مشى خطوات ثم يتوقف، إضافة إلى خوفه الشديد من البرق أن يخطف بصره أو الرعد أن يذهب بسمعه، وهذا تشبيه في غاية الدقة.

الخاتمة.. هذه عشرين آية: آية البداية: ﴿**الم**﴾، وأربع آيات في ذكر المتقين وبعض صفاتهم، وآيتان في الكفار وبعض صفاتهم، كما ذكر الله تعالى في ثلاث عشرة آية بعض صفات المنافقين.. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتقين الصادقين الصالحين.

۞ ۞ ۞

أول خطاب للناس (21-25).

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾. هذا أول خطاب من الله تعالى للناس في القرآن الكريم (حسب ترتيب الآيات وليس ترتيب النزول) يأمرهم فيه بعبادته جل جلاله، هذا الأمر الذي جاء به كل الأنبياء، فكل نبي كان يقول لقومه: ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** (65)﴾ (سورة الأعراف).

بل إن الجن والإنس ما خُلقوا إلا لأجل هذا الأمر: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (56)﴾ (سورة الذاريات). لهذا فإن المسلم يؤكد على هذا الأمر أكثر من عشرين مرة في اليوم، عندما يقول في صلاته: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (4)﴾ (سورة الفاتحة).

قال: ﴿**رَبَّكُمُ**﴾ ولم يقل إلهكم، لأن بعضهم كانوا يؤمنوا بالله رباً ولا يؤمنوا به إلهاً، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ (الزمر 38)، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ (العنكبوت: 63).

﴿**رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ فَذَكَّرَهُم بصفة الخَلق لأنهم لا يُنكرنها له، يقول جل وعلا: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** (87)﴾ (سورة الزخرف)، لهذا جاءت آيات فيها تحدٍ واضح في هذا الموضوع، يقول تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ** (58) **أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ (سورة الواقعة).

﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ أي: تذكروا أن الله هو الذي خلقكم من عدم، فإذا أيقنتم بهذا عرفتم أنه المستحق للعبادة، فاعبدوه كي تُصبحوا من المتقين، الذين هم أهل الجنة.

☜ ثم يُعدد الله تعالى بعض نعمه العظيمة التي أنعمها على الناس، حتى يُرغبهم في عبادته، يقول: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾ خلق لكم أرضًا كالفِراش، تستقرون عليها وجعل فيها كُل ما تحتاجونه من الماء والغذاء والهواء والشمس (يُقال: "شُقّة مفروشة أو بيت مفروش" يعني مجهزة بما يحتاجه الذي سيسكن فيها).

﴿**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾ قويًا متينًا مُحكمًا، بدون أعمدة ترونها، حجمها خيالي لا يُتصور ضخامتها: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** (47) **وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** (48)﴾ (سورة الذاريات). ﴿**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾ هذه السماء التي ترونها تسير فيها الغيوم التي تحمل الماء، فتصبّهُ في المكان الذي يأمرها ربها، فتكون سبباً في إنبات النبات المثمر، فتستمتعون بثماره المختلفة أشكالها ولونها وطعمها.

انظروا قوله: ﴿**رِزْقًا لَكُمْ**﴾ فأنتم المستفيدون أيها البشر من هذه النِّعَم.. لكم أنتم، فأنتم تتخذون من هذه الأشجار رزقاً، فتأكلون منها، وتستفيدون من أخشابها وحطبها،

بل وتُطعمون أنعامكم أيضاً، قال تعالى: ﴿**مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ** (32)﴾ (سورة عبس). ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**﴾ يعني تفكروا في هذه النعم العظيمة التي أعطاكم إياها ربكم الخالق، فتعبدوه ولا تعبدوا غيره، فلا يُمكن أن يكون المخلوق بمنزلة الخالق.

﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾: 1- تعلمون أنكم لستم أكفاء له، فهو الخالق وأنتم مخلوقون، وهو الرازق وأنتم مرزوقون، وهو العزيز وأنتم الأذلاء، وهو القادر المتصرف وأنتم لا حول لكم ولا قوة، فلا يتنفس أحد منكم نَفَسًا إلا إذا أَذِنَ هُو له، جل جلاله وعم نواله.

2- تعلمون أن هذه الأنداد لا تستطيع أن تخلق أو تُنزل الماء أو تُخرج النبات، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ... (40)**﴾ (سورة الروم).

3- العقلاء يعلمون ما هو خير لهم من الشرّ، ويُميّزون ما ينفعهم وما يضرهم، لهذا جاءت آيات كثيرة تخاطب أُلي الألباب وأُلي الأبصار.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ هذه آية التحدي، فبعد أن أثبت بالبراهين القاطعة وحدانية الله تعالى وأحقيته وحده بالعبادة، يؤكد هنا أن القرآن الكريم الذي بين أيديهم هم من عنده أيضًا، فتحدى الناس كلهم (لا تنسوا أن الخطاب من البداية للناس) أن يأتوا بسورة مثل هذا النظم العظيم المعجز الذي يُبهر كل من يسمعه أو يقرأه.

ولاحظوا هنا صفة ﴿**عَبْدِنَا**﴾، فَقِمَّة التشريف أن ينتسب الإنسان إلى الخالق العظيم الجليل، وفي الضمير (نا) تتجلى العظمة ويتجلى الشرف الرفيع والكرامة الكبيرة، (عبدنا) نحن، لا عبد الحجر ولا البشر مما لا يضر ولا ينفع.

﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ حاوِلُوا أن تؤلّفوا سورة واحدة فيها مثل إعجازه وبلاغته المبهرة، وقد يعود الضمير (الهاء) على الرسول ﷺ، وتقديرها: من رجل مثله، فإن البليغ الضليع باللغة العربية والعلم لا يستطيع أن يأتي بمثله، فكيف بأُميّ؟

﴿**وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ**﴾ اطلبوا من زعمائكم وكُبرائكم أن يُساعدوكم في هذا التحدي، واطلبوا مساعدة آلهتكم المزعومة، وكل من يَشْهَد لكم بأن دينكم حق، ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (23)﴾ في زعمكم بأن القرآن من كلام محمد وليس من الله. ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا**﴾ إذا لم تستطيعوا أن تأتوا بمثل القرآن، ﴿**وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾ لن تستطيعوا لا الآن ولا في المستقبل أبداً، ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ يعني: كونوا مع المتقين، فالتقوى تُبعدكم عن النار، وكأن فيها ترغيب لهم في الايمان والتوبة.

أو: ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ**﴾ جَهِّزوا وأَعِدّوا ما تتقون به النار يوم القيامة، من أنصار وشفعاء وغيرها، وهذا تهديد وتوعّد لهم.

﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ الوقود الذي تشتعل به ليس خشباً ولا حطباً، بل الناس والحجارة، وهذا زيادة لِهَولها وفظاعتها، أعاذنا الله وإياكم منها.

﴿**النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (الناس) الذين كفروا بالله وعصوه واستحقوا أن يكونوا من أهلها. و(الحجارة) التي كانت تُعبَد من دون الله، فيقول لهم: أنتم وما تعبدون من دون الله وقود النار، حطب جهنم التي تُشعَلُ بِه، قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** (98) **لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا**﴾... (الأنبياء).

أما أهل الإيمان والتقوى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ فإن لهم البُشرى التي تَسُرُّهم فتَبِشّ وجوههم، وتفرح قلوبهم، فهؤلاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وأتبعوا الإيمان بالعمل الصالح، بُشّراهم ﴿**أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ ليست واحدة، فهم يستحقون المزيد لإيمانهم وتصديقهم وعملهم الصالح.

هذه الجنات ﴿**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾ من تحت أشجارها، أو من تحت قُصورها، ولا يعلم كيفيتها إلا الذي خلقها.

﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ فَرِزقُ الجنة ليس كرزق الدنيا أبدًا، في الجنة بما لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. فعندما يرزقهم الله من ثمار الجنة، ثم يرزقهم غيرَهُ يجدوه نفس الشكل واللون، فيقولوا: ﴿**هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ**﴾ يعني: هذا مثل الذي أكلناه من قبل، لكن

بعد أكله يجدوا طعمًا مختلفًا، فهو أفضل وأطيب كثيراً، ﴿**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**﴾ يعني شبيها ببعضه في الشكل واللون لكنه مختلف في الطعم.

﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ**﴾ وهذا نعيم آخر لأهل الجنة، حتى تكتمل العيشة الراضية.

﴿**مُطَهَّرَةٌ**﴾ الطهارة من النجاسات الظاهرة والأقذار؛ قال ﷺ: (**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون، ولكن طعامهم ذلك جُشاء ورشح كرشح المسك**) (أخرجه مسلم)، وكذلك النجاسات الباطنة؛ مثل الحقد والحسد والغلّ والبغضاء، وغيرها: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47)**﴾ (سورة الحجر).

﴿**وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ 1- ماكثين فيها، ولا يخرجون منها: ﴿**لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48)**﴾ (سورة الحجر)، فمن يدخلها لا يخرج منها، بعكس النار التي قد يدخلها إنسان ثم يتوب الله عليه ويخرج إلى الجنة.

2- عيشهم دائم لا يقطعه موت، ودليليه قوله تعالى: ﴿**يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى**﴾ (سورة الدخان: 56).

۞ ۞ ۞

ويضرب الله الأمثال للناس (26-27) .

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾، الحياء في حق البشر: خُلُقٌ يدفع صاحبه إلى اجتناب القبيح، أما ربّ العباد فإن استحياءَهُ منزه عن أي ضعف ونقصان، فحياء الله من عبده حياء كرم وبرٍّ وجود وجلال، فهو حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحي أن يعذّب ذا شيبة شابت في الإسلام، فمعنى ﴿**لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا**﴾ لا يمتنع عن ضرب هذا المثل، ومعنى ﴿**وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ أي: لا يأمر بالحياء من الحق، ولا يمنع منه، ولا يمتنع عنه.

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي يَضْرِبَ مَثَلًا مَا**﴾ أي مثل مهما صَغُرَ، ﴿**بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾، جاء في أسباب النزول لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين: يعني ﴿**مَثَلُهُمْ**

﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ (سورة البقرة: 17)، وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ (سورة البقرة: 19)، قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية.

﴿بَعُوضَةً﴾ حشرة صغيرة معروفة تقتات على أخذ الدم من المخلوقات الحية (الإنسان وغيره). ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصّغَر، أي: لا يستحيي أن يضرب مثلاً بالبعوضة أو حتى الأصغر منها، أو يكون معنى (فوقها): أكبر منها في الحجم.

وقد اكتشف العلماءُ اليوم مخلوقات بكتيرية أصغر من البعوضة تعيش في أمعائها تحميها إذا أخذت الدم من إنسان أو حيوان مريض، بينما ينتقل المرض منها إلى الإنسان، أو قد يكون المعنى: فوق ظهرها، واكتشفوا مخلوقات أخرى التي تعيش فوق ظهرها.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ من أهداف هذه الأمثال التي يضربها الله: بيان الحق وإظهاره للناس، فالذين آمنوا (القسم الأول من الناس) يعلمون علم اليقين أن الله تعالى لم يضرب هذه الأمثال عبثاً، بل لحكمة بالغة. فينبغي للمؤمن أن يتقبّل أوامر الله تعالى ويعمل بها بالشّوق والرغبة، ولا يعترض عليها؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله ما أنزلها إلا لحكمة، وليس من الخطأ أن نبحث عن هذه الحكمة، لكن بعد التصديق الكامل.

وأما الكفار (وهم النوع الثاني من الناس) فإن من طبيعتهم العناد والاعتراض على أي شيء، فهم يسألون دائماً: لماذا وماذا وكيف وأين.. هذه الأسئلة التي تُبَيّن عدم قبولهم بأوامر الله فاستحقوا الفشل والهلاك، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: **(ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)** ، فما ينبغي لمسلم أن يكون مثلهم.

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ الضمير (به) قد يعود على (المثل) أي: هذه الأمثال التي نضربها هناك الكثير من الناس لم يُصدّقوها ولم يؤمنوا بها واعترضوا عليها؛ فهؤلاء ألقوا أنفسهم في الضلال، أما المؤمنين المصدّقين بها فإنهم أهل الهداية.

وقد يعود على كلام اليهود أو الكفار واعتراضهم، أو إشاعاتهم وشُبهاتهم، فيكون المعنى: إن من يقتنع بكلامهم وأفكارهم وشُبهاتهم التي ينشرونها عن الدين وعن النبي

ﷺ، فيتبعها ويُروّج لها، فهؤلاء ضلوا عن الطريق الحق. ومن لم يرضَ بها، وثبت على دينه وأيمانه، ولم ينخدع بما يُروّجوه، فهم أهل الهداية والسداد.

﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ يعني ما ينخدع بهذه الشبهات ويتأثر بأقوال اليهود والمشركين (إلا الفاسقين)، الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ فهم لا يستحقون الهداية لأنهم لم يسعوا لها ولم يبحثوا عنها وإنما تأثروا بشبهات الكفار.

من صفات الفاسقين: ثم يصف الله هؤلاء الفاسقين بصفات، فمن صفاتهم:

1-﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ من طبيعتهم أن ينقضوا عهودهم، سواء العهد مع الله[1]؛ أو مع عباده، فهم لا يبالون بالمواثيق، ولا يحترمونها، والشواهد على ذلك كثيرة، كنقض بني قريظة والنضير العهود مع الرسول ﷺ، أما في العصر الحديث فإن ذلك لا يخفى على أحد، فلم يلتزموا بأي ميثاق ولا اتفاق.

2- ﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ أي: لا يُطيعون الله، فرفضوا وخالفوا كل ما أمرهم به، مثلاً: أُمروا بالصلاة فتركوها، بل بعضهم منع الناس منها وأغلق المساجد، وأُمروا بالحجاب؛ فقالوا: رجعية وتخلّف وكبت لحريّة المرأة، وأُمروا بالزكاة فقالوا: هذه ضريبة ولن ندفعها، وأُمروا بالجهاد، فقالوا: أعوذ بالله.. اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد، فهذا كلام محرّم دولياً!! فاتبعوا أهوائهم، قال تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ**﴾ (سورة القصص).

3-والصفة الثالثة: ﴿**وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾ فهم لا يسعون للخير أو النفع في هذه الدنيا، بل الدمار والشر غايتهم.

﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ لا يوجد لهم حظّ من الخير والربح لا في الدنيا ولا في الآخرة.

۞ ۞ ۞

(1) مثل قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف 173)، وهناك مواثيق أخرى مثل قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ... (83)﴾ (سورة البقرة)، وقوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

هلا تفكرتم ؟ (28-29).

﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ... (28)**﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ**﴾ هذا استفهام بمعنى التوبيخ والإنكار على هؤلاء، فبعد كل هذه الأدلة والبراهين واعترافكم بأنفسكم أن الله هو الذي خلقكم، وخلق كل المخلوقات مِن قبلكم ومِن بعدكم، كيف لم تؤمنوا به؟ كيف تُنكروا عليهِ أن يبعث لكم نبياً ليُرشدكم إلى ما يُصلح أحوالكم في الدنيا والآخرة؟

﴿**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا**﴾ قبل أن تُخلَقُوا، فكنتم في عِداد الأموات، ﴿**فَأَحْيَاكُمْ**﴾ أي: أوجدكم، وجعلكم أحياءً بقدرته، فمن أعظم النعم أن جعلكم تعيشون وتحيون على أرضه، وتأكلون من رزقه، وتشربون من الماء الذي أنزله إليكم من السماء.

﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ عند انتهاء آجالكم؛ فالذي خَلَقَ؛ هو الذي بيده الإماتة، والذي أعطى الحياة هو الذي بيده إيقافها، فهو القادر على ذلك وحده.

﴿**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ في البرزخ (القبر). وبعدها يُحييكم حياة خالدة أبدية: إما نعيم مقيم، أو -والعياذ بالله- جحيم، هذه الحياة هي الحياة الحقيقية، وسيكتشف ذلك عندما يراه بعينه، فيقول: ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)**﴾ (سورة الفجر).

﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)**﴾ هذه هي الحقيقة، مهما عشتم في الدنيا فإن مصيركم إليه، وعودتكم إليه لا محالة، فيجازيكم الجزاء الأوفى، فلتكن عودتكم إليه في الدنيا حميدة صحيحة سليمة كما أراد، حتى تكون عودتكم إليه في الآخرة راضية.

ثم تُجمِل الآيات نِعَمَ الله على الناس: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾، خلق ما في الأرض- ما ترون أو ما لا ترون- كُلّه خَلَقَهُ لأجل أن لتنتفعوا به. و﴿**مَا فِي الْأَرْضِ**﴾ كل ما في باطن الأرض من نِعَمٍ هي أيضاً لكم، ولا يخفى ما في الأرض من نَعَمٍ عظيمة؛ كالنفط والغاز والذهب وغيره، لتشكروه على هذه النعم وتعبدوه وحده.

﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ ثم خلق بعدها سبع سماوات، وليس هُناك ما يمنعه من أن يخلقها كلها دفعة واحدة بقوله: (كُن) فتكون بإذن الله، أو أن يخلق شيئاً آخر أثناء خلقها.

﴿**فَسَوَّاهُنَّ**﴾ أَتَمَّ خلقهن على أكمل وجه، فجعلهن سبع سماوات فوق بعضهن تامّات الخلق والتكوين، لا فُطور فيها ولا تَصَدُّع، قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3)**﴾ (سورة الملك).

﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ العلانية والسّر، الماضي والحاضر والمستقبل، بل يعلم جل جلاله ما هو أخفى من السرّ، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)**﴾ (سورة طه). فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، حتى ما تُخفون وتكتمون.

۞ ۞ ۞

بداية خلق آدم عليه السلام (30-38).

أخبرت الآيات السابقة أن الله تعالى خالق السماوات وما فيها من أجرام هائلة، وهو الذي خلق الأرض وما فيها وما عليها، فهو الذي يستحق العبادة وحده، فكيف يعبُدُ أُناسٌ مخلوقاً من مخلوقاته؟ وكيف يؤمنون بأُلوهية بشر أو حجر؟ أو شمس أو قمر؟

ثمّ يقُصّ علينا قصّة بداية خَلْق الإنسان على هذه الأرض، ومثل هذه الأخبار لا يُمكن أن يُخبِرَ بها أحدٌ إلا أن يكون وحياً من الله، فلا أحد شهد هذه الحوادث ثم جاء ليُخبرنا بها، فمرجعنا فيها هو الوحي: القرآن الكريم وما صحَّ من أحاديث الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**﴾ واذكر يا محمد للناس خبر الملائكة الذين قال الله لهم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ و(جاعل) أي: خالقٌ، وقال: (جاعل) ولم يقل: (سأَجعل) أو (سوف أجعل) على سبيل التأكيد، أي أنني خالق لا محالة.

﴿**خَلِيفَةً**﴾، وقد اختلف المفسرون في معنى (خليفة)، فقال بعضهم:

(1) أقواماً يخلف بعضهم بعضاً، أي أجيالاً يتناسلون؛ يموت جيل ويخلفه آخر، مثل قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ**﴾ (سورة الأنعام: 165).

(2) أو: خليفة منكم أيها الملائكة، أي يخلُفكم، وهذا يعني أنهم كانوا يعيشون على الأرض، أو كان خلقاً آخر يسكن الأرض؛ سيخلق خلقاً آخر يخلُفُهم.

(3) أو: الخليفة يخلف الله تعالى في تبليغ أحكامه وشريعته للناس، كما قال تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (سورة ص: 26).

وكل هذا محتمل؛ لكن قول الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبلهم وقد أفسدت فيها، واستفهام الملائكة للاستعلام، وليس للاعتراض، قطعًا.

فلما أخبرهم بهذا الخبر؛ تساءلوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ أي كيف تخلق فيها أناساً سيُفسدون، ويسفكون دماء بعضهم؟ فإن كان الهدف من خلقهم عبادتكَ فنحن ﴿**نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ أي نُعَظّمك ونُجِلُّك ونُقَدّرك حق قدرك.

﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ التقديس هو التنزيه عن النقائص، فكيف تخلُق غيرنا ونحن نعبدك ونُسبح بحمدك ونُعَظّمك؟ كما أننا لا نتصف بصفات الفساد والإفساد وسفك الدماء؟

فقال الله تعالى مُجيباً لهم: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (30)﴾ أي: لي في هذا الخلق حكمة لا تعلمونها، فأنا أعلم ما لا تعلمون من الأمور والأشياء. وقيل: أعلم بوجود إبليس بينكم وهو ليس مثلكم طائعًا. وقيل: يعني: إذا أردتَ خلق عابدين لك في الأرض فأنزلنا إليها ونحن نعبدك ونسبح بحمدك فيها، فقال الله تعالى لهم: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم، والله أعلم.

وفي سؤال الملائكة دليل على جواز السؤال عن الحكمة من خلق الأشياء، ومحاولة الإجابة عنها بالبحث العلمي بشتى الوسائل العلمية الجائزة شرعاً، فالله "يرضى لعبيدهِ أن يسألوه عن حكمته في صُنعه، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، ولاسيما عند الحيرَة".

﴿**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ أي: ننزهكَ يا رب عن كل نقيصة ونُعَظّمكَ، فنحن عباد ضعفاء لا نعلم إلا ما تُعلّمنا إياه.

﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ أراد الله تعالى تكريم آدم ﷺ أمام الملائكة، فعلمه أسماء الأشياء التي على الأرض من إنسان وحيوان ودابة وطير وحجر وغيرها، أو أسماء الملائكة، وكلمة: (كُلها) تَدُل على أنه تَعَلَّم كُل شيء يحتاجه في حياته، ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**﴾ أي اختبرهم، فَعَرَضَ هذه المُسمّيات عليهم ، وقال: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (31)﴾ في زعمكم أنكم أحق بالخلافة منه، فأراد عزّ وجلّ أن

يُعَرّف الملائكة أنهم لا يُحيطون بكل شيء علماً، وأن آدم يعلم أشياء لا يعرفونها.. عندها أدركوا خطأهم فبادروا بالتوبة وقالوا: ﴿**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ أي: ننزهكَ يا رب عن كل نقيصة ونُعَظّمكَ، فنحن عباد ضعفاء لا نعلم إلا ما تُعلّمنا إياه.

ونستفيد من الآية أن مَن سُئِلَ عن شيء وهو لا يعلمه أن لا يستحي أو يتردد في قول: لا أدري أو لا أعلم، كما قالت الملائكة ذلك.

ثم أضافوا: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ**﴾: فأنت صاحب العلم الواسع الكامل المحيط بالماضي والحاضر، والمستقبل؛ والغيب والشهادة، والسر والعلانية.. فلا يغيبُ عن علمكَ شيء صَغُرَ أم كَبُرَ.. و﴿**الْحَكِيمُ** (32)﴾ في أفعالك وخلقك، يعني ما من شيء تخلقه إلا لك فيه حكمة بالغة، عرفناها أم لم نعرفها..

فقال تعالى لآدم ﷺ: ﴿**أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**﴾ أي: أسماء الأشياء التي عَلَّمَهُ إياها، فلما أنبأهم بها قال الله لهم: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾؟ ألم أُخبركم أني أعلم كل شيء؟ واعلم حتى ما يغيب عن الأعين والقلوب والعقول، سواء في الأرض أو في السماء، وأعلم ما تُظهرون، وما تُخفون.

ثم قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**﴾. هذا الاختبار للملائكة ولآدم عليهم السلام حتى يُعلّمهم ويُعَلّمَ كُلّ من يقرأ القرآن دروساً وعظات عظيمة جليلة. فقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم ﷺ على وجه التكريم والتحيّة، وكذلك على وجه الاعتذار له عما قالته في حقه ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ .

﴿**فَسَجَدُوا**﴾ والفاء تدُل على سرعة استجابتهم لأمر ربهم، وعدم تأخُّرِهم، فهم الطائعين الذين ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾.. ولم يكن سجود عبادة على الأكيد، فإن سجود العبادة لغير لله مُحَرَّمٌ.

فسجودهم كان طاعةً لله وامتثالاً لأمره، والسجود عبادة، فلو أَمَرَنا الله أن نسجدَ لأحد من خلقه لسجدنا طاعةً واتباعاً لأمره، فسجودهم لآدم عبادة وطاعة يَتَقَرَّبُون بها إلى الله، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم، وسجود أخوة يوسف تكريم له أيضًا.

وقيل: أن اللام في قوله: ﴿**اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ سببية، أي: اسجدوا لله شُكرًا لأجل خلقه آدم، فالسجود كان لرب العزة وليس لآدم، ومثله أيضًا سجود أخوة يوسف له.

﴿**فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (34)﴾، فأطاع الملائكةُ الأمر، لكنّ "إبليس" ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾ أي رفض امتثال أمر ربه مع الإصرار والتحدّي، على سبيل الاستكبار والتعالي، ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ فاستحق أن يكون من الكافرين لرفضه طاعة أمر الله، وسوف يُلاحقه الندم على هذه المعصية إلى يوم القيامة فيبكي ويتحسّر كمداً وغيظاً كلما رأى مُسلماً يسجد لربّه، ففي صحيح مسلم مرفوعًا: (**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلي أمِرَ ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمِرتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار**).

۞ ۞ ۞

آدم عليه السلام وزوجته.

بعد قصة آدم والملائكة، خلق الله لآدم زوجه حواء، ثم قال تعالى لهما: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ فأسكنهما الجنة يعيشان فيها حياة هانئة رغيدة، لا جوع ولا عطش ولا تعب، فيأكلا من ثمارها وطعامها، وحذّرهما من الأكل من شجرة بعينها اختبارًا وامتحاناً لهم، فقال: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ ولا تسأل ما هي هذه الشجرة، فلو كان في عِلمها خير لَبَيَّنَهُ ربنا تبارك وتعالى، وقد سُئِلَ أحدهم عن ذلك فقال: "علم لا ينفع وجهل لا يضُرّ".

﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ أي الظالمين لأنفسهم بعصيان أوامر الله، وإطاعة إبليس؛ العدو الذي حذّرهم منه ومن كيده ووسوسته، ففي سورة طه: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** (117)﴾.

لكن إبليس قرر أن يُلاحق آدم وذُرّيته ليبعدهم عن الحق، ويدفعهم إلى المعصية، فوسوس لآدم وزيّن له الأكل من الشجرة، وَحَلَفَ أنها شجرة من يأكل منها يخلد ولا يموت، فأكل آدم وزوجُه: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ أي: انتقلوا من النعيم والرغد، إلى دار التعب والنَّصَب، من الجنة إلى الأرض، فقال تعالى: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** (36)﴾.

وبدأت العداوة بين الخير والشرّ، فإبليس سعى بكل قوة وحيلة أن يوقع آدم وذرّيته. ويسعى أتباعه من شياطين الجن والإنس لإبعاد المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، بكل الوسائل والحيل، كالإعلام والأقلام والأفلام والإغراء بالمال والنساء، وغيرها من الفتن.

هنا ملاحظة مهمة: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ**﴾ فقد يُفتن الإنسان بما في الأرض من حياة وزخارف زينة ومتاع، فيرغب أن يبقى فيها، لهذا كان هذا المتاع ﴿**إِلَى حِينٍ**﴾، فالله تعالى حدد لها حيناً معلوماً لتنتهي به، فالإنسان يأتي حِينُهُ بموته، والكون حِينهُ بداية يوم القيامة.. فلا ينبغي للمسلم أن تغره الدنيا، ولا زخرفها، ولا زينتها؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه سيعود إلى الله في ذلك الوقت الذي حدده ربنا تبارك وتعالى.

إذاً: عصى آدم وزوجه ﴿**فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾، ولم يعلما ما يفعلان، فناداهما ربهما: ﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)**﴾.. ثم بيّنَ لهم ما هو الحل: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ تاب عليه بكلمات! فما أعظمه وما أكرمه.. مجرد كلمات؛ تَغفر بها الذنوب، وتَمحوا بها الخطايا، وتَتَجاوز عن الزلات، ليس ذلك فحسب؛ بل هو الذي علمنا، وقبل منا دُعاءنا.. إنها الرحمة، هنيئاً لك أيها المسلم المؤمن.. كلمات؛ لكنها إذا كانت من قلب صادقٍ ستكون سبباً في مغفرة الذنوب..

﴿**إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.. تاب الله على آدم بكلمات علمه إياها.. عشر كلمات فقط: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23)**﴾، فهو كثير التَّوب.. عظيم الرحمة.. القائل: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64)**﴾ (سورة النساء).

قال تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾ آدم وذرّيته، وإبليس وذرّيته، ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)**﴾ فإني سأبيّن لكم طريق الهداية والخير التي تنالون بها رضواني، فمن سار على هذا النهج وعلى هذا السبيل ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ من فتن الدنيا فإنهم سينجون -بإذن الله- منها. ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ في الآخرة عندما يجزيهم الله بالحسنى على أعمالهم الصالحة.

ومن تَنَكَّب طريق الحق الذي أراده الله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ المكتوبة وهي القرآن الكريم والآيات المرئية، وهي المخلوقات في هذا الكون العظيم، وقالوا بأن الطبيعة هي الخالقة، أو قالوا: جاءت بالصدفة: ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ هذه عاقبتهم إذا ماتوا وهم على هذا الكفر، فإن النار مصيرهم، وهم فيها خالدون.

۞ ۞ ۞

من صفات بني إسرائيل (40 -43).

بعد ذكر قصة بدء الخلق، والعداوة بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وأنزل اللهُ آدم لِيُعَمِّر الأرض، ويهدم ما سَيَبْنِي إبليس من الضلال، ليُحقق الخلافة في الأرض. عَرَضَت الآيات قصة من قصص الدعوة إلى الله كمثال، إنها قصة بني إسرائيل مع أنبيائهم، فقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾، فهذه الآيات تخاطب بني إسرائيل، و (إسرائيل) هو نبي الله يعقوب ﷺ، وقد ثبت ذلك في القرآن والسُّنة الصحيحة، و(بنو إسرائيل) هم ذرية أولاده الذين تشكلت مِنهم فِرَق بني إسرائيل، لأنهم يعودون في أصولهم إلى أولاد يعقوب الاثني عشر.

وقد جاءت هذه القصة بعد قصّة إبليس، وكأن في هذا رسالة تقول لنا: إن اليهود - أو بني إسرائيل- أشدُّ الناس اتباعاً لإبليس، وأشدهم إجراماً مثله، وأشدهم حقداً وحسداً مثله، وأحرصهم على الصّد عن سبيل الله وعن دين الله وشريعته وأحكامه مثله.

﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ يناديهم ربنا بحرف النداء (يا) وهو للبعيد والقريب، فهم بعيدون عن الحق، والله تعالى يُرَغِّبُهم في أعمال تُقرّبهم منه، فمن يتبع أمره يكون قريباً منه.

وناداهم أيضًا باسم أبيهم يعقوب ﷺ؛ لعل ذلك يُهيج العاطفة لديهم فيتذكروا آباءهم الصالحين، وأسلافهم الصادقين، وكأنه جل جلاله يقول لهم: يا أبناء هذا العبد الصالح كونوا مثله في الطاعة والتصديق والإيمان.. ومن كان أباه صالحاً فلا يليق به أن يعصي أو يظلم أو يَتَجبّر.

﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ تذكّروا ، هذه النِّعم التي أكرمكم الله بها، فلا ينبغي أن تغيب عن بالكم أبداً، فاشكروه عليها، ولا تستخدموها في ما يُغضبه.

وكم هي النعم التي أكرمنا الله بها؟! فالخطاب وإن كان موجه لبني إسرائيل إلا أنه يشمل الناس كُلّهم، وأعظم نعمة أنعمها الله علينا أن جعلنا من أمة محمد ﷺ.

﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي**﴾ أطيعوا أوامري، وآمنوا بمحمد وبكتابه؛ ﴿**أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ أُنجز لكم ما وعدتكم به؛ من القبول والرحمة وجزيل الثواب.. ومن المعروف أن اليهود لم يلتزموا يوماً بعهدٍ، فإذا كانوا قد نقضوا عهدهم مع الله تعالى، ومع أنبيائه، ومع محمد ﷺ، مراتٍ ومرات، فهل سيلتزمون بعهدٍ مع دولةٍ أو شخص؟

﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ اجعلوا مخافتي أمام أعينكم قبل كل فعلٍ تفعلونه أو قولٍ تقولونه، فالخوف من الله يُبعدكم عن المعاصي، ويدفعكم إلى الأعمال الصالحات.

وقوله: ﴿**وَإِيَّايَ**﴾ تعني: إياي أنا؛ لا غيري، فهو فقط من يستحق أن تخافوا منه، ولا تخافوا المخلوقات، فكلها تحت أمره وتصرّفه، أياً كانت هذه المخلوقات.

ثم يأمر ربُّنا بني إسرائيل ويقول: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ**﴾ يدعوهم تبارك وتعالى إلى الإيمان بما أنزلَ على نبينا محمد ﷺ، الذي يُصَدّق ما بين أيديكم من الكُتُب غير المحرفة، وهذا الإيمان يتطلب الإيمان بالقرآن وبمن أُنزل عليه؛ لأن كتبهم قد بشَّرَت بالقرآن وبالنبي محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**﴾ (سورة الأعراف:157).

وقيل في معنى ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم**﴾ أي: شاهد للتوراة والإنجيل بالصدق، فلو قال قائل: أنا لا أُؤمن بأن التوراة والإنجيل مُنزلة من عند الله، يُقال له: الله تعالى هو الذي أنزلهما؛ لأنه ذكر ذلك في القرآن، والقرآن صادق، والمقصود قطعاً التوراة والإنجيل الحقيقية لا المزورة والمحرّفة.

﴿**وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾ أي: بمحمد ﷺ، وتقديره: ولا تكونوا أول من يكفر بمحمد، فأنتم أولى من يؤمن به لأن عندكم علم بنبوته، وقد بَشَّرت به كتبكم التي بين أيديكم، ولا تكونوا أول من يكفر بالقرآن لأن كتبكم أيضاً بشرت به وذكرت صفاته، فإن عندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم.

بل إن اليهود كانوا يَعلَمُون وقت ميلاده ﷺ، وقت مبعثه، وكانوا يطمعون أن يكون هذا النبي منهم، لأنه استقر في نفوسهم أن لا نبي إلا من بني إسرائيل، ولما بُعِثَ رسول الله ﷺ من نسل إسماعيل، لم تحتمل نفسيتهم التي صاغها التلمود وصوّرتهم شعب الله المختار، وهو السادة والقادة كيف تكون النبوة في غيرهم ويكونون أتباعاً لهذا النبي؟

وأمر آخر من الله لهم: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ وهذه صفة من أسوأ الصفات، وهي المتاجرة بالدِّين، فقد نهى الله تعالى بني إسرائيل عن أخذ أجرة على خدمة الدين، كأخذ الأجرة على تعليم الناس الدّين ودعوتهم إليه، فأخذوها، بل أخذوا الأموال لأجل أن يحرفوا كلام الله، لهذا نهاهم ربُّنا قائلا: ﴿**وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ أي:

(1) لا تستبدلوا دين الله وأحكام الله وشرائعه بأحكام وشرائع وضعها المخلوقين لأجل مصلحة دنيوية، ولا تُكذّبوا وتُزوّروا لأجل أموال ستتركونها يوماً أو تتركُم.

وللأسف فإن بعض المسلمين اتبعوا قوانين الغرب، وتركوا شَرَع ربهم لهم، فتحققت فيهم نبوة محمد ﷺ: (**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبرٍ، أو ذراعًا بذراعٍ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**)، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: (**فمن؟**) (رواه البخاري).

(2) لا تأخذوا الثَّمَن على دعوتكم إلى دين الله، فأجركم تأخذونه من الله إن كنتم صادقين، أليس أنبياء الله هم قدوتكم؟ وما من أحدٍ منهم إلا وقال لقومه: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180)**﴾ (سورة الشعراء).

(3) لا تأخذوا الثَّمَن على عمل لم تعملوه، كصكوك الغفران مثلاً، أو التوسط بين العبد وربه، فالله تعالى هو الذي يغفر الذنوب لا أنتم.

(4) لا تصدروا لأحد فتوى لأجل ثمن، أي ثمن، فتخالفوا بها شرع الله وأحكامه، وخاصة للحُكام والمسؤولين والخلفاء، وهذه من أشد الأمور خُطورة، فهذا رسول الله عُرضت عليه الدنيا بأسرها: المال والجاه والسلطان والنساء وغيرها؛ لأجل أن يقول كلمة واحدة لا تُرضِ الله فما قالها، أو يتراجع عن أمر أمره الله به فما تراجع، فكان قُدوة لنا.

(5) لا تؤيّدوا الظَلَمَة وتُبرروا أعمالهم التي لا تُرضِي الله لأجل منافع دُنيوية.

➤ فمعنى الآية: لا تبيع دينك بعرضٍ من الدنيا، مهما اشتدت الفتن والبلايا والمحن.

وقوله تعالى: ﴿**ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ يدل على أن هذا الثَّمَن مهما كان كبيراً ومغرياً في نظرنا؛ فإنه قليل، بل قليل جداً، ولا يُساوي غضب الرَّب. والمال ثَمَن، والمناصب والرياسة ثَمَن، والسلطة والجاه ثَمَن، والهدايا والرشاوى ثَمَن، والواسطة والمحسوبية ثَمَن..

﴿**وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** (41)﴾ أمر عام لبني إسرائيل ولغيرهم من الناس، ﴿**وَإِيَّايَ**﴾ إياه وحده، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة.. إنه الرَّب العظيم. فإن اتقيتموه فإنكم بلا شك سَتُقَدّمُونَ الآخرة على الدنيا.. فلا تغرَّكم زينتها، ولا يؤثر فيكم زخرفها.

﴿**وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (42)﴾ فطمس الحقائق وخَلطها بالكذب والافتراء من صفاتهم، وهي أيضاً جريمة نكراء، نهاهم عنها، ومَقَتَ من يكذب ليُضل الناس، فقال: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ... (144)**﴾ (الأنعام)، كما نهاهم موسى ﷺ أيضاً عنها، فقال مهدداً: ﴿**وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61)**﴾ (سورة طه).

﴿**وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ وهذه أيضًا صفة أخرى مُتأصلة فيهم، فقد أخفوا -مثلاً- حقيقة نبوة محمد ﷺ، وهم يعلمون أنه نبيّ صادق، ففي قصة حُيي بن أخطب عندما اجتمع مع النبي ﷺ: وسأله أخوه أبو ياسر: أهو هو؟ قال: نعم والله: قال: أتعرفه وتُثْبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسِك منه؟ قال: عداوتُهُ والله ما بَقِيتُ[1]، وهذه العداوة مازالت قائمة حتى الآن، لهذا أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146)**﴾ (سورة البقرة).

وهم أول من أظهر النفاق، فأخفوا الكفر والشرك والعداوة وأظهروا الإيمان، فكانوا سبباً لظاهرة من أسوأ الظواهر في التاريخ إن لم تكن أسوأها، وقد ساعدوا في نشأة المنافقين في المدينة الذين كانوا يعملون لصالحهم، كعبد الله بن سلول وأتباعه.

كما أخفوا أوامر الله التي في كتابهم، واستبدلوها بتعليمات حاخاماتهم الموافقة لأهوائهم، وقد اعترفوا بهذا التحريف والتزوير، فهذا سيدنا داود يشكو من قيام اليهود

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 140.

بتحريف كلامه في حياته، ففي مزمور 56: (اليوم كله يحرفون كلامي. علي كل أفكارهم بالشر6 يجتمعون، يختفون، يلاحظون خطواتي عندما ترصدوا نفسي 7 على إثمهم جازهم. بغضب)، فإنهم قد حرّفوا كلامه في حياته، فما يُتوقَّع منهم بعد موته؟

وفي سفر أشعياء 29: (وَيلٌ لِلَّذِينَ يَتَعَمَّقُونَ لِيَكتُمُوا رَأيَهُم عَنِ الرَّبِّ فَتَصِيرُ أَعمَالُهُم فِي الظُّلمَةِ وَيَقُولُونَ: مَن يُبصِرُنَا وَمَن يَعرِفُنَا؟. [16]يَا لَتَحرِيفِكُم!).

ثُمَّ هُم بعد تحريفه يَدَّعُون أنه وحي الرَّب، ففي سفر أرميا (8: 8): "كَيفَ تَقُولُونَ: نَحنُ حُكَمَاءُ وَشَرِيعَةُ الرَّبِّ مَعَنَا؟ حَقًّا إِنَّهُ إِلَى الكَذِبِ حَوَّلَهَا قَلَمُ الكَتَبَةِ الكَاذِبُ".

وقد اشتهر بنو إسرائيل بهذه الصِّفة، حتى يومنا هذا، فقد حَرَّفوا التوراة، وخلطوا الصحيح بالمكذوب، فَتَبَدّلت العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات، وطمسوا الحلال وزينوا الحرام وزخرفوه بتغيير اسمه؛ ليُلبِسوا على الناس، فالخمر مثلاً أسموها مشروبات روحية، والرِّبا فائدة، والميسر حظاً، والرشوة خدمة، والعريّ حرية، والنفاق سياسة... كما يُسَمّون أصحاب الآراء المنحرفة بأصحاب الفكر المستنير؛ بينما يسمون أهل الحق بأصحاب الفكر الأصولي الرجعي، إلى غير ذلك مما يتجدد في كل زمان.

➤ فمعنى الآية باختصار: لا تستخدموا أي وسيلة لخلط الحق بالباطل فتُضِلُّوا الناس، فلا تلبسوا الحق بالباطل في الدِّين، ولا تلبسوا الحق بالباطل في الأخبار فتشوهوا التاريخ وتزوروا الأحداث، ولا تلبسوا الحق بالباطل في الأخلاق والآداب والمعاملات، فالجاهل قد يُعذر.. لكنكم تعلمون الحقيقة علم اليقين، وتعلمون أنكم كاذبون مُزَوّرون للحقائق، مُفترون على الله وعلى أنبيائه وعلى المؤمنين وعلى الناس الكذب..

ثم أمرهم الله تعالى بعد الإيمان بأداء العبادات، فقال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ أي: أبقوا على علاقتكم مع الله موصولة قوية؛ بأن تتعبدوا له بالصلاة، وتتقربوا إليه، فإقامة الصلاة يتطلب إتقان كل ما يتعلق بها من طهارة حسّية وقلبية، لذلك لم يقل: صَلّوا، أو أدّوا الصلاة؛ لأنه لا يكفي الإتيان بحركاتها فقط، فالصلاة تُحيي الروح والبدن.

﴿**وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ والغاية من الزكاة تكريم الطبقات الفقيرة وذوي الحاجات حتى لا تدفعهم حاجاتهم إلى سؤال الناس، لا أن نُضَيّق عليهم ونستغل فقرهم وضعفهم

وحاجتهم لمصلحتنا، فنزيد عليهم "الطين بِلَّة"، والمتاعب كثرة، والشدّة شِدَّة، حتى نُذِلَّهُم، فَزَكُّوا أنفُسَكُم وأموالَكُم.

﴿**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ أي اخضعوا لله تعالى مع هؤلاء الصادقين الذين خضعوا لأوامر، واستسلموا له، فإبراهيم ﷺ استسلم وانقاد لأوامر ربه: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (البقرة:131) أي: استسلمت استسلامًا تامًا كاملاً له..

۞ ۞ ۞

من صفات بني إسرائيل أيضاً (44-54).

﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**﴾ سؤال استنكاري للتوبيخ والتقريع، لأن هذه صفة قبيحة في الإنسان، وعادة من يأمر الناس بالبر والخير يكون محل ثقتهم؛ فهذا الخطاب لعلمائهم ورهبانهم وكُبرائهم. والغريب أنهم يأمرون الناس بالبر ويتغافلون عن أنفسهم: ﴿**وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾ أي: التوراة والإنجيل وتتدارسونها بينكم وتُعَلّمونها الناس، وهي تنهاكم عن هذا الفعل الشنيع، وتأمركم أن تقوموا بالحق والعدل.

﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ توبيخ شديد جداً، "فما هذا بتصرّف إنسان مَنَحَهُ الله عقلاً يعقل به ويتفكّر، وأصحاب العقول يترفعون عن هذا العمل الشنيع، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، دل على جهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجة".

وهذا ما استمروا عليه طيلة حياتهم، ونحن نراه اليوم منهم، ومن أتباعهم، ومن تلاميذهم الذين يدّعون الإسلام، فهم يأمرون الناس بالعدل وهم أبعد الناس عنه، ويأمرونهم بالحُرّية وهم أبعد الناس عن تحقيقها، ويأمرون الناس بإحسان معاملة الأسرى وهم أبعد الناس عن ذلك، يأمرونهم بعدم القتل؛ ودماء المسلمين تقطر من أيديهم. ثُمَّ يَدَّعُونَ الحضارة والرقيّ!! فبئست تلك الحضارة التي تُبنى على الكذب والغش والاحتيال.. بئست تلك الحضارة التي تُبنى من أجساد الناس وجماجمهم..

وهذه الآية أيضاً ليست خاصة ببني إسرائيل؛ بل لكل الناس، والمسلمون أَوْلى الناس بها، فالله تعالى قد خصّهم -دون الناس- بآية أُخرى؛ فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ** (2) **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** (3)﴾ (سورة الصف).

وحتى يتمكن الإنسان من تطبيق أوامر الله والثبات عليها لا بُد من تربية نفسه وإصلاحها، لذلك فتح الله تعالى لهم باباً يُساعدهم على إصلاح قلوبهم، وتربية نفوسهم، فقال: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ أي التزموا الصبر والصلاة فإنها تُعينكم على الثبات، وتفتح لكم أبواب الخير في الدنيا والآخرة، فعليكم بالصبر فإنه مفتاح الثبات بما فيه من تَحَمُّل وجَلَدٍ ومجاهدة للنفس وتضحية، وعليكم بالصلاة التي هي مفتاح رضوان الله بما فيها من خشوعٍ وتذلل للرب جل جلاله، واستحضار لعظمته، فمن استحضر هذا المعنى فإنه سيخشع في صلاته، وستترك هذه الصلاة أثراً في سلوكه وأخلاقه ومعاملاته. والصبر يكون على الطاعات بأدائها، وعلى المعاصي بتركها.

﴿**وَإِنَّهَا**﴾ أي هاتان الوسيلتان (الصبر والصلاة) ﴿**لَكَبِيرَةٌ**﴾ أي صعبة وفيها من المشقة والتعب والجهد ما لا يطيقه كثير من الناس، ﴿**إِلا عَلَى الخَاشِعِينَ**﴾ منهم، وهم الذين خشعت قلوبهم لربهم بصدق.

☜ **من هم هؤلاء الخاشعون؟** عَرَّفَهُم ربنا تبارك وتعالى لنا بصفة مهمة جداً، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾ إيمان بالغيب.. ﴿**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (46)﴾ إيمان بالغيب أيضًا.. ولا ننسى أن أول صفة للمتقين ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ**﴾..

﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم سيقفون أمامه للحساب، فأصبحوا يرونَ طاعته أولى أولوياتهم، ورضاه فوق رضا المخلوقين، والصبر لأجلهِ أفضل الصبر، والشوق إلى لقاءه يملأ قلوبهم، وذرة واحدة في جنته خير من الدنيا وما فيها، فخشوع القلب يتبعه خشوع في الجوارح.

﴿**وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ تأكيد على أنهم سيرجعون إليه، ويَقفون أمامه، فَيُريهم صحائفهم التي لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أُحصِيَت فيها، و"مَن علم أنه لله راجع فَليعلم أنه موقوف، ومن علمَ أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فَلْيُعَدّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً"[1].

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة القاضي عياض.

ثم يقول تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ التكرار للتأكيد والتشديد على أن نِعَمَ اللهِ كثيرة لا تُحصى، يجب أن نتذكرّها مرّات ومرّات دائمًا، فنحمده ونشكره عليها بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا، فالشُّكر يكون بهذه الثلاثة.

﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)**﴾ واذكروا نعمي الكثيرة التي أنعمتها عليكم، ولا تنسوا نعمة تفضيلي لكم على العالمين الذين كانوا في زمانكم، أي زمن موسى ﷺ وليس كل العالمين، ففي زمن محمد ﷺ وهذا الزمان لا ينطبق هذا التفضيل مُطلقاً؛ فَهُم أخبث من على وجه الأرض من البشر، كيف لا وقد حرّفوا ما أنزل الله، وحكموا بما يُخالفه، وحاولوا اغتيال الرسول ﷺ عدة مرات؟! أما في هذا الزمان فيحتلون البلاد، ويُقتلون ويسجنون وينفون العباد، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بل ما من جريمة أو مُصيبة تحل في الأرض إلا ولهم فيها يدٌ من قريب أو من بعيد.

سؤال: كيف فضّل الله بني إسرائيل على العالمين؟ **الجواب**: فضلهم بأن جعلهم من سُلالة أنبياء، ألم يُذكّرهم ربنا بأبيهم إسرائيل، وسماهم باسمه؟ كما أرسل إليهم أنبياء كثيرين منهم ليُعَرّفوهم على ربهم، مثل موسى وهارون وداود وسُليمان وزكريا ويحي وعيسى عليهم السلام. وأيضًا بأن مَنَّ عليهم بمعجزات وكرامات رأوها بأعيُنهم كالمنّ والسلوى، وتظليل الجبل ونبع الماء من الحَجَر وغيرها، ويا ليتهم شكروها.

ثم يُحَذّرهم من أن الرجوع إليه -بعد كل هذه النِّعَم- على غير الطاعة، في يومٍ لا ينفع فيه إلا الطاعة، في يوم الدين الذي لا ينفع فيه إلا الدين، ولا يُسأل فيه إلا عن الدين، فقال تعالى لهم: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا**﴾ في ذلك اليوم لا ينفع أحدٌ أحداً، وإن كان أقرب الناس، حيث يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، ومن أُمِّهِ وَأَبِيهِ، ومن صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ؛ لأنَّ لكُلِّ امرِئٍ مِنهُم يَومَئِذٍ شَأنٌ يُغنِيهِ.

يقول الله لهم -ولجميع الناس-: استعدوا لملاقاة ذلك اليوم بأن تأخذوا معكم ما تتقون به من عذاب الله وغضبه، كالأعمال الصالحات، والبر والمعروف والحسنات.

﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ في ذلك اليوم لا يَقبل الله شفاعة من أحدٍ لأحد.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)﴾ فليس لهم ناصر يحميهم من عذاب الله تعالى، في ذلك الموقف العصيب الذي يحاول فيه هؤلاء المجرمون البحث عن شُفعاء، فهناك فلن ينفعكم أسيادكم ولا قوتكم ولا جيوشكم ولا أسلحتكم ولا طائراتكم ولا عملائكم ولا استخباراتكم.. لا أحد ينفع هناك إلا العمل الصالح..

ثم بعد ذكر الأصول والعقائد -كالإيمان بالقرآن وبمحمد ﷺ-، والعبادات التي أمر الله بها بني إسرائيل -كالصلاة والزكاة-، ودعوتهم لامتثال أوامره، وتحذيرهم من مخالفتها ذَكَّرَهُم ربهم ببعض النعم التي أنعمها عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حيث يُذكّرهم بأنه قد نَجّى آبائهم وأسلافهم من فرعون وجيشه، بجنديّ من جنوده لم يتوقعوه، وبعد أن كانوا قد استيأسوا وظنوا أنهم مُدرَكون، وأنهم هالكون، فشَقّ لهم البحر، وخاضوه إلى الطرف الآخر، ثم أغرق الله جيش فرعون في النيل.

وقوله: ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ بضمير العظمة، حيث أنه لا أحد يُمكن له أن يُنجيكم منهم سواه.. ولا أحد يُنقذكم منهم إلا هو.. فهو الذي يُنجّي المؤمنين من كل الكروب. وقد كان فرعون وقومه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يُعذبونكم عذابًا شديدًا سيئًا، فكانوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ فيُقَتّلون الرجال والأطفال. و﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يُبقونهن أحياء لخدمتهم، بقصد إذلالكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ فلا يجدن من يدافع عنهن، ويبقين خدماً لآل فرعون.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قد يعود الضمير (ذلكم) على استعباد الفراعنة لبني إسرائيل، وتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وتعذيبهم، أي أن الله تعالى ابتلاكم -يا بني إسرائيل- بهذا حتى يعلم صدقكم وصبركم وثباتكم على دينكم. وقد يكون عائدًا على: (النجاة) أي أن الله تعالى أنجاكم من فرعون وقومه ومن عذابهم لينظر ماذا ستعملون؛ هل ستشكرون هذه النعمة العظيمة أم تكفرونها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ومن النعم العظيمة التي أنعمتها عليكم أني أنجيتكم من جيش فرعون بمعجزة عظيمة، فقد نزع خاصية الإغراق من الماء لأجلكم، ومات فرعون وجنوده لأجلكم، ليس

ذلك فحسب، بل كل هذه الأحداث حصلت ﴿**وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** (50)﴾ أي أمام أعيُنكم، فقد كنتم شاهدين مُشاهدين.

☜ **لكن لماذا حصلت هذه الأحداث أمامهم (وهم ينظرون)؟** قال المفسرون: في ذلك حكمتان: الأولى: حتى يكون أشفى لقلوبكم وصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم، فتزدادوا بذلك شُكراً لربكم، وطاعة له، وتصديقاً برسوله. والثانية: ليكون ذلكَ حُجّةً عليكم أيضاً، فمن رأى النعمة بعينه وعاينها، لا يُتصوّر منه أن يكفر بالمنعم.

۞ ۞ ۞

مثال آخر على ظُلم بني إسرائيل أيضاً.

بعد أن اجتاز بنو إسرائيل البحر بمعجزة إلهية عظيمة، سألوا موسى ﷺ يأتيهم بكتاب من الله ليتبعوه، فسأل موسى ﷺ ربه ذلك، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ويتطهّر ويأتي إلى جبل طور سينا ليكلّمه ويعطيه الكتاب، فصام موسى، وسار إلى الجبل، وترك معهم أخيه هارون، وقال له: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ وقال لهم: "أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم، وإني ذاهب إلى ربي، ثلاثين يومًا"، ثم زاد الله عليها عشرة أيام ﴿**فَتَمّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ (الأعراف: 142)".

فلما رأوا أن موسى تأخر؛ قام رجل منهم اسمه السامريّ، وأحضر الحُليّ والزينة، وصنع منها عجلاً وقال لهم: ﴿**هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى**﴾. وكانوا قد مرّوا من قبل على قوم يعبدون الأصنام، فقالوا: ﴿**يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ فرَدَّ عليهم: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (138) **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (139) **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** (140)﴾ (الأعراف)، ويبدوا أن هذه الفكرة ظلت تدور في رأس السامري، واستغل فرصة غياب موسى ﷺ لعمل هذا العجل.

﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** (51)﴾ أي: رغم هذه النعمة العظيمة نعمة التوراة التي سيأتي بها موسى إليكم إلا أنكم ظلمتم أنفسكم بعبادة غير الله؟! والله إن هذا لهو أشد الظلم، ومن أظلم ممن عبد غير الله؟ ﴿**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ بصيغة الماضي، وكأنه جل جلاله يقول لهم: أنتم قوم عادتكم الظلم، فقد ظلمتم أنفسكم من قبل، وهاأنتم تظلمونها اليوم بهذا العمل الشنيع.

والغريب والعجيب أن اليهود يَدَّعون في توراتهم المكذوبة المزعومة أن هارون نبي الله ﷺ هو الذي صنع لهم العجل وأمرهم بعبادته، كما في سفر التكوين الإصحاح 32 الفقرة 19 وما بعدها: "وقال موسى لهرون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عظيمة؟..."، وهذا كذب وتحريف وتخريف وتزوير، حاشاه ﷺ.

ثم يَمُن الله عليهم بنعمة أُخرى: ﴿**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ رغم كل ما فعلتم إلا أنَّنا عفونا وسامحناكم، وقوله: (عفونا) بضمير العظمة، فهو ذو العظمة والكبرياء، وذو العفو والمغفرة. ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)**﴾ لعل هذا يكون حافزاً لكم على شُكر النعم التي أنعمها عليكم، فتوبوا إليه واستغفروه، واشكروه على نعمه.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)**﴾ هذه نعمة أُخرى عظيمة، إنها نعمة كتاب الله الذي أنزله على موسى ليهديهم به إلى الصراط المستقيم. وسميت التوراة بالكتاب لأن الله تعالى كتبها بيده، ففي سنن أبي داود قال النبي ﷺ: (...**وخط لَكَ التَّوراةَ بيده**،...) ، وَسُمّيت الفرقان لأن فيها من الأحكام والشرائع ما يُفرّق بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام. ﴿**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ أي: آتيناكم هذا الكتاب حتى يكون سبباً في هدايتكم وتقواكم فتطيعوا ربكم.

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**﴾ أنكر عليهم هذا العمل الشنيع، وَحَرَّقَ العجل: وأمرهم بالتوبة: ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)**﴾.

﴿**فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ أي من تمام توبتكم أن يقتل كل واحد منكم الآخر، وليس معناها كل واحد يقتل نفسه، قيل: المقصود قَتْلُ المجرمين الذين عبدوا غير الله (العجل)، وقيل: يقتل كل واحد منكم غيره، وذلك حتى تُثبت أن دين الله وأمر الله أفضل عندك حتى من أهلك وأقاربك.

﴿**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**﴾ أي أن هذا العمل -التوبة إلى الله- خير لكم عند خالقكم من الإصرار على عبادة غير الله، فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ فهو كثير التوب وكثير المغفرة.

اللقاء على جبل الطور، وطلب غريب (55- 74).

بعد أن حَرّق موسى ﷺ عجل السامري، وبعد أن تابوا من هذا العمل الشنيع، أختار موسى من عُلماء بني إسرائيل سبعين رجلاً ليذهبوا معه إلى الجبل ليتضرعوا إلى الله ويعتذروا عن عبادة العجل، لكن حتى هؤلاء الصَّفوة طلبوا من موسى شيئًا عجيبًا وخطيرًا، قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ عياناً رأي العين، أرأيتم أكثر غباءً من هذا السؤال؟

فإذا كان الله تعالى ما استجاب لنبيه موسى ﷺ عندما قال له: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**﴾ فأجابه جواباً قاطعاً: ﴿ **لَنْ تَرَانِي** ﴾، فلا أحد يمكن له أو يستطيع أن يرى الله في الدنيا، ولما تجلى الله تعالى للجبل صار دَكًا ولم يثبت، فكيف يثبت البشر الضعيف؟! هذا السؤال يدل على استكبار وتعالي، يقولون: نحن لا نؤمن لك ولا نُصَدّقك إلا إذا رأينا من أرسلك، كما قال بعض كفار قريش: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** (21)﴾ (الفرقان).

﴿**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ**﴾ أي أن الله تعالى عاقبكم بأن صَعَقَكُم فأماتكم، ﴿**وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** (55)﴾ ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم تموتون، فماتوا كلهم.

فلم يزل موسى ﷺ يبكي ويتضرّع إلى الله ويُناشد ربه ويقول: رب ﴿**لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** (155)﴾ (سورة الأعراف) حتى استجاب له، فأحياهم بعد أن أماتهم يوماً وليلةً، وكما أماتهم وهم ينظرون إلى بعضهم البعض أحياهم وهم ينظرون أيضًا لتكون حُجّة عليهم.

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ**﴾ أي أحييناكم ﴿**مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ قال المفسرون: أحياهم ليستكملوا آجالهم المكتوبة، لأنهم لم تكن آجالهم قد استوفيت، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (56)﴾ أي لعل هاتين الآيتين (أي: الإماتة والإحياء أمام أعينكم) تكونان دافعًا لكم لتشكروا نِعَمَ ربكم، وتصدُقُوا معه في العبادة، وتطيعوا أمره.

۞ ۞ ۞

نعمة أخرى..

ثم يَمُنُّ الله تعالى عليهم بنعمة أُخرى عظيمة، فيقول: ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**﴾ وذلك أثناء تيههم في الصحراء، وقصة التيه باختصار أن الله تعالى أمر موسى ومن معه من بني إسرائيل -بعدما رجعوا من الميعاد- أن يتوجوا إلى الأرض المقدّسة، وأمرهم أن يدخلوها، فرفضوا أمر ربهم، وقالوا: ﴿**يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22)**﴾ (سورة المائدة)، فقام رجلان منهم صالحين صادقين مع الله فدعوهم للدخول ولإجابة أمر الله، قال تعالى: ﴿**قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23)**﴾ (سورة المائدة).

لكنهم رفضوا ذلك بشكل قاطع، فأمرهم الله بجهادهم وقتالهم، فرفضوا ذلك أيضاً.

بل تمادوا في الوقاحة وقلة الأدب مع ربِّهم ومع نبيه، و﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)**﴾ (سورة المائدة).

وهذه كلمات خطيرة جداً، فهم رغم كل المعجزات والكرامات التي حصلت أمام أعينهم، إلا أنهم لم يؤمنوا أنه جل جلاله ربهم فقالوا: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا**﴾؟! فعاقبهم الله بأن تاهوا في صحراء سيناء أربعين سنة، "وهذه المدة كافية ليموت ذلك الجيل الخنوع الذليل الجبان الذي لم ينفع معه شيء من الحوافز والبواعث، فهو جيل لا يُتوقّع منه جهادٌ لأنه لا همة له ولا عزيمة، بل إن الخور والخوف قد عشعش في قلوبهم، والجبناء يحرمهم الله من شرف الجهاد في سبيله، وكذلك الشهادة، كما حرم الله المنافقين من ذلك في أُحد".

⇦ وفي هذا التيه حصلت أمور كثيرة، ومعجزات وكرامات لموسى ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**﴾ أي جعلنا الغيوم لكم ظُلّةً تحميكم من حرّ الصحراء، ولهب الشمس الحارق، وكانت تسير معهم أينما ذهبوا.

﴿**وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى**﴾ حيث أكرمهم الله بطعام شهي من أفضل أنواع الأطعمة، و(المنّ) وهو طعام حلو كالعسل يحصلون عليه بلا تعب، (وَالسَّلْوَى) طائر يقال

له السّماني، طيب اللحم، وكان ينزل عليهم من هذه الأطعمة كل يوم ما يكفيهم كلّهم. وبعدها قالوا: نريد شراباً، فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد جماعاتهم، كما سيأتي -إن شاء الله-.

ثم يقول تعالى لهم: ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ أي كلوا وتمتعوا بهذه الأطعمة الحلال التي رزقكم الله إياها، يوماً بيوم، وأمرهم أن لا يدّخروا منها شيئاً لغدٍ، لكنهم ماديين ولا يثقون بربهم جل جلاله ولا برسولهم، فأخذوا منها وادخروا، فقطع الله عنهم هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)**﴾ أي: ما يضُرّونا شيئاً بمعصيتهم، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعدم طاعة أمري، فالعاصي لا يضر بمعصيته أحدًا إلا نفسه، والظالم لا يضرّ بظلمه أحدًا إلا نفسه. فالله تعالى لا تضُرّه معصية من عصى، كما أنه لا تنفعه طاعة من أطاع.

۞ ۞ ۞

قصة أخرى من عجائب بني إسرائيل.

مات موسى عليهما السلام في صحراء سيناء، كما في مُسند أحمد (**سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر**) ، وأصبح يوشع بن نون نبياً لبني إسرائيل، وأكمل معهم مسيرتهم إلى الأرض المقدسة، ودخلها من قِبَلِ أريحا، فأمرهم الله أن يدخلوها ساجدين خاشعين لربهم شكراً على نصرهم ودخولهم بيت المقدس، إلا أنهم رفضوا ذلك أيضاً، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾ أي بيت المقدس أو أريحا، ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾ أي تمتعوا فيها بما رزقكم ربّكم من أكل وشرب، ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾ خاشعين لله شاكرين له، وقيل: إذا دخلتم فاسجدوا لله شكراً ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ أي ادعوا ربكم أن يحط عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ما عملتم خلال هذه الرحلة الطويلة من مصر إلى بيت المقدس، فإن فعلتم ذلك ﴿**نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ**﴾ أي نستجيب لكم فنغفر لكم ما قدّمتم، وليس ذلك فحسب، بل ﴿**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ من أحسنَ العمل وَصَدَقَ مع الله فإن الله سيجزيه خيراً، ويزيده من فضله.

لكن عادة بني إسرائيل التي لا يتركوها أبداً أنهم مُعاندون مُكابرون، حتى أنهم يُحرِّفوا أوامر الله: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾ فَبَدَل أن يقولوا (حطّة)

قالوا: "حنطة أو حبة في شعرة"، وفي الصحيحين قال ﷺ: (**قِيلَ لبني إسرائيل أدخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا: حِطَّة يغفر لكم خطاياكم، فَبَدَّلُوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة**)[1].

تلك هي العقلية المادية، فلا يُفكرون إلا في بطونهم كالأنعام، بل هم أضلّ، فالمغفرة فلا تهمهم، المهم أن يأكلوا ويعيشوا، فلما بَدَّلوا الكلام الذي أمرهم الله به؛ استحقوا غضب الله: ﴿**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** (59)﴾، أي عذاباً من السماء، وهذا الرجز أو العذاب كالصواعق أو الحجارة أو النار أو غيرها.

۞ ۞ ۞

نِعَم أخرى لهم.. ولكن !!

تعود الآيات إلى موسى ومن معه، لتذكيرهم بأشياء كانوا قد طلبوها من الله تعالى فاستجاب لهم، منها نبع الماء: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ**﴾ وقد وردت في التوراة المحرفة قصتهم مع الماء، في سفر الخروج اصحاح 17، حيث فعلوا بموسى الأفاعيل، حتى قال أثناء دُعائه: «مَاذَا أَفْعَلُ بِهذَا الشَّعْبِ؟! بَعْدَ قَلِيل يَرْجُمُونَنِي».

اقرأوا القصة في كتابهم الذي يزعمون أنه مُقَدّس، لتروا عجائب إيذائهم لموسى ﷺ، فلا وجه مقارنة بينهم وبين صحابة محمد ﷺ، عندما قالوا له ﷺ: "ألا تدعوا لنا؟ ألا تستنصر لنا"، بخشوع وتذلل لله تعالى. (رواه البخاري).

ورغم ذلك استجاب الله لهم، فقال لموسى ﷺ: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**﴾ والعصا هي التي تحولت إلى أفعى، وهي التي ضرب بها البحر، فأمره أن يضرب بها حجرًا، ﴿**فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**﴾ فقد كانوا اثنتا عشرة فرقة، بعدد أولاد يعقوب ﷺ، فكل فرقة لها عين يشربون منها.

وقال لهم نبيُّهم: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** (60)﴾ استمتِعُوا بهذا الرزق الذي أكرمكم الله به، رغم ظلمكم ومعصيتكم وتَكَبُّرِكم، فلا تفسدوا في الأرض، وكونوا من المصلحين؛ لأن الله يعلم أنهم أصل الفساد في الأرض.

---

(1) قال القرطبي ج 1 ص 393: "والباب الذي أمروا بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ "باب حطة".

ونلاحظ هنا أن ربنا تبارك وتعالى أمر موسى ﷺ أن يضرب الحجر بعصاه، وهو جل جلاله قادر أن يأمر السماء فتُمطر عليهم ما يكفيهم جميعاً، لكن الله تعالى أراد أن يُريهم معجزة أخرى عظيمة لعلهم يُؤمنون ويتقون، فهم لا يؤمنون إلا بالمادية، ولا يتأدبون مع ربهم جل جلاله ولا مع أنبيائهم، فقد يقول قائل منهم: مجرد سحابة مارّة، لذلك اختار الله تعالى الحجر ليكون أبلغ في الإعجاز، وحُجة أقوى عليهم.

۞ ۞ ۞

وعجيبة أخرى من عجائب بني إسرائيل..

وبعد أن أنزل الله عليهم أشهى الأطعمة وأحسنها، وأخرج لهم الماء من الحَجَر كان منهم أمراً عجباً، قال الله عنهم: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**﴾ يعني لا نطيق أن نأكل على الدوام نفس الطعام!! نريد أن تُنوّع لنا الأطعمة ﴿**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**﴾ لاحظوا قلة الأدب مع الله، حتى أنهم لم يقولوا (ربنا) بل قالوا (ربك) وكأنه ربه لوحده وليس ربهم، أي جحود هذا؟! قالوا: ادعُ ربكَ ليخرج لنا من نباتات الأرض، كالبقل، والقثاء وهي إما الكوسا أو الفقوس، والفوم وهي الثوم وقيل: القمح، والعدس، والبصل.

﴿**قَالَ**﴾ لهم موسى ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾ عجيب أمركم يا بني إسرائيل، كيف تستبدلون الطعام الشهي الحسن بأطعمة دونه في الفائدة والخيرية؟ إن كنتم تريدون هذا ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾ و(مِصْرًا) ليست هي دولة مصر موطن فرعون، مصراً تعني أرضاً وجمعها (أمصار)، فإن هذا الذي سألتموه يكون موجوداً في الأمصار والأراضي الزراعية وليس في الصحراء، وهو متوفر وموجود في أي مِصر تهبطون إليه، أما المن والسلوى فلا تجدوه في أي مكان، بل هو من الله وأنزله بمعجزة.

"وقوله: (اهبطوا) فيه إشارة إلى أنهم ينزلون من منزلةٍ عالية إلى درجة أقل، ينزلون من ضيافة الله تعالى إلى حيث يُشبعون بُطونهم فقط، فاستبدلوا الخبيث بالطيّب".

فعاقبهم الله مرة أُخرى على رفضهم طاعة أوامره، وعلى عبادتهم غيره، فقال تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**﴾ أي أن الله قدّر أن يكونوا

مذلولين طيلة حياتهم، فقد جُبِلوا على الجُبنِ والذُّلّ، ولم يعرفوا طريق الشجاعة والرجولة يوماً، فهم أقل من أن يُقاتلوا أحداً، لهذا قال تعالى: ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةً أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾ (سورة الحشر: 14)، لكن بعض بني جلدتنا يبذلون كل جهدهم لخدمة أسيادهم اليهود، وينشرون بأن جيشهم لا يُقهر، لكنهم سيفشلون بإذن الله.

◈ والسؤال الآن: لماذا حلَّ عليهم هذا الغضب وهذه الذلة؟

السبب الأول: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ**﴾، فقد كفروا بآيات الله المكتوبة في التوراة وحرفوها، وكفروا بآيات الله المرئية، كالمعجزات التي أكرمهم الله بها وهي لا تكاد تُحصى، فكفروا بهذه النعم العظيمة.

السبب الثاني: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ**﴾ لفظ النبيين يدُلّ على أنهم قَتَلُوا أكثر من نبي، ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ هذا زيادة في التشنيع، فلا يمكن أن يُقتَل نبيّ بحق، وجاء قوله تعالى: (بغير الحق) حتى لا يقول أحد: إن فعلهم كان عن جهل، أو أنهم لم يقصدوا ذلك.

السبب الثالث: ﴿**ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا**﴾ أيضاً بسبب عصيانهم لأوامر الله ﴿**وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)**﴾ وتجاوزهم الحدود في العدوان. والفعل المضارع ﴿**يَعْتَدُونَ**﴾ هنا يدل على أن من صفاتهم الاعتداء على الآخرين في كل زمان وفي كل مكان، وهذا لا يخفى على أحد اليوم.

۞ ۞ ۞

فاصل بين الآيات..

ثم يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ... (62)**﴾. وجاءت هذه الآية بعد ذكر العذاب وقوله تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**﴾، وهي تخاطب كل الناس، لتخبرهم عن الناجين الفائزين في الآخرة، وتقول: إن هناكَ أُناس يُنجيهم اللهُ من هذا العذاب، ولهم عنده أجر عظيم.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ بالدين الحق، الذي يتضمن الإيمان بالله الخالق والنبي الخاتم ﷺ وبكتابه الصادق، وهذه الأشياء أمر الله بها بني إسرائيل من قبل.

﴿**وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾ أي اليهود، وسُمّوا بذلكَ لأنهم (هادوا) يعني تابوا من عبادة العجل، و(التَهَوُّد) يعني التوبة، كقول موسى ﷺ: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ أي تُبنا.

﴿**وَالنَّصَارَى**﴾ أتباع المسيح ﷺ، ويُقال لهم (أنصار) أيضاً، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ... (52)**﴾ (آل عمران)، وَسُمّوا بذلكَ لأنهم سكنوا في أرض الناصرة، والله تعالى أعلم.

﴿**وَالصَّابِئِينَ**﴾ من العلماء من يقول: هم فرقة من النصارى؛ ومنهم من يقول: إنهم فرقة من اليهود؛ ومنهم من يقول إنهم فرقة من المجوس؛ ومنهم من يقول: إنهم أمة مستقلة تدين بدين خاص بها؛ ومنهم من يقول: إنهم من لا دين لهم.

﴿**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ هذا هو مربط الفرس، فإن أهل النجاة هم: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، واليهود، والنصارى، وغيرهم من عبدة المخلوقات أو الذين لا دين لهم؛ بشرط أن يؤمنوا بالله رَبًّا وإلهًا وباليوم الآخر، ويُتبعوا إيمانهم بعملٍ صالحٍ يُرضي ربهم، ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ فالله لا ينسى لهم عملهم وسيجازيهم عليه بالخير، ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ في الدنيا ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ في الآخرة، وأيضًا ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ بعد موتهم من كل ما يُخاف منه: كعذاب القبر، وعذاب النار، وأهوال القيامة؛ وقوله تعالى: ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ أي على ما مضى من الدنيا؛ لأنهم انتقلوا إلى خير منها.

۞ ۞ ۞

عودة إلى بني إسرائيل، وقصة أخرى:

ثم تعود الآيات إلى خطاب بني إسرائيل، فيقول تعالى لهم: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**﴾ أي واذكروا عندما أخذنا منكم المواثيق والعهود أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تمتثلوا أوامره وتنتهوا عما ينهاكم عنه. لكنهم رفضوا طاعته، وهُنا يضرب الله لهم - ولنا- مثالاً لرفضهم أوامره، وقلة أدبهم معه جل جلاله؛ إذ يعترضون على أحكامه وَيُريدونها حسب شهواتهم وإرادتهم، ويضعون الشروط لقبولها، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**﴾ أي: واذكروا يوم أن أمركم ربكم أن تأخذوا أحكام التوراة وما في صحف موسى بجد واجتهاد، فقال لكم: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾

وقال: ﴿**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**﴾ أي اجعلوا ما في هذه الكتاب من أحكام في ذاكرتكم دائماً، ولا تُهملوها، واجعلوها حاضرةً في قلوبكم لتعملوا بها طيلة حياتكم. ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (63)﴾ أي لعل ما فيها من أحكام تكون سبباً في تقواكم، فمن أخذ كتاب الله بجدّ وقوّة حصل على التقوى.

قال تعالى: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**﴾ أي: بعد أن رأيتم ما في الألواح من تكاليف تراجعتم عن هذا العهد، ﴿**فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (64)﴾ فهو صاحب الفضل العظيم جل جلاله.

ثم يُذكرهم ربهم تبارك وتعالى بقصّة أُناس منهم رفضوا أمر الله، فقال: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ**﴾، وقصّة أصحاب السبت جاءت مبسوطة في سورة الأعراف، ومُلخصها أن جماعة من بني إسرائيل كانوا بقرية على ساحل البحر، وكان الله عز وجل أمرهم بعدم صيد الصيد يوم السبت تعظيماً له، و ابتلاهم بأن كانت الحيتان تخرج يوم السبت إلى الشاطئ، وفي غير يوم السبت لا تأتِ. فاحتالوا لاصطيادها يوم السبت، وذلك أن النفس الخبيثة سرعان ما يقودها الشيطان إلى العصيان والفساد.

رفض الذين اعتدوا في السبت أمر الله، ولم يلتفتوا لنصح الناصحين، فأنجا الله الطائفة التي نهت عن المنكر فقط، ثم أنزل عذابه على الطائفة المعتدية بأن مسخهم قردة، فكانوا عبرة بالغةً لمن أتى بعدهم من الأمم ولمن رآهم وعرف قصتهم.

قال تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَاهَا**﴾ أي هذه العقوبة الشديدة، ﴿**نَكَالاً**﴾ أي زاجراً، ﴿**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا**﴾ أي عبرة وعظة وزاجراً عن المعاصي لبني إسرائيل الذين شاهدوا أو حضروا هذه القصة، ﴿**وَمَا خَلْفَهَا**﴾ أي للأقوام اللاحقين أيضًا، حيث تكون عبرة وعظة لهم فلا يتحايلوا على أحكام الشرع الرباني بأي وسيلة.

﴿**وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**(66)﴾ أي لأمة محمد ﷺ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بالتقوى، فهذه القصة بما فيها من ابتلاء وعقوبة؛ فيها مُعتَبَرٌ وزاجرٌ لكل من تُسَوّل له نفسه التحايل على أحكام الشرع.

۞ ۞ ۞

قصة أخرى.. وجريمة أخرى:

تنتقل الآيات إلى قِصَّةٍ أُخرى من قصص بني إسرائيل التي فيها من عنادهم وكفرهم وتعنّتهم ما يُعجز العقل، إنها قصّة البقرة، وهذه القصّة سُميت السورة باسمها، لما فيها من التحدّي والعناد لأوامر الله تعالى، بل وقلة أدبهم مع نبي الله موسى ﷺ، كما أن هذه القصة أيضًا فيها معجزة إحياء الموتى بإذن الله تعالى.

ورد في بعض كُتب التفسير أن سبب القصة: كان في بني إسرائيل رجلٌ عقيمٌ، وله مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فَقَتَلَهُ ووضعه على باب رجل آخر، ثم ادعى أن الرجل هو الذي قَتَلَه. فأتوا موسى فذكروا له ذلك، فأمرهم بذبح البقرة، وتفاصيل القصة من الإسرائيليات، ولا يقبل في تفسير كتاب الله إلا ما جاء برواية ثابتة.

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ ماذا أجابوا؟ قالوا له: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾؟ عجيب أمرهم، هذا نبي الله!! كيف يتخذكم هُزواً؟! وهل يكون أنبياء الله ممن يستهزؤون بآيات الله، أيها المجرمون؟ لكن هؤلاء لا توقير لديهم ولا تقدير ولا أدب مع نبيهم، يقولون له: أتسخر منا، وتستهزئ بنا؟ ما هي الصلة بين ذبح البقرة وكشف هوية القاتل؟

فأجابهم موسى ﷺ: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ أستجير بالله تعالى من أن أكون من الجاهلين الذين يستهزؤون بأوامر الله ويسخرون منها، ويتخذونها لهواً ولعباً.

(جاهلون) أولئك الذين يتخذون كل شيء -حتى دينهم- لعباً ولهواً. (جاهلون) الذين لا يَحْلُوا لهم أن يُطلقوا النكات إلا على القيم الدينية و التعاليم الشرعية. إن المسلم الصادق جادٌّ مُلتزمٌ، قد يمزح لكنه لا يقول إلا حقاً، وقد يضحك لكن بأدب ووقار، أما أن يُحَوّل حياته كلها إلى سُخرية ولهو فإن هذا يتعارض مع رسالته في الحياة.

لم يُعجبهم الأمر الإلهي، فعارضوه وجادلوا موسى و ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**﴾ وهذا أيضًا من قلة أدبهم مع ربهم ومع نبيهم، قالوا: (ربّك)، أوليس هو ربكم أيضاً؟ أليس هو رب كل شيء؟ ولا ننسى أن هذا اللفظ تكرر منهم من قبل.

انظروا إلى سؤالهم! ألم يقل: إنها بقرة؟ لم يقل شيئاً غامضاً، لم يقل: اذبحوا حيواناً.. بل بقرة، كيف تسألون: ما هي؟ لكن طبعهم الجدال والتحايل، فلم يُطيعوا ربهم دون تردد ولا مرة واحدة، حتى عندما خَوَّفهم الله بالجبل ورفعه فوقهم لم يُطيعوا إلا خوفاً.

قال لهم موسى: ﴿**إِنَّهُ يَقُولُ**﴾ أي ربنا تبارك وتعالى، فهذا أمرٌ من الله وليس مني، فهو الذي يقول: إنها بقرة ﴿**لَا فَارِضٌ**﴾ ليست مُسِنَّة لا تَلِد ﴿**وَلَا بِكْرٌ**﴾ ولا هي بكر صَغِيرَة لم تلد ﴿**عَوَانٌ**﴾ إنما هي وسط بَيْن ذَلِكَ.. ثم يقول لهم: ﴿**فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾ أي أن هذا أمر من الله، ويجب عليكم أن تمتثلوا الأمر، ولا تُجادلوا، ولا ترفضوا.

لم ينتهِ جدالهم وعنادهم وتحديهم، فسألوا موسى: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا**﴾، وهذا أيضاً سؤال ليس له أهمية، فلو ذبحوا أي بقرة بأي لون لكفى ذلك، لكنها قلة الأدب مع الله وأنبيائه. فأجابهم نبي الله: ﴿**إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)**﴾ يعني أن الإجابة من ربنا تبارك وتعالى لهم: إنها بقرة لونها أصفر شديد الصُّفرة، ﴿**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ أي كل من ينظر إليها تَسُرُّه ويُعجبه لونها وشكلها.

وقوله: (إنها بقرة) يعني بقرة، لم الأسئلة التي لا فائدة منها غير التعقيد والتشديد؟

﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ... (70)**﴾.

(ربّك) مرةً أُخرى.. سؤال آخر: ﴿**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**﴾، وهذا سؤال ليس له معنى ولا حاجة، فقد قال: إنها بقرة.. ثم قالوا: ﴿**إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**﴾ تشابه عليكم لأنكم أنتم من شدد على نفسه، وعَقَّدَ الأمور، وطلبتم المزيد من المواصفات.. ومن شَدَّدَ على نفسه شدَّدَ الله عليه، فما ينبغي أن نُكثر من الأسئلة التي لا فائدة منها.

ثم قالوا: ﴿**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ**﴾ كأنهم يقولون: هذه آخر مرة نسأل، وستكون بداية لهدايتنا، وكأن كل ما مضى من كرامات ومعجزات وآيات دالة على قدرة الله وعظمته ليست كافية لأن يهتدوا.

﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ**﴾ هي بقرة يا جماعة.. بقرة.. لا تحتاج إلى كل هذه الأسئلة، لكن لأنكم شددتم فهذه صفات أخرى لها، هي بقرة ﴿**لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ**﴾ أي

ليست مُسَخَّرة لحراثة الأرض، فقد كانوا يُدَرّبون البقر والعجول، وحتى اليوم عندنا يُدربون الحمير والبغال ويُذللوها لحراثة الأرض.

﴿**وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ**﴾ ليست مُعَدَّةً لحمل الماء أو تُدير السواقي الزراعية لأجل سقاية المزروعات، ﴿**مُسَلَّمَةٌ**﴾ أي سالمة من كل العيوب، فلا هي عرجاء ولا عمياء ولا مقطوعة الأُذن أو الذيل أو غير ذلك.

﴿**لَا شِيَةَ فِيهَا**﴾ أي لونها واحد ، لا شيء يُعيب لونها أو شكلها كمرض أو غيره.

﴿**قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾ وكأن كُلّ شيء مضى لم يكن حقّ، وكأنهم يقولون: الآن عرفنا أنك لا تستهزئ بنا ولا تسخر منا، فالآن ظهر صدق وجدّية كلامك يا موسى!!

﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** (71)﴾ نَفّذوا الأمر وذبحوها أخيراً بعد كُلّ هذا التعنت والتحدي والجدال، (وما كادوا يفعلون) أي كأنهم ذبحوها مُضطرّين كارهين، وما يُريدوا أن يذبحوها، لكن نفذت أسئلتهم، وما بقي لهم من حُجَّة، فرضخوا للأمر وهم كارهون، وفي قلوبهم الشكّ وعدم الرغبة في الذبح. فكان هذا الذبح ليس للبقرة، بل لحب البقرة والعجل وحب عبادة غير الله في هذه القلوب.

ثم يُبيّن الحكمة من ذبح البقرة: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾ فأصل القصة أن شخصاً قتل آخر واختلفوا في قاتله، والكل (يَدرأ) ينفي و يُبعد عنه التهمة، فأراد الله أن يكشف لهم القاتل بمعجزة مادّية محسوسة؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بالماديات. ﴿**وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** (72)﴾ سَيُظهِر ما تُخفونه، فَإن عِلمه يُحيط بكلّ شيء، وبجميع المعلومات العلنية والسرية، وهو قادرٌ على إظهار ما تُخفونه من شأن القاتل، الذي يُخفي نفسه عن الناس، لكن الله تعالى أراد أن يظهره ويُفضحه أمامهم.

وأيضًا فإن الله سيُظهر ما تَكتمون في قلوبكم من عدم الإيمان بالبعث والنشور، فأراد اللهُ أن يُريكم هذا الأمر أمام أعيُنكم، فمن أحيى الميت بِضَربِهِ بميّت فإنه قادر أن يبعث الناس إلى الحشر والحساب، فيعلموا بذلك قُدرته وعَظَمته جل جلاله.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل بجزء من أجزائها، ولا يهمنا ما هو هذا الجزء، الرِّجل أم اليد أم غيره، لأن الله لم يذكره. المهم أن الله تعالى أحياه، وقال لهم: قتلني فلان، فتفاجأ القوم، لذلك قال الله لهم: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل فإنه جل جلاله يُحيي كُل الموتى ويحشرهم يوم البعث للحساب.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)﴾ وهذه المعجزات لكم فيها عبرة وعظة، لعل عقولكم تَتَفَكَّر وقلوبكم تتعظ، فلا تعصوا ربّكم، هكذا يعمل كل عاقل.

لكن؛ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من المفروض بعد رؤية المعجزات الباهرات أن تَرِقّ قلوبكم وتلين وتمتلئ إيماناً وتقوى، وتُصبح مُستعدة لقبول أوامر الله تعالى، لكن الذي حصل عكس ذلك، فقد أصبحت قلوبهم أقسى وأصلب بعد أن رأوا هذه الآيات والمعجزات ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ بل إن الحجارة فيها خير، حيث ينتفع الإنسان والحيوان والنبات من الماء الذي تحفظه في جوفها، أو الذي تحتفظ به على شكل بُحيرات أو مستنقعات؛ فيشرب منه الناس ويسقون، لكن قلوبكم لا نفع ولا خير فيها مطلقاً.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ يعني الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ يخشع لذكر الله خشيةً منه، وفي سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾، كما أصبح الجبل الصخري الذي تجلى له الربُّ جل جلاله دكاً عندما طلب موسى ﷺ الرؤية، وهي تُسَبّح بحمده كما كانت تُسبّح مع داود ﷺ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾، وكانت تُسلّم على الرسول ﷺ وتُسَبّح ربها بين يديه ﷺ [1]. فمن العجيب أن تلين الحجارة لذكر الله أما قلوبكم فلا، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)﴾ فلا تحسبن الله غافلاً عما تعملون، كلا، فهو السميع البصير وهو بكل شيء عليم.

۞ ۞ ۞

(1) صحيح معجزات النبي ﷺ لطه عبد الرؤوف سعد ص212.

شَرُّ خَلَفٍ لِشَرِّ سَلَف، وصفات إضافية (75 - 91).

بعد عرض صفات بني إسرائيل وأخلاقهم، وكيفية معاملتهم مع أنبيائهم، تخاطب الآيات كل المؤمنين، في كل مكان وتقول: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**﴾، فإذا كان هذا حالهم مع أنبيائهم، بل مع أوامر ربهم تبارك وتعالى، فكيف بحالهم معكم؟

إن أخلاق اليهود الذين تتعاملون معهم كأخلاق أسلافهم، وعندهم نفس الصفات المذمومة، فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم، وأن يلين جانبهم للإسلام والمسلمين؛ فالأنصار كانوا حريصين على إسلام يهود المدينة وخاصة أحبارهم؛ لأنهم كانوا حلفاء وجيران لهم، فأخبرهم أنهم قومٌ خبث، لا يؤمنون. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، أي: لا تحزن على تكذيبِهِم، فهم أهل تحريف وتكذيب وإنكار وجدال ونفاق، وهذا حالهم مع أنبيائهم، فهل تتوقع منهم الإيمان بك؟

وهؤلاء لهم عدة صفات أخرى، من أهمها وأسوئها: ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ**﴾ أي: يُحَرّفون آيات الله (التوراة)، فيُبدّلون حروفها ويُغيّرون أحكامها معانيها، والأعجب أن هذا التحريف يكون ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾ يعني من بعد ما وَعَوهُ حقّ الوعي، وَفَهِمُوه حقّ الفهم، وعرفوا وتأكدوا أنه صدق.

﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ أنهم مُحَرِّفون وكاذبون مُزَوِّرون، وهم يعلمون أن الإسلام حق، ويعلمون أنهم يدعون إلى الباطل، ويُدافعون عنه.

﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ فلا أحد يقول: إنهم قد يكونوا حرّفوا التوراة أو الإنجيل عن جهل، ودون قصدٍ، بل كان تحريفه مُتَعَمَّداً، عن قصدٍ وسبق إصرار، فجعلوا الحرام حلالاً والحلال حراماً وفقاً لأهوائهم.

ومن صفاتهم أيضًا: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا**﴾، وهذه خصلة مَرَّت معنا في صفات المنافقين في أول السورة، فإذا التقوا بالمؤمنين فإنهم يُظهرون الإيمان أو الاحترام، ﴿**وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ أي اختفوا عن أنظار الناس، وعن وسائل الإعلام، أو اجتمعوا فيما بينهم في مؤتمراتهم ومحافلهم، ﴿**قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ**﴾ أي: "أتظهرون لهم الإيمان وتُخبروهم أنكم مثلهم، فيكون

ذلك حُجَّة لهم عليكم؟ يقولون: إنهم قد أَقَرُّوا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم".

وكان بعض اليهود الذين أسلموا نفاقاً يتحدثون أمام المسلمين بقصص أسلافهم، فقالوا لبعضهم في خلوتهم: لا تُحدّثوهم بأي شيء، فإن كان خيراً من نِعَمٍ ومعجزات فسيقول المسلمون: قد كفرتم بعد ما رأيتم هذه المعجزات؟ وإن كان شرًا كالعذاب؛ سيقولون: يُعذّبكم لأنكم كفرتم وما اتبعتم الحق. وإن حدّثتموهم عن كتابكم وما فيه من صفات النبي محمد ﷺ فإنه أيضاً سيكون عليكم حُجّة، وإن حدثتموهم عن أمور أُخرى وقصص أخرى مثل قصّة التيه ونبع الماء والمن والسلوى -وهي موجودة في التوراة المحرفة- فإنها أيضاً ستكون عليكم حُجّة، فيقولون لكم: إن الذي تحدثونهم به موافق لما في القرآن، ولولا أن محمداً نبي لما علم هذه القصص أو الأخبار.

﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ هذا إما من كلام الأحبار والرهبان لأتباعهم، يعني: أتُحَدّثونهم بهذا؟ أليس عندكم عقل تُفكّروا به؟ أو هو من كلام الله تعالى للمؤمنين، يقول لهم: يجب أن تكونوا أصحاب عقول واعية تفهم خداعهم ونفاقهم وكذبهم.

ثم يقول تعالى عن بني إسرائيل: ﴿**أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)**﴾ ألا يعلمون أن الله عالم بكل خفيّة يُخفونها، وبكل علانية يُظهرونها؟ بلى، إنهم يعلمون، ورغم علمهم إلا أنهم يعصون ويتحدّون، ويُسِرّوا القول والفعل للضرر بالإسلام والمسلمين.

﴿**وَمِنْهُمْ**﴾ أي أهل الكتاب ﴿**أُمِّيُّونَ**﴾ والأمي هم الذي لا يستطيع القراءة والكتابة، فلا يقرأوا ما في التوراة من مواعظ ولا يفهموا أحكامها ﴿**إِلَّا أَمَانِيَّ**﴾ إلا ما يَتلوه عليهم أحبارهم ورهبانهم من الكذب والتحريف. ﴿**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ أي يعتقدون أن ما قاله لهم الأحبار والرهبان هو الصدق وهو الكلام الصحيح الذي أنزله الله على موسى.

وقد يكون معنى الآية أنهم ﴿**أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ ما ﴿**فِي الْكِتَابَ**﴾ من أحكام وشرائع ومواعظ؛ لأنهم لا يقرأونها، ويكتفوا بما يُمليه عليهم أحبارهم، إلا القليل من الكلمات التي يستخدمونها في مناسباتهم وأعيادهم.

وهذا ما نُلاحظه اليوم؛ فهم يقرأون ويكتبون، ومنهم العلماء والأطباء والفلكيون وعلماء الذرات وعندهم الجامعات والعلم الهائل، لكنهم لا يعرفون شيئاً عن ما في التوراة والإنجيل، ولو سألت أحدهم عن شيء فإنه يقول لك: لا أعلم اسأل "رجال الدين"، فهم لا يهتمون بذلك أصلاً، وقد يقرأ عليهم الرهبان والقساوسة بغير لغتهم كالسريانية أو غيرها هم يُرددون خلفهم: آمين..

ثمّ يقول تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ**﴾ فالعذابُ مُضاعف لهم لسببين: ﴿**مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ ما افتروا على الله كذباً وحرّفوا آياته، ﴿**وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)**﴾ ما أكلوه من أموال الناس بالباطل. وهذا وعيد شديد لهؤلاء الذين يُحَرّفون كلام الله، فيحذفون ما يشاءون ويُضيفون ما يشاءون، ويُحِلّونَ ويُحرّمون ما يشاءون، حسب أهوائهم، ثم يَدّعون زوراً وبُهتاناً أنها من عند الله؛ لأغراضٍ دُنيوية، فيُضِلّوا بذلك عامة الناس.

وقوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِما كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ يُفيد أنهم تولوا الكتابة بأنفسهم وباشروا بكتابة الكذب والافتراء على الله بأيديهم على علم منهم وتعمد وإصرار، لهذا استحقوا مضاعفة الويل، فقال تعالى:

﴿**وَوَيْلٌ لَهُمْ مِما يَكْسِبُونَ**﴾ من الأموال التي اكتسبوها من التحريف، وكذلك ما (يكسبون) من سيئآت وآثام بسبب إضلالهم الناس عن الحق، فالكتابة مضت وانتهت، ولكن آثارها السيئة باقية، لأنه يُعْمَل بها، ويعتمد عليها، ويساء فيها إلى الله، وإلى صالحي خلقه بسبب هذا التحريف. فالذي يقرأ التوراة المحرّفة اليوم –من أهل الكتاب أو غيرهم- يرى فيها قلة الأدب مع الله تعالى ومع الأنبياء.

۞ ۞ ۞

مستمرون في الكذب والتزوير

ويستمر الكذب المتعمد من اليهود: ﴿**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**﴾ أي أنهم إن عُذبوا في جهنم فإن عذابهم قليل جداً، مجرد أيام معدودات، قال المفسرون: إن قصدهم عن الأيام التي عبدوا فيها العجل، وهي الأربعين يوماً التي غاب عنهم فيها موسى ﷺ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

و(لن) تُفيد النفي التام، يعني من المستحيل أن ندخل النار سوى هذه الأيام المعدودة، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿**قُلْ**﴾ لهم يا محمد: من أين جئتم بهذا القول؟ من أين لكم هذه الثقة؟ ﴿**أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**﴾ أي: هل هناك عهد بينكم وبين الله، أو وعد منه لكم ألا يُعذبكم إلا هذه الأيام؟

﴿**أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (80)﴾ أم أن هذا افتراء وكذب على الله دون علم منكم بحقيقة الأمر؟ فالجاهل قد يُعذر! لكنهم ليسوا جهلة، بل مُصِرِّين على كذبهم ومخالفتهم لأوامر الله تعالى وأنبيائه.

ثم يُبَيّن الله تعالى الحقيقة فيقول: ﴿**بَلَى**﴾ وهو يُسمى حرف إثبات ما بعد النفي، فهم قالوا: ﴿**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ**﴾ والله يقول: بلى ستمسّكم، فليس الأمر كما ذكرتم، ولا كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، فالذين سيدخلون جهنم لهم صفتان:

الصفة الأولى: ﴿**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾، والسيئة هنا تعني الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**﴾. أو هي: المعصية الكبيرة أو الكفر.

و﴿**مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ أيضًا هو الذي لم يجد له يوم القيامة حسنة بعد أن يقضي ما عليه من الحقوق، فحسناته إما أنه أخذ جزاءها في الدنيا، أو أنه أعطاها لأصحاب الحقوق المظلومين الذين قتلهم وسرق أرضهم واضطهدهم، فلم يبق له إلا السيئات.

الصفة الثانية: ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ لاحظ اللفظ (أحاطت) وكأنها دائرة تُحيط به، فلا يوجد له منها مخرج، أي أن أعماله السيئة غَمَرَتهُ من جميع الاتجاهات، فَسَدَّت عليه كُلّ طُرُق النجاة، وكأن حياته كانت مغموسة في الآثام، بعيدة عن الدين والشرع، فماله حرام، ومعاملاته حرام، وعباداته وأخلاقه ليست كما أراد الله، وكذا الدول والأمم والجماعات أيضًا: يكون نظامها الاقتصادي يُخالف شرع الله، ونظامها الاجتماعي أو السياسي والإداري لا يُرضيه، فلم يُبقِ لهم حسنة تنفعهم عند لقاءِ ربهم.

أما الحكم الإلهي على من اتصف بهاتين الصفتين هو: ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

وحتى لا يسأل أحدٌ: ومن منا لا يكسب سيئة أو أنه لا يُخطئ؟ فهل هذا يدل على أننا من أهل النار؟ جاءت الآية التالية لتقول: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (82)﴾، ففي الجهة المقابلة فإن من اتصف أيضًا بصفتين فإنه من أهل الجنة:

✓ والصفة الأولى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ والإيمان له أركان، وضحها القرآن، وهي: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه وَرُسُلِهِ واليوم الآخر والقدر كله)، وقوله: (تُؤمن) أي بصدق وليس كلاماً فقط، "فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال": ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ (سورة فاطر:10)".

✓ والصفة الثانية: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ أي أنهم أتْبَعُوا هذا الإيمان بعمل صالح يُرضي ربهم، فإن الله سيجزيهم بأن يكونوا من أصحاب الجنة. و﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ الخلود بمعنى المكث والدوام؛ يعني: لا تفنى حياتهم فيها فيموتوا. ولا تنتهي هذه الحياة، فليس لها وقت محدد كالحياة الدنيا.

هذه الآية عبارة عن قاعدة إلهية عظيمة تفتح أبواب النجاة لكل من أراد أن يتوب، وكأن الآية تقول: حتى وإن كان هذا حال الإنسان من الكفر، حيثُ كَسَبَ السيئات، وأحاطت خطاياه بحياته كُلها، فإنه إذا آمن إيمانًا صادقاً، وأتبعه بعمل صالح يُرضي ربه؛ فإنه سينجو من النار ولن يكون من أصحابها، بل يكون من أصحاب الجنة الخالدين في النعيم.

۞ ۞ ۞

عودة إلى بني إسرائيل مرة أخرى (83 – 86)..

ثم تعود الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن بني إسرائيل، فتُلخّص قصتهم في أربع آيات، تُثبت بالدليل أنهم من الذين كسبوا السيئات وممن أحاطت بهم خطيئتهم في جميع نواحي حياتهم، يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ** (83)﴾.

تقول الآية لهم: اذكروا يا بني إسرائيل يوم أن أخذ الله -ربّكُم وخالقُكُم- منكم العهود والمواثيق لأجل تنظيم حياتكم كما أراد الله، فتُعطوا كل ذي حق حقه.

➤ لتنظيم علاقتهم مع الله أمرهم بأن يعبدوه وحده ولا يُشركوا به شيئاً، والعبادة تتمثل بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وليس التزوير والتحايل على الشرع.

➤ ولتنظيم العلاقة مع العباد، أمرهم بسبعة أمور، فبدأ بالإحسان إلى الوالدين، والإحسان هو منتهى البرّ، ويكون بالقول، والفعل، والمال، وجميع طرق الرعاية والعناية؛ لأن الله أطلقه؛ فكل ما يسمى إحساناً فهو داخل فيه.

ثم الإحسان إلى القرابة، وجاءت بعد "الوالدين" لتشمل قرابة الأم وقرابة الأب..

والإحسان إلى اليتامى، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربيهم أو يعولهم؛ فهم محل للرحمة، والرعاية.

والإحسان إلى المساكين، وهم المحتاجون والفقراء.

وأمرهم أن يقولوا للناس قولاً حسناً؛ والقول الحسن هو الذي فيه النفع والخير، ويكون باللطف، واللين، وعدم الغلظة، والشدة.

ثم تُنظّم العبادات لتكون العلاقة مع الله ومع العباد مستقيمة قويّة، فأمرهم بإقامة الصلاة، وبإيتاء الزكاة؛ أي إعطاءها لمستحقها عن طيب نفسٍ وابتغاء وجه الله تعالى.

ونلاحظ هنا أن العبادات جاءت لتنظيم العلاقة مع الله تعالى ومع عباده، لأن العبادات لها دور كبير في تربية النفس، ودفع الإنسان إلى الأخلاق الحسنة والفضائل والمعاملة مع العباد، كما قال تعالى عن الصلاة: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...** (45)﴾ (سورة العنكبوت)، وقال عن الزكاة: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...** (103)﴾ (سورة التوبة).

بعد هذه الكرم الإلهي الذي يأمر بني إسرائيل أن يكونوا مجتمعاً مُتحابًا مُتآلفًا، يُبَيَّن أنهم لا يُريدون، فيقول: ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ**﴾ أي: فأخلفتم العهد، فإن المحبة والخير والإحسان ليست لكم بطبع، ولا أنتم لها بأهل، لأن الكفر والعناد يسري في دمكم،

وتحدي أوامر الله تجذّر في قلوبكم، فتوليتم، ولم تلتزموا، فما عبدتم الله حق عبادته، وأشركتم معه أحباركم ورهبانكم، قال تعالى عنهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ... (31)**﴾ (سورة التوبة)، وحرفوا التوراة التي كتبها الله بيده، فوصفوا الله بصفات النقص والضعف الذي ننزه ألسنتنا وأقلامنا عنها، ووصفوا الأنبياء الذين هم أفضل وأصدق وأشرف من خلق الله على وجه الأرض بصفات لا تليق بكرامتهم.

أما عن معاملة العباد فحدث عن إفسادهم وجرائمهم ولا حرج، فما من جريمة مَرّت في التاريخ، أو مذبحة أو مقتلة أو ظُلمٍ إلا وكان لهم فيها يد من قريب أو من بعيد، منها ما سجلها الذين زَوَّروا التوراة، كقصة شمشون الذي قتل ألف فلسطيني دُفعة واحدة، وقصة إهود وشمنجر!! ومنها ما سَجّله التاريخ القديم والحديث، وهذا لا يخفى على ذي بصيرة، وكل ذلك تطبيقًا لما تأمرهم به توراتهم المكذوبة التي تقول لهم: "وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف... أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها" (يشوع 6: 20).

﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ**﴾ أي: أن عدداً قليلًا من بني إسرائيل أطاعوا ربهم وكانوا صالحين صادقين. وهذا استثناء لبعض من كانوا في زمن موسى ﷺ، وعلى مَرّ الأزمان أيضاً، فإنها لا تخلو أُمّة من الأمم من مُخلصين يُحافظون على الحق كُلّ حسب طاقته وقُدرته ومعرفته، وجاء ذكر هؤلاء الصالحين هنا من عدل الله تبارك وتعالى، وأنه لا يبخس المحسنين حقّهم.

﴿**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ أي: توليتم وأنتم مُعرضون عن الحق مُبتعدون عنه، فلا يُرجى منكم خير، والإعراض يكون مُتعمَّدًا، وبالجوارح أو بالقلب، أو بكليهما.

في الآية الثانية أيضًا يُذكرهم ربنا تبارك وتعالى بميثاق آخر أخذه من بني إسرائيل لتنظيم علاقتهم مع بعض، يقول جل جلاله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ**﴾ الخطاب هنا لليهود الذين كانوا زمن الرسول ﷺ ؛ لأنه خطاب مُباشر ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**﴾ بينما في الآية السابقة: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ خطاب عن السابقين. والمعنى: أن لا تقتلوا بعضكم بعضًا، ولا يُخرج أحدٌ منكم الآخر من مَنْزِلِهِ ويستولي عليه أو يِنْهَبُهُ أو يسترقّه.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ يعني وافقتم على هذا الميثاق وأقررتم به، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أن هذا العهد والميثاق حق، وتعترفون أنه حصل، ولا تُنكرون ذلك. لكن؛ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

هذه أيضاً أخلفتم فيها الميعاد، ونقضتم العهد والميثاق، وقتل بعضكم بعضاً، وأخرجتم أنفسكم من الديار والأرض، فكانت الحرب إذا نَشَبَت بينهم يقتتلوا، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يعني: أتُؤمنون ببعض الأحكام الموجودة في التوراة من فَكّ الأسرى وافتدائهم، وتكفرون ببعض هذه الأحكام التي تأمركم بعدم الاقتتال أو الإخراج أو مناصرة الظالمين المُعتدين؟

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ الذين كانوا يُؤمنون بما يُريدون من أحكام الله ويُطبقونها، ويكفرون بما يُخالف أهواؤهم، لهم ﴿خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو الذل والهوان والصغار، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ يعني أشد أنواع العذاب.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)﴾ فلا تحسبن -أيها الظالم المُعتدي على أوامر الله- أنه غافل عنك أو أنه لا يعلم ما تعمل من أعمال أو ما يصدر منك من أقوال.

وهذا الحُكم عام لكل من يعمل عمل بني إسرائيل هذا، فيعبُد الله تعالى ربّه حسب هواه، فَيَقْبَل ويأخذ ما يُريد، ويرفض ما يُريد، "والذي يعبد الله على هذه الطريقة لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار..".

أما الآية الرابعة في تلخيص قصة بني إسرائيل فتقول: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، نعم.. أتريد أن تصف بني إسرائيل ومن على شاكلتهم، ولفّ لفيفهم في كل زمان ومكان في خمس كلمات فقط؟ قل: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

هؤلاء يُريدون الدنيا ولا يُريدون الآخرة، همهم الأول والأخير الدنيا، ولا يحسبون للآخرة أي حساب؛ لذلك رفضوا أوامر الله واعترضوا عليها، لأنها تخالف أهواءهم، فما

آمنوا بربهم بصدق، ولا بأنبيائهم، وتحايلوا على الشرع وأحكامه، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، باختصار: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ**﴾.

أما عقابهم فهو باختصار أيضًا: ﴿**فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**﴾ لا يُخفف عنهم ليرتاحوا، بل هو دائم ثابت متواصل، وقد سبق آنفاً أن الله سيعذبهم في الدنيا بالذل والهوان وغيرها، وفي الآخرة لهم أشد أنواع العذاب.

﴿**وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾ فليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة.

۞ ۞ ۞

عودة إلى بني إسرائيل، وصفات سيئة أخرى (87 - 89)..

بعد هذا التلخيص تعود الآيات إلى مخاطبة بني إسرائيل، ويُذكّرهم مَرّةً أُخرى بنعمة التوراة التي لو أطاعوا ما فيها كانت كفيلة لتنظيم حياتهم كما أراد، فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ يعني لهدايتكم للخير بما فيها من أحكام وتشريعات. ﴿ **وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ**﴾ فهناك رُسُل آخرون أرسلناهم إليهم، فليس لهم عُذر في نسيان شرائع الله أو تحريفها أو تبديلها، لكن شهواتهم وأهواءهم هي التي تحكمهم -وما زالت-.

﴿**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ ومن هؤلاء الرُّسُل عيسى بن مريم ﷺ، الذي آتيناه كتاباً لكم أيضاً فيه من الهُدى والخير الكثير، آتيناه أيضاً الآيات البينات والمعجزات والحُجج الواضحات الدالة على نبوته وصدقه، مثل إحياء الموتى، وشفاء الموتى، وإخباره ببعض الغيبيات، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

و(روح القُدُس) هو جبريل ﷺ، أو: معناها الروح المقدّسة، يعني أن الله تعالى وهب لعيسى ﷺ روحاً طيبة مُقَدّسة طاهرة نقيّة أَهّلته للرسالة الإلهية، ولقيادة عباد الله في طريق الخير والهداية، أو لأنه لم يخرج من صُلب رجل، فهو روح من روح الله كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**﴾.

ثم يذكرهم الله بصفة أخرى، فيقول تعالى: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ**﴾ لكنكم يا بني إسرائيل كلما جاء إليكم رسول من ربكم ليُنذركم وليُدلّكم على طُرق الخير والصلاح ويسلك بكم سبيل الوصول إلى رضوان الله ﴿**بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ**﴾ المريضة، ﴿**اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ "فأعطيتم لأنفسكم كِبْرًا لستم أهلاً له، وادعيتم أنكم كبارٌ ولستم كباراً". فقلوبكم مريضة لا تقبل البر ولا الفطرة السليمة، والله لا يأمر إلا بالخير والصلاح والبر والإحسان، لذلك؛ لم يقبلوا أمر الله، ولم يُطيعوا أنبياءه. يعني: أَبَلَغَ بكم الأمر أنكم كلما جاءكم رسول من رُسُلي بغير الذي تهوى نفوسكم تَكَبَّرتم عليه واستعليتم؟ أَوَصَلَ بكم الأمر إلى تكذيبهم، بل وقتلهم أيضاً؟

وقوله تعالى: ﴿**اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ تدلّ على أن مخالفتهم أمر الله وعدم طاعتهم لأنبيائه ما كان إلا استكباراً وعُلُوًّا. ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ**﴾ فكذبوا موسى ﷺ، واتهموه بالاستهزاء بآيات الله، بل زعموا في التوراة المحرفة أنه أمرهم بقتل الناس وإبادتهم، وحاشاه ﷺ، واتهموا نوح ولوط وكل الأنبياء بالفاحشة، بل اتهموا سليمان بأنه عبد الأصنام في آخر أيامه، وكَذَّبوا عيسى ومحمد عليهما السلام، فلم ينجُ من كذبهم ولا نبي.. عليهم من الله الخزي والذُّل..

وليس الأنبياء فقط، بل إنهم كذبوا وافتروا حتى على الله تعالى -ربهم- وادعوا أنه يأمر بالفحشاء، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)**﴾ (سورة الأعراف)، تعالى الله وتنزّه عن قولهم علواً كبيراً.

وصفة أخرى لهم: ﴿**وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)**﴾ فلم يكتفوا بالتكذيب فقط، بل قاموا بأبشع جريمة مرّت على التاريخ، ألا وهي قتل الأنبياء، أطهر وأشرف وأكرم وأعظم مَنْ خَلَقَ الله، مثل يحي وزكريا عليهما السلام، وكذلك قتلوا الذين يأمرون بالخير من الناس، وهم أتباع الأنبياء الصادقون، يقول تعالى عنهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)**﴾ (آل عمران)، وقوله (النبيين) بصيغة الجمع يُثبت أنهم قتلوا أكثر من نبي واحد.

"وفي قوله تعالى: ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ ملاحظة عظيمة للتفريق بين جريمتي التكذيب القتل، فجاءت جريمة التكذيب بصيغة الماضي ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ**﴾، والقتل بصيغة المضارع ﴿**وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ ولم يقل (وفريقاً قتلتم) وذلك لأمرين:

أحدهما: استحضار صورة جريمة القتل الفظيعة في النفوس وتصويرها في القلوب، حتى تبقى متمثلة في العقول، وإن مرت عليها القرون الطويلة، لأنها جريمة لا تنتهي آثارها، وَشَخْبُ دمها لا يزول عن الأبصار، فالتعبير القرآني يُجَسِّم صورة هذه الجريمة البشعة لتبقى كَنُكْتَةٍ في قلوب المتأخرين إلى يوم القيامة.

والأمر الآخر: أن التعبير عن جريمة القتل بصيغة المضارع لما يعلمه الله في سابق علمه من استمرارهم على قتل الأنبياء، فلم يكتفوا بالجحود، وقد عملوا فعلاً على قتل نبينا محمد ﷺ حيث وضعوا له السُّم، حيث قال ﷺ عند موته: (**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري**)[1]. جرائم تُضاف إلى جرائمهم التي لا حصر لها.

وصفة أخرى، وجريمة أخرى، ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾ أي أنهم يقولون للرسول ﷺ: يا محمد، قلوبنا مُغَلَّفة بغلاف، فلا تُتعب نفسك في دعوتنا إلى دينك، فإن هذا الغلاف لا يُنفذ من خلاله أي شيء إلى القلوب، فلا يدخلها الإيمان بما تأمرنا به، فهي مُقفلة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أي قلوبنا ممتلئةً علمًا لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره". لكن الله أخبر رسوله ﷺ أنهم كاذبون، فقال تعالى: ﴿**بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**﴾ أي أن الله لعنهم وأخرجهم من رحمته بسبب كفرهم وتحديهم لأوامره جل جلاله، "ذلك أن التوراة لم يكن لها سلطان على نفوسهم، ولم تكن هي المحركة لقلوبهم وجوارحهم، وإنما تُحَرِّكُهُم أهواؤهم وشهواتهم، ولذا قال تعالى: ﴿**فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ** (88)﴾ فلو آمنوا فإن نسبة الإيمان عندهم قليلة جداً، لا يزيد على قول باللسان، أو رسم بالخيال".

وقيل معنى: ﴿**فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي أن من يؤمنون منهم بحقّ عددهم قليل جداً، وهذا وارد أيضًا، فمن أسلم من اليهود في زمن الرسول ﷺ أقل من عدد أصابع اليد الواحدة، وفي هذه الأيام أيضاً لا يؤمن منهم إلا القليل جداً.

(1) بتصرف من تفسير الشيخ عبدالرحمن الدوسري، والحديث أخرجه البخاري معلقاً رقم 4428، انظر: صحيح الجامع: 7929.

ثم يُخبر الله تعالى أنهم كما كذبّوا أنبياءهم السابقين فإنهم سيُكَذّبوا محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ يعني اليهود الذين كانوا زمن النبوة، ﴿**كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ هو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، ﴿**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**﴾ أي فيه أشياء تُصَدِّق ما جاءت به التوراة الحقيقية من أصول التوحيد والأخلاق، بالإضافة إلى ما فيها من ذكر النبي محمد وأوصافه.

﴿**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي: كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب (يستفتحون) أي يطلبون الفتح، وهو النصر، ويعني: كانوا يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: "إنه سَيُبعث نبي في آخر الزمان، نؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وإرم".

فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)**﴾، فلما جاءهم النبي الذي يعرفونه حق المعرفة، لكنه بُعث من العرب، حاربوه وعادوه وكذبوه، فهم يستحقون اللعنة بسبب كُفرهم بنبي الله محمد ﷺ وهم يعرفون أنه حق.

۞ ۞ ۞

صفقة خاسرة (90 – 91)..

قال تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ**﴾ وكلمة (بئس) للمبالغة في الذم والرداءة، فالله يقول عنهم: بئس هذا الشئ الذي ﴿**اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ**﴾، حيث باعوها بأبخس ثمن، لقد باعوها باللعنة والغضب من الله، بما حرصوا عليه من الكفر استكبارًا وبغيًا وحسدًا، وحبًا للرئاسة، وطمعًا في المنافع.

﴿**بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ هذا هو السبب الرئيسي لكفرهم، إنه الحسد والبغضاء للنبي ﷺ؛ لأنه من العرب، فالله يؤتي فضله لمن يشاء من عباده: ﴿**وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)**﴾ (سورة البقرة)، والحسد من أكبر أنواع الظلم، لذلك جاء اللفظ (بغيًا) يعني ظُلمًا.

﴿**فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ**﴾ رجعوا بغضب من الله تعالى مُضاعف: غضب لأنهم كفروا بالأنبياء، وغضب لأنهم قتلوهم، وغضب لأنهم اعترضوا على أوامر الله ولم

يُطيعوه، وغضب لأنهم عصوه ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، وغضب لأنهم تحايلوا على الشرع، إلى غير ذلك.

﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** (90)﴾ في كل زمان ومكان -اليهود وكل من اقتدى بهم- عذاب في الدنيا وأيضًا يوم القيامة، وهو عذاب مليء بالإهانة والصَّغَار والذُّل.؛ لأنه عقاب لاستعلائهم الكاذب، وغرورهم، والجزاء من جنس العمل، فإن الله يُذِلُّ دائمًا كل من يتطاول، ويتكبر ويغتر، وفي الحديث: (**اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك. لا مَلِك إلا الله**) ، ونحن نقول مقتدين بالنبي ﷺ، متبعين له: اشتد غضب الله على كل عُتُلٍ جبارٍ أذل العباد وأفسد البلاد، وأنه القادر الذي ليس فوقه أحد[1].

وصفة أخرى، وجريمة أخرى، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ هؤلاء إذا جاءهم الأنبياء والدُّعاة الصالحون الصادقون الذين يدعونهم إشفاقاً عليهم، حتى لا يكونوا من أهل النار وقالوا لهم: ﴿**آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ يعني القرآن الكريم، قالوا: ﴿**نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا**﴾ يكفينا أن نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله إلينا، وهذا أيضًا كذبٌ آخر، فهم ما آمنوا بالتوراة حقّ الإيمان، وإنما آمنوا بما يُريدون، وكفروا بما لم يتوافق مع أهوائهم ونفسياتهم العفنة.

﴿**وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ**﴾ ما سواه، ومعروف أن اليهود لا يؤمنون بالإنجيل لا الحقيقي ولا الموجود حالياً، إضافة إلى أنهم لا يؤمنون بالقرآن. فهم لا يُؤمنون إلا بما في كتابهم المحرف، ومن كتبهم المقدسة عندهم ما يُسمى بالتلمود حيث يَدَّعون أن موسى ألقاه عليهم فوق طور سيناء، وَحُفِظَ عند هارون، ثم تلقاه يوشع بن نون، ثم إليعاز... حتى وصل إلى الحاخام يهوذا حيث وضع التلمود بصورته الحالية في القرن الثاني قبل الميلاد[2].

---

(1) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده رقم 9987، وأصله في الصحيحين، انظر: زهرة التفاسير ج 1 ص 314.

(2) التلمود (תלמוד) كلمة عبرية تعني الدراسة، وهو كتاب تعليم الديانة اليهودية فيه الشريعة اليهودية، الأخلاق، الأعراف، وقصص من التراث اليهودي، وهو المصدر الأساسي لتشريع الحاخامات في الدعاوى القانونية، وهو مركب من عنصرين، الميشناه (משנה) وهي النسخة الأولى المكتوبة من الشريعة اليهودية التي كانت تتناقل شفويا، والجمارا (גמרא)، والتلمود يقترن بشكل تقليدي بوصفه شاس (اختصار عبري لعبارة شيشة سيداريم أي: الدرجات الست للميشناه) حيث يتألف التلمود من ستة مباحث (سداريم، مفردها سِدِر أي سِلك). ويعطي اليهود التلمود أهمية كبرى لدرجة أنهم يقولون" (من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة فليس له إله)، انظر عنوان (التلمود) على موقع الموسوعة الحرة على الإنترنت.

﴿**وَهُوَ الْحَقُّ**﴾ أي: القرآن؛ لأنه ﴿**مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ**﴾ من الكتُب في أصول التوحيد وتعظيم الله تعالى، وتعظيم وتكريم الأنبياء المطهرين المنزهين عن المعاصي، والأخلاق الحسنة، فالتصديق للكتاب الحقيقي لا المحرف الذي يتهم الأنبياء، ويأمر بظلم الناس وفيه نماذج لجرائم ضد البشرية، كما يصف رب العزة جل جلاله بصفات النقص.

﴿**قُلْ**﴾ لهم يا محمد ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)**﴾، وهذه حُجّة دامغة عليهم، فإن كنتم مؤمنين بأنبيائكم الذين أرسلهم الله إليكم، وبالكتب التي أنزلها الله لأجل يُنجيكم من النار؛ لم قتلتموهم؟ هل هذا هو إيمانكم؟ هل يأمركم إيمانكم بذلك؟؟ فهم في الحقيقة لا يُؤمنون لا بمحمد ﷺ وكتابه، ولا بالكُتب التي أنزل الله من قبل؛ فلو أنهم آمنوا لأطاعوا ربهم، ولما قتلوا أنبياءهم.

۞ ۞ ۞

تذكيرهم بجرائمهم والأدلة على ظلمهم (92 - 96)

بعد أن بَيَّنَ كذبهم، وأثبتَ أنهم لا يؤمنوا حتى بأنبيائهم الذين أُرسلوا إليهم، ذكّرهم بدليل آخر على كذبهم وعدم إيمانهم، دليل يفضح ادعاءاتهم، فقال: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ أي: ألا تذكروا -يا بني إسرائيل- عندما أكرمكم الله تعالى وأرسل إليكم نبيه موسى ﷺ؟ وأيده بآياتٍ ومعجزاتٍ باهراتٍ، ودلائل واضحات، فأنجاكم من فرعون وبطشه، وأغرقه وقومه أمامكم، وأنزل المَنَّ والسلوى عليكم، وأخرج لكم من الصخر الماء لتشربوا، وظلل عليكم الغمام رحمة منه بكم. كما أنكم رأيتم بأم أعينكم العذاب الذي عذّبه الله لفرعون وقومه، مثل العصا، والسنين، واليد، والدم، والطوفان، والجراد والقمل، والضفادع، وغيرها من الآيات.

﴿**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ يا للعجب!! بعد كُل هذه المعجزات الباهرات توجهت قلوبكم وأجسامكم إلى عبادة العجل من دون الله الخالق؟! فانتهزتم فرصة غياب موسى ﷺ عندما ذهب لميقات ربه، وأظهرتم ما هو مكنون في صدوركم من الكفر والعصيان؟! والأعجب أنهم اعترفوا بأنفسهم أنهم عبدوا العجل، وادعوا أن هارون نبي الله ﷺ هو الذي صنع لهم العجل، كما ذكرنا عند الآية 51 من السورة..

﴿**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** (92)﴾ أَيُّ ظلمٍ أعظمُ من أن يُشرك العبدُ مع خالقه إلهاً آخر؟ أي ظُلمٍ أعظم من أن يترك العبد الذليل الضعيف عبادة الله ويعبد المخلوقات؟ وقد سُئل رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: (**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**) (متفق عليه). ولم يقل (وأنتم ظلمتم) بل: ﴿**وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ أي: ظلمتم أنفسكم من قبل، ولا زلتم تظلمون، فالظلم شيمة عندكم كانت وما زالت لا تُفارقكم، في كل زمان ومكان.

ثم ذكر الله دليلاً آخر، على تجذّر الكفر والعناد في قلوبهم، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ**﴾ أي: أخذنا منكم الميثاق والعهد على أن تُطيعوا الله ولا تعصوا أوامره، وأن تستقيموا في حياتكم كما أمركم.

﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**﴾ أي: واذكروا أيضًا ذلك اليوم الذي رفع الله جل جلاله جبل الطور فوق رؤوسكم، وهددكم بأنه سيقع فوقكم إن لم تُطيعوا وتسجدوا طاعة وتَذَلُّلاً، وشاهدتموه بأعيُنكم كأنه ظلة؛ فسجدتم خوفاً وليس طاعة.

﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾ اتركوا هذا العناد، واتبعوا أوامر الله وأحكام التوراة بجدية وعزيمة والتزام. ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ لآيات ربكم، ولتعليمات نبيكم، فهو خير لكم وأفضل من العناد والكفر والتحايل على الشرع.. لكنهم ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾ قالوا: نحن سمعنا قولك، وقرأنا ما أنزلت في التوراة، لكننا سنعصيك ولن نُطيعك.. أي تبجّح هذا؟ وأي كُفر هذا؟ قالوا: ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا**﴾ بآذاننا؛ ﴿**وَعَصَيْنَا**﴾ بأفعالنا؛ "الذين تجرأوا وقالوا: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ من السهل أن يقولوا: ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾".

للأسف؛ ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ يعني أُشربوا حُبَّهُ كما يُشرَبُ الصبغ في الثوب. وإذا أُشرب القلب حُبّ شيء فإنه لا يرى غيره، ويصعُب التخلّص منه:

إذا ما القلبُ (أُشربَ) حُبَّ شيءٍ *** فلا تأملْ لـهُ عـنهُ انصرافـا

"فالصورة تعبر عن تغلغل المادية في قلوبهم كأن العجل تغلغل في قلوبهم كما يتغلغل الماء في الجسم"، فما ينبغي أن تكون كلمة ﴿**سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾ على لسان المسلم، بل لا يُفكّر فيها أيضاً، حتى لا يحل به ما حل بهؤلاء من الغضب والعذاب.

ثم يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿**قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ**﴾، فيا من تَدَّعون أنكم تُؤمنون بما أَنزل الله على موسى وغيره من الأنبياء السابقين، هل يأمركم هذا الإيمان أن تعبدوا غير الله؟ هل يطلب منكم هذا الإيمان أن تقتلوا الأنبياء الذين آمنتم بهم؟ هل يأمركم أن ترفضوا أوامر الله ولا تُطيعوها بل وتقولون لها جهاراً: سمعنا وعصينا؟ هل يأمركم هذا الإيمان بالأخلاق القذرة والإجرام والاعتداء على الآخرين وأكل حقوقهم؟ بئست هذه الأوامر التي يأمركم بها إيمانكم المزعوم، بئست هذه الأعمال التي تعملونها.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)**﴾ هذا قَدْحٌ في صحة إيمانهم وتشكيك فيه، فلو كانوا مؤمنين حقاً لأمرهم إيمانهم بما فيه الخير لأنفسهم ولغيرهم، باتباع أمر الله وعدم عصيانه، وبتقدير الأنبياء، وهذا أسلوب تهكم عليهم..

۞ ۞ ۞

وتتوالى البراهين على كذبهم وإجرامهم..

وتتوالى الحُجَج والبراهين على أنهم كاذبون في دعوى الإيمان: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ**﴾، قل لهم يا محمد: إن كنتم يا بني إسرائيل تَدَّعُون أنكم أبناء الله أحباؤه، وتدعون أنكم شعب الله المختار، وأنه لن يُعذبكم في النار إلا أياماً قليلة، فتمنوا أن تموتوا الآن، لتنالوا هذا الجزاء، فمن علم أن موته سيذهب به إلى الجنة، وإلى الخُلد في الآخرة، فالأولى والأفضل له أن يذهب الآن.

أو: ادعُوا بالموت على الفريق الكاذب على وجه المباهلة، فلما رفضوا ذلك عُلِمَ أنهم كاذبون؛ لأن محمدًا ﷺ وأتباعه لم يَدَّعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس؛ بل آمَنُوا بأنها لكل من آمن وعمل صالحاً سواء كان من هذه الأمة أم من غيرها.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)**﴾ فتمنوا الموت إن كان هذا الإيمان الذي تَدَّعُونَهُ صادقاً؛ لأن التمتع بنعيم الآخرة ساعة واحدة أفضل من التمتع بنعيم الدنيا آلاف السنين، فنعيم الدنيا مشوب بالمصائب والأحزان والأكدار، وأنواع الشقاء بخلاف دار النعيم في الآخرة فإن أهلها ﴿**لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾.

الحقيقة: ﴿**وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**﴾ الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنهم لن يتمنوا الموت نهائياً، ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم كاذبون في دعواهم، وأنهم قد عملوا بأيديهم ما لا يُرضِي الله تعالى، فكفروا به، وكفروا بأنبيائه، ونقضوا عهدهم معه.

﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** (95)﴾ هذا خطاب إما أن يكون لبني إسرائيل، يقول لهم: لا تحسبوا أن الله غافلاً عنكم.. كلا، فهو عليم بكم وبأعمالكم. وإما أن يكون للرسول ﷺ، يقول له: لا تحزن، فأنا عليم بكل ما يفعل هؤلاء الظالمين، و(عليم) صيغة مبالغة، فهو جل جلاله يعلم كل شيء، الصغير والكبير والنقير والقطمير.

ملاحظة: "المسلمون هم أهل الصدق في القول والعمل، طائعون لله، فلو أمرهم الله أن يموتوا فإنهم سيُطيعون ذلك، بل يختارون الموت على الحياة، بل ويتنافسون على الموت؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن ما عند الله خير لهم، كما فعل عمرو بن الحمام وسعد بن خيثمة وابنه يوم بدر وعبد الله بن رواحة في مؤتة، وحرام بن ملحان في بئر معونة عندما ضربه عدو الله عامر بن الطفيل، فأنفذه الرمح، قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، لكن اليهود على النقيض مما يزعمون، وإنهم يعرفون أنهم كاذبون".

۞ ۞ ۞

لماذا لا يتمنى اليهود الموت؟

سؤال: وقد يتساءل سائل: لماذا لم يتمنَّ اليهودُ الموتَ، أو أنهم لن يتمنوه أبدًا؟

الجواب: لأنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، فكُلّ همهم الدنيا وزخارفها، ونسوا الآخرة وما فيها، فلم يكن للآخرة عندهم نصيب، فخرّبوها وعمروا الدنيا، وبما أنهم كذلك فإن الله تعالى يقول عنهم: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**﴾ وهذا الخطاب للرسول ﷺ، وللمسلمين من بعده إلى قيام الساعة، فالمعنى: لو بحثتَ يا مُحمد عن اليهود ستجد أنهم أحرص الناس على العيش والحياة، وكذلك سيبقون اليوم وغداً.

وقد اختلف المفسرون في معنى (حياة) وخاصة لأنها جاءت نكرة، فقال بعضهم: إنها للتحقير، أي: أنهم أحرص الناس على أي حياة، مهما كانت هذه الحياة، حتى وإن كانت حياة حقيرة، ولو كانوا عبيدًا أو خدمًا، المهم أن يعيشوا.. لا يهمهم إن كانت حياتهم تحكمها الفضيلة أم الرذيلة، أو كريمة أو مَهانة، وإن هذا يدل على كمال الحرص.

وهذا الحرص على الحياة بهذه الطريقة لا يليق بعاقل، حتى الجاهليين قبل الإسلام لم يقبلوه، بل إنهم أرادوا حياة عزيزة لا ذِلَّةَ فيها، وشاعرهم (عنترة بن شداد) يقول:

لا تَسقني ماءَ الـحياةِ بِذِلَّـــةٍ *** بل فاسقني بالعِزِّ كأسَ الحنظلِ

ماءُ الحياة بِـذِلَّـةٍ كـجـهنـم *** وجـهنـم بالعـز أطيـــب مَنْزِلِ

وقال بعض المفسرين كالزمخشري: ﴿**عَلَى حَيَاةٍ**﴾ يعني حياة مخصوصة، فهم يسعون إلى أطول حياة، بحيث يَسُودون فيها الناس ويتمتعون بكل ما فيها من زخارف ومتاع، وهذا كلام صحيح، فاليهود يسعون في كل زمان ومكان لأن يكونوا هم الأسياد، وهم رؤوس الأموال، وهم أصحاب العلم، فلا يسمحوا لدولة أو شعب بأن يسبقهم في علم أو سلاح أو تجارة أو غيره، لكن رُغم ذلك؛ قضى عليهم حياة الذلة والمهانة.

﴿**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ فاليهود أحرص من كل الناس على الحياة، وخاصة من المشركين. وقيل معناها: ومن الذين أشركوا أُناسٌ حريصون على حياة مثل اليهود.

هؤلاء اليهود، وهؤلاء الذين أشركوا ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ يعني: يتمنى أن يعيش ألف سنة، وألف سنة للمبالغة، يعني عمرًا طويلاً، ولا يُحبون الموت.

﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾، لكن حتى لو عاش أحدهم ألف سنة أو ألفين أو مئة ألف، فإنه لن يخلد في هذه الدنيا، ولن يُغني عنه هذا العمر شيئاً: ﴿**وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ**﴾ لن يوقف عنه عذاب الله ولن يُخففه.

﴿**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)**﴾ وهذا تهديد لهم؛ يقول الله تعالى لهم: اعملوا ما شئتم؛ فإنني أرى وأسمع وأعلم ما تعملون، وسأُحاسبكم عليه، وكذلك فيه بُشرى للرسول ﷺ والمسلمين، يقول لهم: لا تحزنوا مما يقول لكم هؤلاء، ولا يكون قولهم مُثبّطًا لكم عن الطاعة، فإني أسمع وأرى وأعلم ما يفعلون، وسأُجازيهم به.

و(البصير) في كلام العرب صيغة مُبالغة من الفعل يُبصِر، فالله تعالى يرى كُل ما في هذه الدنيا، من صغير أو كبير، وكذلك (البصير) هو الخبير بالشيء، ومنه قولهم: فلان بصيرٌ بالطب، وبصيرٌ بالفقه، وبصير بملاقاة الرجال، أي عليم به، مُحيطٌ بكل جوانبه.

۞ ۞ ۞

شبهات وكذبات أخرى لبني إسرائيل (97- 105)

ما زالت الآيات تذكر شبهات اليهود، وما يتذرعون به عن الإيمان بمحمد ﷺ، فقد زعموا أنهم مؤمنون بكتاب ولا حاجة بهم إلى سواه، فنقض دعواهم وَبَيَّنَ أكاذيبهم، وزعموا أنهم الناجون الوحيدون في الدار الآخرة، فأبطل الله زعمهم، وأرشد نبيه ﷺ إلى مباهلتهم فَفُضحوا، ثم جاءوا بِحُجَّة أُخرى أغرب وأعجب، هي أنهم لا يُحبون جبريل الذي ينزل بالقرآن: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾. وثبت ذلك في أحاديث كثيرة، فقالوا للنبي ﷺ: أخبِرنا عن الرُّوح، فقال: (**هل تعلمون أنه جبريل؟ وهو الذي يأتيني**" قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو مَلَكٌ إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك، فأنزل الله الآيات[1] .. سبحان الله!! اليهود يُنكرون الشدة والقتل وسفك الدماء!! أليس هذا عجيبًا من أكثر الناس إجرامًا على مر التاريخ؟!

قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** (97)﴾ أي: قل لهم يا محمد إن من كان عدوّاً لجبريل فإن الله أمر هذا الملك الكريم وأَذِنَ له بأن يَنْزِل على قلبي بآيات القرآن العظيم، الذي فيه هداية وبُشرى بالمغفرة والرحمة والقبول للمؤمنين.

﴿**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ أي القرآن مُصَدّقٌ لما سبقه من الكُتب التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين، كموسى وعيسى عليهما السلام.

﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾ أي: يَشُدُّ به فؤادَكَ، ويربِطُ به على قلبك، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** (32)﴾ (سورة الفرقان). فالمعنى: لا يوجد سبب لأن يُعادي أحدٌ جبريلَ، فإنه ينزل بالقرآن على قلبك يا محمد بالوحي والخير، وهذا سبب لمحبته لا عداوته.

وقل لهم أيضاً يا محمد ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ** (98)﴾ فإن من عادى واحداً من الملائكة فإنه معادٍ لهم كُلّهم، ومن عاداهم فإنه مُعادٍ لله جل جلاله، والله لا يُعادي إلا الكافرين به وبرسله وبملائكته.

---

(1) تفسير ابن كثير ج 1 ص 287-288، وفتح القدير ج 1 ص 171 انظر السلسلة الصحيحة ج 4 ص 491.

وهنا ملاحظة مهمة في قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾ وهي:

"أن الله تعالى لا يعادي قوماً لذاتهم، ولا لأنسابهم، ولا يوالي قوماً لذواتهم وأنسابهم، وإنما هو سبحانه يبغض الكفر، ويعادي أهله، ويعاقبهم عليه، ويحب الإيمان، ويوالي أهله، ويزينه في صدورهم، ويزيدهم منه تقوى، ويجزيهم عليه أحسن الجزاء".

ثم يقول تعالى للرسول ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)**﴾، وهذه الآية فيها رَدّ من الله تعالى على اليهود، حيث جاء ابن صوريا اليهودي وقال للنبي ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها! فأنزل الله عز وجل الآية.

فمعنى الآية: لقد أنزل الله عليك يا مُحمد آيات بينات واضحات ثابتات دالات على صدق نبوتك، ومن يكفر بهذه الآيات فإن في قلبه فِسق، والفسق لغة هو: اخراج الشيء من مكانه، فهم قد خرجوا عن شريعة الله، وعن طاعته، وعن المنطق والعقل.

فالذين يُكَذّبون الآيات البينات الواضحات، ويُنكرون المعجزات الثابتات ويدعون أنها مُخالفة للعقل أو للمنطق أو أنها غير مقبولة لأنها تنافي الأبحاث والنظريات العلمية؛ فإنه ينطبق عليه هذا الحكم، كالذي يُنكر معجزة الإسراء والمعراج مثلاً.

ثم يقول تعالى: ﴿**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100)**﴾ هذا تعجُّب من أمر هؤلاء، فقد أخذ الله منهم المواثيق والعهود مرات عديدة، وفي كُلّ مرّة ينقض طوائف منهم عهد الله وميثاقه، وذلك لأن أكثرهم لا يؤمنون بالله ولا بأنبيائه.

وقال تعالى: ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ فإن هناك عدد منهم قليل يؤمن بالله ورُسله وكتبه، وهذا من عدل الله تعالى بأن يَذكُر المسلمين ولا يُعمم الكُفر عليهم، فلأنهم آمنوا بالله وبأنبيائه فإنهم استحقوا أن يَذكرهم ربهم.

ومن فوائد هاتين الآيتين: أن اليهود لا يوثق منهم بعهد؛ لأنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، فليتفكر الذين يُهرولون إلى اتفاقات ومعاهدات ومفاوضات معهم.

۞ ۞ ۞

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (101)﴾.

ويستمر تذكير بني إسرائيل بجرائمهم وفضح كذبهم وظلمهم، يقول تعالى مُخاطباً رسوله ﷺ -وكل من اتبع محمداً-: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ هذا النبي جاء برسالة من عند الله الخالق جل جلاله، لا من عند نفسه، ولا من عند مخلوق.

﴿**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**﴾ سبق بيانها، فالقرآن الكريم مُصدقٌ لما في التوراة الحقيقية وليست المكذوبة المزورة، فهو يُصدّقها في أصول العقائد والتوحيد والعبادة والأخلاق.

لكن مع الأسف ﴿**نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**﴾ المقصود (بكتاب الله) التوراة، و(النبذ) هو الإهمال المتعمد والرمي أو الإلقاء بعيدًا، ومعناه أنهم نبذوا ما فيه من أحكام وتعاليم وشرائع، واتبعوا غيرها، قال ﷺ: (**إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا فاتبعوه وتركوا التوراة**) (أخرجه الدارمي).

وقد يكون الكتاب بين أيديهم يقرؤونه، ولكن نبذوا العمل به، صنعوا له أغلفة من الحرير والديباج، وَحَلُّوهُ بالذهب والفضة، لكنهم لم يُحِلُّوا حلالَه ولم يُحَرِّمُوا حَرامَهُ[1].

﴿**كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ وهذا تَهَكُّم عليهم، فمع أن هذا التحريف تم على علم ودراية، وسبق إصرار، إلا أنهم أغمضوا أعينهم، وأقفلوا قلوبهم، وكأنهم لا يعلمون أنه افتراء وكذب، وأنه يُخالف أمر الله تعالى في كتابه المنزل عليهم.

وهذا التحريف تَمَّ وكأنهم لا يعلمون أن هذا الكتاب فيه بُشرى بنبوة محمد ﷺ، أو أنهم لا يعلمون أن الله سيُخبره بأخبارهم وما في كتبهم، وهم في الحقيقة يعلمون ذلك.

ومع الأسف فإن هذا ما فعلناه مع كتابنا الذي أنزله الله تعالى ليُخرج به العباد من الظلمات إلى النور، وهو بين أيدينا محفوظ، لم يُغيّر ولم يُبدّل ولم يُحرّف، فقد تركنا أحكامه وشرائعه، ورفضنا أن يُحَكّم فينا، بل أشد من ذلك فقد اتهم بعضُنا أحكامه

(1) قول الشعبي وسفيان بن عُيينة رحمهما الله تعالى، انظر تفسير القرطبي ج 2 ص 36.

وحُدوده بالظلم، وأنها مُخالفة "للقانون الدولي" أو "لحقوق الإنسان"، رغم أننا زخرفنا طباعته، وجعلنا له أغلفة ذهبية، ووضعناه في صدور البيوت للزينة، بينما هجرنا أحكامه وتشريعاته، فالقرآن هو مصدر الخير والهدى والتشريع، لا ينبغي نبذه وترك أحكامه.

۞ ۞ ۞

سليمان عليه السلام وكذبهم عليه (102 – 104)..

يقول الله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾. ﴿**وَاتَّبَعُوا**﴾ ليس اليهود كلهم، بل الفريق الذين حرفوا التوراة ونبذوها وراء ظهورهم، وقد اتبعهم كثير من عامة الناس، ﴿**مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ الفعل (تتلو) قيل معناه يقرأ من التلاوة أي القراءة، وقيل: من (تَلا يَتْلُو) بمعنى (تَبِعَ يَتبَعُ).

﴿**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ أي: ما تتلوه وتَتْبعه الشياطين، وتأخذ به؛ على زمن ﴿**مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ أي في عهده، وقيل: ما تتلوا على مُلكه: أي تقول الكذب على طريقة حُكمه عندما قالوا: إن سليمان كان يحكمكم بالسحر، أو يستعين بالسحرة لتثبيت حُكمه.

﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ أي أن اليهود اتبعوا هذا الكلام المكذوب الذي كتبته الشياطين (أو شياطينهم) ونسبوه لسليمان ﷺ، وأصبحوا يقرأونه ويُعلمونه للناس، وساروا عليه إلى زماننا هذا، فقد افتروا وزعموا أنه عبد الأصنام في آخر حياته، وبنى لها معابد، لأجل ذلك عاقبه الله بأن أخرج المُلك من نسله[1].

لكن رب العزة يُعَقِّب ويقول: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾ أي أن سليمان ﷺ بريء من هذه التهم الباطلة، فما كفر وما ينبغي له ذلك، فهو من أنبياء الله المطهرين المنزهين، ولم يستعمل السحر في حياته مُطلقاً، بل لم يتعلمه.

وهنا يقول القرآن: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**﴾، وفي سورة النمل أن سليمان كان مسلمًا: ﴿**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾، ويقول في سورة ص: ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(30)**﴾، فقَطَعَ الله هذه الألسُن المفترية الكاذبة الآثمة، على نبي الله سليمان وعلى غيره من الأنبياء.

(1) الكتاب المقدس عندهم (العهد القديم) سفر الملوك الأول إصحاح 11، ص 414.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ إما الشياطين الحقيقية وهم مردة وكُفّار الجن، أو يكون المقصود شياطينهم أي المجرمين منهم الذين يعملون عمل الشياطين، فهؤلاء هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ بِتَعَلُّمِهِم السحر وتعليمه للناس، كذلك كفروا لأنهم اتهموا أحد أنبياء الله المعصومين كذبًا، وهو بريء، ومن افترى على الأنبياء الكذب فقد كفر.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ يُعلمونهم بأي وسيلة كانت، سواء يُعلمونهم بأنفسهم، أو بإرشادهم إلى من يُعلمهم، أو بإعطائهم الكتب أو غير ذلك، ويشمل هذا الحكم كل من يعمل بعمل هؤلاء الشياطين من الإنس وغيرهم.

واختُلِف في السحر هل هو تخييل أو حقيقة؟ قال بالأوّل المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)﴾ (سورة طه) وقال بالثاني أهل السنة، ويدلّ عليه الكتاب والسنة الصحيحة، والساحر قد يأتي بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرّق به بين المرء وزوجه ويحرم تعليمه أو تعلمه". والسحر من الموبقات المهلكات، لذا قرنه رسول الله ﷺ بالشرك، فقال: **(اجتنبوا السبع الموبقات)** ومنها: **(الشرك بالله، والسحر...)** (متفق عليه).

قال تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وقصة هاروت وماروت لم يثبت في تفاصيلها شيء، وكلها من الروايات الإسرائيلية، قال أبو السعود: "وهذا مما لا يُعوّل عليه لما أن مداره رواية اليهود، مع ما فيه من مخالفة لأدلة العقل والنقل" وهذا القول يقتضي أن هذه القصة غير صحيحة، وأنها لم تثبت بنقل مُعتبر"[1].

وقال القاسمي في تفسيره: "وهذه القصة من اختلاق اليهود وتقولاتهم. ولم يقل بها القرآن قط، وإنما ذكرها التلمود، كما يُعْلَم من مراجعة «مدارس يدكوت» في الإصحاح الثالث والثلاثين، وجاراه جَهَلَةُ القَصَّاصِ من المسلمين، فأخذوها منه".

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ فيه عدة أقوال:

1. الأول: أنهما مَلَكَان وتحولا إلى بشر، وهذا القول باطل عقلاً ونقلاً.

(1) انظر تفسير فتح البيان لصديق حسن خان القنوجي ج 1 ص 170.

2. الثاني: أنهما مَلَكانِ اقتضت حِكمَة الله عز وجل أن ينزلا لأجل أن يُعلما الناس طُرُق الوقاية من السحر، والتفريق بين السحر والمعجزة، حتى لا يختلط الأمر على الناس، إذ لا يُمكن أن يُنَزِّل الله تعالى ملائكة تُعلم الناس ما يُغضب الله، أو ما فيه ظلم وضرر، وهو قول وجيه. والسحر كان يتخذه كثير من الدجالين يومئذٍ للتمويه على الناس واستعبادهم، كما جاء في قصة الغلام والراهب..

3. الثالث: أن (ما) نافية، والمَلَكَين هما جبريل وميكائيل، لأن اليهود زعموا أن الله أنزل السحر معهما إلى سليمان، فَكَذَّبَهم الله، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ بذلك، وبرأ سليمان ﷺ، فتقدير الكلام: (وما كفر سليمان أبدًا، وما أُنْزِل على الملكين من أمر السحر شيء، بل الشياطين هم الذين كفروا ويعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت)، قال القرطبي: "هذا أولى ما حُملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين".

4. الرابع: قرأ ابن عباس وغيره: (مَلِكَين) والمقصود: داود وسليمان. فيكون معنى الآية: "وما كفر سليمان بأن تعامل مع السحر، وما أُنزلَ السّحرُ على داود ولا على سليمان، وهم الملوك في ذلك الوقت"، وَضَعَّفَ ابن العربي هذا القول.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ**﴾ (ما) حرف نفي، فإن هؤلاء المَلَكَين الذين يُطلق عليها هاروت وماروت، لا يُعلمان أحداً يأتي إليهما ليتعلم إلا إذا أخبراه بالحقيقة، وقالا له: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾ يعني: ما نحن إلا فتنة واختبار من الله، وإنما علمناك هذا الأمر حتى تتقيه وتحذره، أما إن تعلمتَ السحرَ فإنك ستكفر بالله، ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**﴾.. وعند الفتنة يظهر الصادق من الكاذب..

يقول تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ فالذي يتعلم منهما السحر فإنه يتعلم شيئاً بإمكانه أن يُفرّق به بين المرء وزوجه، وهذا نوع من أنواع السحر، وخَصّ الزوجان لأن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما.

﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ فالله تعالى هو خالق كل شيء، فالأسباب كلها بيده جل جلاله، فلا يُمكن لمخلوق أيًا كان حتى وإن كان ساحر أن يضر

أحدًا إلا إذا أَذِن الله بذلك، ويُؤيد هذا قوله ﷺ: (**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف**)[1].

وقد يُستفاد من هذه أن هذان المَلَكان لم يقوما بإيذاء الناس، بل علموهم الفرق بينه وبين المعجزة، فالمعجزة حقيقية، لكن السحر تخيُّلات.

﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ**﴾ الضمير (هم) يعود على السحرة، فهذا السِّحر لا يُمكن ولا بأي حال من الأحوال أن يكون نافعاً لصاحبه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن استفاد بعض المال أو الشهرة؛ لكنها ستكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة.

﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾ هؤلاء اليهود أو السحرة يعلمون علم اليقين أن من اشترى السحر ودفع إيمانه ودينه ثمناً فأصبح من الكفار الذين ليس لهم (خَلاق) أي: حظ من الخير في الآخرة، واللفظ (اشترى) يُبيّن أن من يتعلم السحر سيدفع ثمنًا له، وهذا الثمن هو دينه وإيمانه.

واللام للقسم، أي: والله إن اليهود يَعلمون علم اليقين أن من يبيع دينه لأجل الدنيا هو خاسر في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب، حتى وإن رأينا أنه في دنياه متنعم وعنده من الأموال والسلطة والجاه، فالله يقول: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18)**﴾ (سورة الإسراء).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ نعم والله، بئس هذا الفعل الذي يفعلون، بئست هذه الصفقة التي وافقوا عليها والتي تقتضى تخليهم عن دينهم لأجل السحر، فبئس العمل الذي من بعده غضب الجبار، والخلود في النار.

﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)**﴾ هذه جملة شرطية؛ وجوابها محذوف تقديره: لو كانوا يعلمون ما لهم من العذاب عند الله ما تعلَّموا السحر، أو: لو كانوا من ذوي العلم الحريصين على العلم النافع ما تعلموا السحر، "وهنا ينبغي للقارئ أن يقف على ﴿**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ**﴾ ويبتدئ بـ ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾؛ لأن الوَصل يوهم أن محل الذم في

(1) أخرجه أحمد والترمذي، انظر صحيح المشكاة 5302، وهو من الأحاديث التي يقوم عليها الدين كما قال ابن رجب.

حال علمهم؛ أما في حال عدم علمهم فليس مذموماً! وهذا خلاف المعنى المراد؛ إذ المعنى المراد: توبيخهم".

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (103)﴾، هذه رسالة إلى كُل إنسان على وجه الأرض، وليست خاصة باليهود أو بالسحرة، لكنها جاءت هنا في سياق الحديث عن اليهود، فلو أن اليهود الذين كانوا زمن الرسول ﷺ آمنوا به وبكتابه، واتقوا ربهم، ودخلوا في دينه لكان لهم منه الأجر والثواب الجزيل.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (104)﴾. وهذا نداء من الله تعالى للمؤمنين، فقد ناداهم بصفة الإيمان التي تُميّزهم عن غيرهم، فإنه وصف اليهود والذين أشركوا بأنهم كافرين، بينما وصف المسلمين بأنهم (مؤمنين)، فهذه الصفة تربطهم بربهم وتربطهم بعقيدتهم وبنبيهم وبأخلاقهم، فترفع همتهم عالياً، وتستحث فيهم روح الاستجابة لأوامر ربهم تبارك وتعالى.

وينبغي للمسلم أن ينتبه لهذه النداءات، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فأرعها سمعك -انتبه-؛ فإنه خير يَأمُرُ به، أو شَرٌّ يَنهى عنه".

ينهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في أقوالهم وأفعالهم، فاليهود استخدموا من الكلام ما فيه تورية، فيقولوا كلاماً ظاهره بأنه حسن، ويقصدون التنقيص من رسول الله ﷺ والمسلمين، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون: (راعِنا) بمعنى لاحِظ أو راقب أو التفِت، بينما هم يقصدونها من (الرُّعُونَةُ)، وهي الْحُمْقُ، و(الأرعن): الأهوج فِي قوله وفعله. وهذا دأب اليهود، فهم من طبعهم أنهم: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ .

➤ لاحظوا أيضًا قوله تعالى: ﴿**لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ**﴾ وقوله: ﴿**وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**﴾ فيكون الاستهزاء واللمز بِلَيّ اللسان لأجل الطعن في الدّين. فقد كانوا إذا سَلَّموا على الرسول ﷺ والمسلمين يقولون: السامُ عليكم. والسام هو: الموت، كما ثبت في الصحيحين.

إذاً معنى الآية: يا من آمنتم بالله رباً وبمحمد نبياً إذا أردتم أن تُنادوا على النبي لا تقولوا له (راعنا) ولكن قولوا: انظرنا، يعني انظر إلينا، لأن كلمة (راعنا) كان اليهود

يقولونها له بقصد الشتم والنقيصة، مع العلم أن الله تعالى يعلم أن الصحابة لا يقصدون الأذية، بل يقصدون المعنى الحقيقي، لكن المسلم لا يقتدي بهؤلاء المجرمين.

وهذا صحيح، فليس قصدهم من الانتظار، بل من (الرعونة) فقد رَجَعتُ إلى اللفظ (רַע رَع بفتح الراء وتسكين العين)، في اللغة العبرية فوجدتُ من معانيه: (سوء، أذية، ضرر، قسوة، شرّ، ورطة، بلية، مأساة)، واللفظ (רُע رُع بضم الراء) من معانيه: حقد، مكر، خُبث، تعمّد الأذية، شر، رذيلة[1]، وإذا أضفنا لها الضمير (نو נו) الذي يُقابل بالعربية الضمير المتصل (نا) يُصبح معناها: أَمكَرَنَا أو أَخبَثَنَا أو أَسوَأنا أو أكثرَنا شَرًّا، عليهم من الله اللعنة والغضب.

﴿**وَقُولُوا انْظُرْنَا**﴾ لا تقولوا مثلهم، وغيّروا اللفظ، فلا تتبعوهم لا بالقول ولا بالعمل، قال ابن كثير: "والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً".

﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ أي اسمعوا لقول ربكم، ولقول رسولكم ﷺ الذي تُؤمنون به.

﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (104)﴾ وهذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الكفار الذين يتجرأ أحدهم أن يشتم الرسول أو يقدح في أحد الأنبياء، وهذا من الجرائم الكبائر في الإسلام التي يستحق فاعلها العذاب الأليم.

۞ ۞ ۞

كشف نواياهم الخبيثة..

ثم تَفضح الآيات نواياهم، وتُظهر ما في داخل قلوبهم، فيقول تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (105)﴾.

فهذه الأعمال التي يعملونها مع الرسول ﷺ، ومع المسلمين، إنما هي بدافع كراهية وحقد وحسد، وهذه محلها القلب، فقلوبهم تمتلئ بالحسد والكراهية للإسلام ونبيه وكتابه وأتباعه، انظروا إلى اللفظ القرآني: ﴿**مَا يَوَدُّ**﴾ و(الوُدّ) هو خالص المحبة، فاليهود والمشركون لا يُحبون أن يُصيب المسلمين خيرٌ، أيُّ خير، ولا حتى يتمنون لهم ذلك.

(1) قاموس ي. فوجمان (عبري عربي) ص 884.

وهذا إشعار من الله جل جلاله بخطر اليهود والمشركين على الإسلام والمسلمين، فإنهم لا يُحبون الخير للإسلام ولا للمسلمين، وقد بذلوا وسيبذلون كل الجهود، وأنفقوا وسينفقون من الأموال والأوقات، لأجل إبعاد أي خير يُصيب المسلمين على كل الأصعدة، وفي كل المجالات، فتراهم يسعون بكل ما أوتوا من قوة ليفتنوا المسلمين عن عقيدتهم، وعن عباداتهم وأخلاقهم التي أمرهم الله بها، وقد كان هذا على مرّ التاريخ، منذ أن بعث الله النبي ﷺ وحتى اليوم وإلى يوم القيامة، فتاريخهم الأسود في العدوان، والدسائس والافتراء، والغدر والفتك والخيانة يملأ صفحاتِ التاريخ، فقد خان يهود بني قينقاع العهدَ مع رسول الله ﷺ ثم تبعهم يهودُ بني النضير، الذين تآمروا على قتله ﷺ، وكذلك بني قريظة يوم الخندق، وكان عاقبة أمرهم خسرًا.

ويؤيد هذا أقوال زعمائهم من قديم وحديث، فَحُيَيّ بن أخطب قديماً قال لأخيه أبو ياسر: قال: "نعم والله هو النبي، وقد عزمت على عداوته ما بقيت".. وقال مناحيم بيجن: "لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم، ولا عطف ولا رثاء حتى تنتهوا من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا"[1].

ويُلخص كل هذا صموئيل زويمر اليهودي في خطابه في مؤتمر في القدس عام 1935 بقوله: "...مهمة التبشير الذي نَدَبَتكُم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا هداية لهم، وإنما مهمتكم أن تُخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم، فأنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية... لقد قبضنا في هذه الحقبة من الدهر... على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية"[2].

وصدق الله القائل: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ (سورة المائدة: 82)، فهم يُعادون الله سبحانه، ومن كان معادياً لله فلا بد من خذلانه، لذا قال سبحانه: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾، "فمشيئته سبحانه هي النافذة لا مشيئة غيره،

(1) انظر هذه الأقوال وغيرها في مقال "عداوة اليهود للإنسانية عامة وللمؤمنين خاصة" أ. د. مصطفى مسلم، شبكة الألوكة.
(2) صمويل مارينوس زويمر (1867- 1952) منصر يهودي أمريكي الجنسية، أُطلق عليه اسم "الرسول إلى الإسلام" لكثرة ما ألف من الكتب في الطعن في الإسلام والرسول والأخلاق والتاريخ الإسلامي.

فقد اختص بني إسماعيل بنبوة محمد ﷺ رغماً على بني إسرائيل وأذنابهم من كل مشرك في الماضي والحاضر، لذا؛ يجب على المسلمين أن يشكروا الله على هذه النعمة التي خصهم بها بالقيام بالرسالة ونشر أنوار الهداية المحمدية؛ في العالم، وليحترسوا من مكر اليهود وأذنابهم من المشركين، وعدم التخلق بأخلاقهم، وعدم السير في مخططاتهم، وأن يلتزموا كل الالتزام بمنهج الله سبحانه وتعالى".

﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ فهو الحكيم المتصرف جل جلاله، ينزل الرحمة على من شاء من عباده، بحكمة بالغة. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ أي: بنبوته، خَصَّ بها محمدًا ﷺ"، فهو الذي يختار ويصطفي جل جلاله.

﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (105)﴾ وأي فضل أعظم من أن يختاركم لتكونوا من أتباع خير دين، وخير نبي، وخير كتاب، فتكونوا من خير أمة؟ وفي هذا إشعار للرسول ﷺ للمسلمين بعظمة هذا الدين، وهذا العطاء الرباني الذي أكرمهم به.

۞ ۞ ۞

إعلان رباني مهم (106-107)

لو تساءل أحدنا: لماذا لا يُحب أهل الكتابِ والمشركون الخير للإسلام والمسلمين؟

الجواب: لأنهم أحسُّوا، بل علموا أن محمداً ﷺ ودينه وكتابه سيَنسخ عقائدهم الباطلة، فهو خير مما جاء به موسى وعيسى، لأنه آخر نبي، وشريعته جاءَت لتُنظّم حياة الأمم كافة، فهي أعظم رسالة سماوية وأعلاها مكانة، وأجلّها معجزة، وأكملها نظاماً ومنهجاً، وقد تولى الله سبحانه وتعالى حفظه بنفسه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

هذا الوعد الإلهي مزيّة للقرآن من بين الكتب السماوية التي بُدِّلَت وَحُرِّفَت، فهو لم يزل محفوظاً في الصدور والسطور، ويتلى آناء الليل وأطراف النهار، كما أنزله الله قبل أزيَد من ألف وأربعمائة سنة، وهو صالحٌ لكل زمان ومكان، ويجب على أهله أن يطبقوهُ في في جميع جوانب حياتهم الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، أما الأنبياء السابقين فقد كانت شرائعهم لقومهم فقط، محدودة ومؤقَّتة.

إذاً في إعلان رباني وقانون إلهي لكل الناس، يقول: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾. فإن ما نَسَخَهُ الله تعالى من آيات في التوراة والإنجيل والكتب السماوية السابقة، فإنه ولا بُد قد أتى بآيات أخرى خير منها، أو مثلها في بعض الأحكام، وهي القرآن الكريم.

قال الشيخ الدوسري: "لقد أقام اليهود - عليهم لعائن الله - حملات عنيفة مركزة ضد الإسلام والمسلمين متخذين من نسخ بعض الآيات والأحكام ذريعة للطعن في ذات الله، فكان لابد لهذه الحملة من مقابل، ولابد لهذا الباطل المروَّج من حق يزهقه ويبطله. فكان هذا الرد الشافي من الله سبحانه الذي دحض به هذه الشبهة وزلزل دعائم الباطل وأركانه فيقول سبحانه: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾".

فالله تعالى يُخبرنا عن عموم قدرته وتصرفه فى مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء كما أنه يمحو من أحكامه، ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء.

﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا**﴾ يعني: نَتْرُكها فلا نُبَدِّلها ولا نَنْسَخها. ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ نأت بما هو أنفع للناس منها، وما هو أكثر أجرًا، أو "يكون فيها تسهيل على العباد مع تمام الأجر، وليس معناها أن هناك آية أفضل من آية، فالكلام كله كلام الله، وهو يعلم ما هو أنفع وأفضل لعباده".

قوله: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (106)﴾ والآية جاءت بصيغة الاستفهام، أي: بما أنك تعلم أن الله على كل شيء قدير فلم تستغرب أن ينسخ ما يشاء أو يمحو أو يُثبت ما يشاء جل جلاله؟

"قد يقول قائل: ما الفائدة إذاً من النسخ إذا كانت مثلها، والله تعالى حكيم لا يفعل شيئاً إلا لحكمة؟

فالجواب: أن الفائدة اختبار الطاعة والامتثال؛ لأنه إذا أطاع العبد الأمرَ؛ دل على كمال عبوديته؛ وإذا لم يُطع دل على أنه يعبد هواه، ولا يعبد مولاه؛ مثال ذلك: تحويل القبلة؛ فالمسلم ليس عنده فرق أن يتجه يميناً، أو شمالاً؛ إنما الحكمة من ذلك اختبار المرء بامتثاله أن يتجه حيثما يوجه ربُّه؛ ولهذا ضل البعض بسبب تحويل القبلة: قال الله

تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**﴾ (سورة البقرة: 143)؛ فالإنسان يُبتلى بمثل هذا النسخ؛ إن كان مؤمناً عابداً لله قال: سمعت وأطعت؛ وإن كان سوى ذلك عاند، وخالف: يقول: لماذا هذا التغيير! فيتبين بذلك العابد حقاً، ومن ليس بعابد".

خلاصة معنى الآية: ما نُبَدّل من آيات كتابٍ إلى آيات كتابٍ آخر، أو نؤخرها فلا ننسخها، كما بدلنا بعض ما في التوراة وغيّرناها في الإنجيل، أو ما بدلنا أحكام وشرائع التوراة والإنجيل بما في القرآن، فإن الأحكام التي نأتي بها أو نُثبتها هي خير من التي محوناها، أو مثلها في بعض الأحكام، فالله تعالى هو المتصرف والقادر يُغيّر ويمحو ما يُريدُ ويُثبت ما يشاء، لكنه يختبر عباده ويمتحن إيمانهم بالامتثال لأوامره وطاعتها.

ثم يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾؟ وهذا أيضاً سؤال جاء ليزيد الإيمان في القلوب، ويُبيّن عظمة الله تعالى وقدرته، فقد قال في الآية السابقة: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾؟ نعم إنه القدير والقادر والمتصرّف في السماوات والأرض وما بينهما كيفما يشاء؛ لأنها مُلك له، وهو مالك لها، يفعل ما يشاء، فما يتحرك من متحرك فيهما ولا يسكن من ساكن إلا بإذنه جل جلاله.

وفي هذا بُشرى للمسلمين أيضاً، كي لا يخافوا من أية قوة في هذا الدنيا، مهما كانت قوية، مهما علا الباطل وارتفع وانتفخ وانتفش، فلا قوة سوى قوة الله العظيم، فهي القوة المُطلقة، ومهما مَلَكَ العدو من التكنولوجيا فإنه أمام قوة الله ضعيف حقير، بل إن الله تعالى يُغيّر نواميس الكون كلها لأجل مسلم صادق معه، فقد تغيرت نواميس الكرة الأرضية لأجل مُسلم أراد أن يتوب وكان صادقاً، كما غيّر نواميس الكون في نار إبراهيم ﷺ فأصبحت لا تحرق، وسكين إسماعيل فأصبحت لا تقطع، لأنها من مُلكِ الله، ويتصرف فيها كيفما يشاء، فقوة أعداء الله كلها بيده، لا تُعجزه أبدًا، وهي لا تُساوي شيئًا مع قوته، فهنيئًا لمن كان مع الله، ومن كان الله معه فمن عليه؟

قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (107)﴾ لا يُمكن لمخلوق أن يتولى حماية إنسان من عذاب الله، أو يدافع عنه، وهذه رسالة لكل الناس، تقول: إن

الله تعالى هو وليكم ويُحبكم (والولي هو المحب الذي يُوالي) وهو ناصركم، فهو ذو القوة العظيمة المطلقة، إذا آمنتم به وصدقتم وأطعتم، وسرتم على نهجه، فلا تبالوا بمن ينكر النَّسْخَ أو يُعِيبَكُم به، فلا يدخل كلامه في مسامعكم فإنه لا قيمة له ولا للمنكرين إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أبداً مادام الله هو مولاكم وهو ناصركم.

۞ ۞ ۞

تحذيرات وتوجيهات للمسلمين (108-110)

يتوجه الخطاب مرة أخرى إلا المسلمين في كل زمان ومكان، يقول الله تعالى: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ**﴾؟

وهذا تحذير شديد لهم من أن يكثروا من الأسئلة والاعتراضات مثل بني إسرائيل، الذين آذوا أنبياءهم بالأسئلة الكثيرة، ومنهم موسى ﷺ، فقد كانوا يسألوا عن ما يهمهم وما لا يهمهم، فقد سألوه أن يروا الله جهره، وسألوه أن يجعل لهم آلهة، وسألوه في قصة البقرة وفي التيه أسئلة كثيرة، وقد جاء أمر مماثل في سورة الأحزاب: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (69)**﴾. لكن المسلمين الصادقين ليسوا كبني إسرائيل، ولا يقبلوا أن يكونوا مثلهم، لأن أنفسهم نبيلة شريفة عظيمة، تَرَبَّت على القرآن، لا يليق بها أن تسعى وراء اللذات لأجل مصلحتها الخاصة، فالمصالح الشخصية لا يعرفها العظماء.

وقال بعض المفسرين: إن الخطاب هنا لكفار قُريش، أو لليهود، وصححه الرازي؛ لأن سياق الآيات منذ ثمان وستين آية كلها في اليهود، ولأن محمداً ﷺ رسول للعالمين كلهم، ولأن الآية مدنية، والحقيقة أن الآية عامة تحتمل المعنيين، فهي عامة لليهود والنصارى والمشركين، فهو ﷺ نبيٌّ أُرسل إليهم ولكل البشرية، وكذلك للمسلمين أيضاً، فهو نبيهم الذي يُحبهم ويُحبونه، ويُطيعونه في كل صغيرة وكبيرة، ونلاحظ هنا قوله تعالى: ﴿**رَسُولَكُمْ**﴾ تُشعر برحمة الله وكرمه بأن أرسل نبياً يُرشدكم إلى طريق الخير المستقيم الذي فيه عزكم وشرفكم، كما تُشعر برحمة الرسول ﷺ بأمته، وحرصه على إيمانهم.

ملخص الآية: أن الله ذمَّ من سأل الرسولَ ﷺ عن شَيء، على وجه التعنُّت أو الاستهزاء، كما سألت بنو إسرائيل موسى، ﷺ، تعنتًا وتكذيبًا واستهزاءً، وهذا لا يَمنع

من الأسئلة التي فيها الفائدة لصالح المسلمين، أو الأسئلة التي تدور في نفس الإنسان، من فقهيات وغيرها، وهناك إجابات على أسئلة كثيرة في القرآن.

ثم يقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** (108)﴾. فالإنسان الذي يختار الكفر على الإيمان، ويختار رضا نفسه ورضا المخلوقات على رضا الخالق، ويختار شهوات نفسه ويرفض أوامر الله تعالى، فإنه قد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال.

ما زال الخطاب للمسلمين، في زمن النبي ﷺ، وفي كل زمان ومكان، وهذه قاعدة ربانية مهمة جداً لكل مسلم، فيها إخبار وتعليم وتحذير لهم، يقول: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا**﴾، فاليهود والنصارى لا يُحبون الخير للمسلمين ولا لدينهم، بل يُحاولون منع أو دفع هذا الخير عنهم، وهذه غايتهم التي عملوا لأجلها منذ بزوغ شمس الإسلام، وما زالوا يحرصون عليها ليلاً نهارًا.

وقد وَرَدَت عدة أسباب لنزول هذه الآية، منها أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا، وكان يهجو النبي ﷺ والمسلمين، وفيه نزلت الآية. ومنها أن حُيَيُّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب كانا من أشد يهودَ للعرب حسدًا، وكانا جَاهِدَين في ردِّ الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله الآية. وَوَرَدَ أيضاً أن سبب نزول هذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب بن زيد قالا للنبي ﷺ: ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وَفَجّر لنا أنهارًا نتبعك. وقيل: نَزَلَت في نفر من اليهود شمتوا بما حصل للمسلمين يوم أُحد.

وهذا يدل على أنهم كُلّهم بجميع أطيافهم سواء علماء الدين، أو الإعلاميين والأدباء والشعراء وسياسيين واقتصاديين وكُبراء وزعماء، ويتبعهم في ذلك عامتهم، كلهم يعملون لنفس الغاية، وهي إبعاد المسلمين عن دينهم وأخلاقهم ولم يألوا جهداً لذلك.

لكن، لماذا كل هذا العِداء؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿**حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**﴾ هذا هو الذي يدفعهم لهذا العداء، ليوضح لعباده المؤمنين أن حسد اليهود لهم ليس لأنهم يغارون على الحقِ أو يسعون

للحقيقة والعدالة، وإنما هو عن خبث النفوس ولؤم الطباع وفساد الأخلاق والتمادي في الباطل إصراراً وعناداً. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾، فالحق عندهم ظاهر واضح، وهم يعرفونه، لكنهم عادوه عداءً صريحاً، وحسدوا أهله بعد ما تبين لهم الحق بالآيات والبراهين التي جاء بها النبي مطابقة لما في بشارات التوراة.

فالقرآن الكريم يكشف للمسلمين نفسية أعدائهم ليتعاملوا معهم على هذا الأساس، يُعَرِّفهم بأخلاقهم وصفاتهم؛ فالعدو لا ينقلب صديقاً، ولا يسعى إلى الخير والمودة، بل يسعى إلى مصلحته، والإضرار بالمسلمين وعقيدتهم وأخلاقهم وعباداتهم، فعملوا على تمزيق الأمة وتقطيعها شيعاً وأحزاباً وجماعات، وبإثارة الفتن الداخلية، والشعارات والنعرات الجاهلية، والدعوات القومية والقبلية، والسعي بالدسيسة والوقيعة بين الأخوة، وكلما حاول المسلمون الاتحاد والاجتماع بعد هذه الفُرقة عملوا على إفشال وحدتهم بكل قوةٍ وبكل حيلة، وهذا على مرّ الأزمان والدهور، وفي قصة شاس بن قيس أكبر برهان وأكبر دليل.

قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ فهذه العداوة بدأت من بعد ما تبين لهم الحق وأصبح جلياً، لكن ما هو هذا الحق؟

(1) من بعد أن فُتحت لهم أبواب الهداية، وتميز الدين الحق من الباطل.

(2) من بعد ما تبين لهم أن خاتم النبيين من بني إسماعيل لا من بني إسحاق.

(3) من بعد أن تبين أنه النبي الذي ينتظرونه، المذكور عندهم في التوراة بصفته، وهو الذي كانوا يستفتحون به على أعدائهم، بل إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

(4) من بعد أن تبيّن أن كتابهم مُحَرّف، وأن كلماته قد بُدّلت بفعل عامد متعمد، وأن أحبارهم ورُهبانهم قد أخفوا عنهم الكثير من أمر دينهم، ومن قصصهم وتاريخهم.

قوله تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا**﴾، هذا أمر من الله للمؤمنين أن يُعامِلُوا أهل الكتاب والمشركين بالعفو والصفح، فما ينبغي أن تُقابلوا إساءتهم بإساءة، ولكن اصبروا واحتسبوا، واعفوا وتجاوزوا عنهم ﴿**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾: أي إلى ميعاد معلوم، ووقت محدد، حيث يأتي الله بأمر آخر غير هذا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، وكان رسول الله ﷺ يتأوَّل من العفو ما أمره الله به، حتى أَذِنَ الله بالقتال.

وقوله: ﴿**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ يَدُلُّنا أن الله ناصر عباده المؤمنين يوماً ما، بغض النظر عن العدو، فما يفعله اليهود في المؤمنين لن يستمر، ولابد أن أمر الله آتٍ.. فلا يُمكن أن يقال ﴿**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ ثم لا يأتِي.. بل أمر الله نافذ وسينصركم عليهم بلا شك.. لهذا خُتمت الآية: ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)**﴾.. فالله تعالى له القدرة المطلقة.. ومن كان الله بقوته معه فمن عليه؟؟ من يستطيع أن يقف أمام الله ويُحاربه ويُعاديه؟؟

قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾، فبعد أن أخبر الله تعالى المسلمين عن دسائس اليهود وكُرههم وحسدهم، ثم أَمَرهم بالعفو والصفح عنهم في هذه المرحلة، حتى يأتي أمر الله بالجهاد؛ أَمَرَهُم بأن يُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة، ليرتقوا في العلاقة مع الله، ويرفعوا مستويات الإيمان بإقامة العبادات، و"(الصلاة) حق الله التي توثق عُرى الإيمان، وتُعلي الهمة، وتجمع قلوب المؤمنين وَتُنَزِّه النفس عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فتكون بذلك جديرة بالنصر".

و(الزكاة) تعني: حقوق العباد، ففيها توكيد الصلة بين أفراد المجتمع، غنيّهم وفقيرهم، فتتحقق وحدة الأمة وتكاتفها، وتكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم لألمه باقي الأعضاء جميعها.

وهذا يعني: أصلحوا ما بينكم وبين الله، وأصلحوا ما بينكم وبين العباد، حتى يصلح المجتمع، بعدها يأتي أمر الله تعالى بالجهاد، فتكونوا أهلا له، وقادرين عليه، لذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ**﴾، وهذه آية عامة، فأي إنفاق تُنفقونه سواء جُهد عضلي كالصلاة، أو مادي كالزكاة، أو غيره، فإن الله تعالى يحفظه لكم، وسيجزيكم عليه خير الجزاء، وسترونه أمامكم يوم القيامة، وتفرحون به، وكأن هذا تحضير واستعداد لبذل الجهد الأكبر في الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (110)﴾ يرى ويسمع ويعلم كل شيء، فلا تخافوا أن يُنقصكم من أعمالِكم وأقوالِكم، وجُهدِكم وإنفاقِكم.

۞ ۞ ۞

عودة إلى بني إسرائيل وكِبرهم وفِكرهم الخبيث (111- 113).

تعود الآيات مرة أخرى للحديث عن بني إسرائيل وتفكيرهم الخبيث، وكما ادعوا من قبل أن الدار الآخرة لهم وحدهم من دون الناس، وأنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودة، فهاهم الآن يَدَّعُون أمرًا عجيبًا آخر: ﴿**وَقَالُوا**﴾ يعني أحبار بني إسرائيل وزعمائهم ﴿**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾ قالوا ذلك لعامتهم، فأوهموهم أنهم أهل الجنة، وأنها مُخصصة لهم فقط.

﴿**هُودًا**﴾ أي يهودًا جمع هائد، فاليهود يقولون: لا يُمكن أن يدخل أحدٌ الجنة إلا إذا كان يهودياً، والنصارى يَدَّعُونَ ذلك عن أنفسهم، "لكن الله تعالى جمع قولهم في جملة واحدة حتى يُبيّن لنا أن ملتهم واحدة، وأنهم في خندق واحدٍ إذا ما كان العدو هو الإسلام والمسلمين، فقولهم واحد، وفكرهم وتفكيرهم واحد، وهذا مستمر إلى اليوم، وكما قيل: "الكفر ملة واحدة".

﴿**تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**﴾ إنها مُجَرَّد أماني وأحلام وأوهام وضلالات عندهم، لا حقيقة لها.

ثم يُقِيم ربُّنا تبارك وتعالى الحُجَّة عليهم فيقول: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (111)﴾ فلتُقَدّموا الدليل على دعواكم هذه، فالصادق في دعواه يأتي بالدليل، هل لديكم دليل أو بُرهان؟ ولا يوجد طبعاً لهم دليل.

ثم يقول تعالى: ﴿**بَلَى**﴾ لإثبات النفي السابق، فقد قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً أو نصرانياً، والله يقول: بلى؛ سيدخل الجنة غيركم.. لكن من هو الذي سَيَدخُل الجنة؟ الله يقول: ﴿**مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾ من صَدَقَ في إسلامه واستسلم لربه، وأقبل بوجهه إليه، ثم كان (محسناً) في عمله فإن أجره عند ربه أن يكون من أصحاب الجنة، فمن ينطبق عليه هذا الشرط فإنه سيدخل الجنة.

وأشرف شيء في الإنسان وجهه، وأشرف عمل على وجه الأرض هو أن يُذِلّ الإنسان وجهه ساجدًا لله الخالق، قال ﷺ: **(أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد)**[1]، **(ما من حالَةٍ يَكُون العبد عليها أحب إلى الله من أن يراه ساجدًا يعفر وجهه في التُّراب)**.

﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ والإحسان في العمل أن يكون مُخلصاً لله تعالى، وموافقًا لما جاء به النبي ﷺ، ﴿**فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾ فسَيُدخله الجنة خالداً فيها، وأصحاب الجنة يصفهم الله فيقول: ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)**﴾ فلا خوف عليهم في الدنيا؛ لأنهم يعيشونها لله، ويحتسبون أجر عملهم وأجر مُصابهم وابتلائهم عنده، ولا يمسهم في الآخرة نصب ولا حزن ولا هم ولا غم، كالذي كانت عليه أحوالهم في الدنيا.

فطريق النجاة: هو الإيمان الخالص لله، المتضمن تمام الخضوع لأمره، ثم العمل الصالح والعبادة الخالصة لله، فلا ينفع الإيمان وحده دون اقترانه بالعمل الصالح.

لطيفةٌ: لماذا قال تعالى: ﴿**فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾ بالمفرد، بينما قال: ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ بالجمع؟ قالوا: أفرد الأجر لأن كل إنسان له أجر غير الآخر، ويتميز كل أحد من أهل الجنة عن الآخر حسب أعماله، بينما جمع عدم الخوف والحزن لأن أهل الجنة كلهم يشتركون في هذه الصفة، ولا يتميز أحد على أحد فيها.

۞ ۞ ۞

﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾، ما زال الصراع بين أهل الكتاب، وهذا دليل على أنهم لا يُحبون بعضهم، والصراع بينهم كان وما زال، فاليهود لا يؤمنون بعيسى ﷺ، ولا يعترفون بالنصرانية، لكن برغم كل هذه الخلافات إلا أنهم يجتمعون في صّفّ واحد إذا ما كان العَدَاء لدين الإسلام.

قالت اليهود: ليس النصارى على دين يُعتدّ به، ويدّعون أن المسيح المبشَّر به لم يأت بعد، وينتظرون عودته ملكًا عليهم. وقالت النصارى: ليست اليهود على دين صحيح، لأنهم أنكروا أن يكون المسيح جاء مُتمماً لشريعة موسى ﷺ.

(1) رواه مسلم (215 - 482)، والرواية الأخرى وضعفها الألباني في ضعيف الترغيب رقم 215.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي أن الحُجّة عليهم من كتابهم الذي يقرأونه ويَدَّعُونَ أنهم يؤمنون به، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتي بعد موسى، والإنجيل يقول: إن المسيح جاء متممًا لشريعة موسى لا ناقضًا، فلو آمن كل طرف بكتابه بحق، لما قالوا مثل ذلك، لأن كل كتاب نزل من عند الله، مصدقًا لما سبقه، ومبشرًا بما بعده، فكتابهم حُجة عليهم. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هذا القول الذي قاله اليهود للنصارى، قاله مشركو مكة للرسول ﷺ، بأن دينك ليس بشيء، وقد وصفهم الله تعالى بأنه (لا يعلمون) لأنهم ليس لديهم كتاب يُرشدهم إلى الطريق القويم، والقول الصحيح.

وقيل: المقصود بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم اليهود والنصارى، فإن قولهم هذا يُظهر أن كل واحد منهم جاهل بدينه وبكتابه، فكتاب اليهود يبشر بعيسى، وكتاب النصارى جاء متمماً للتوراة، فرغم أنهم أصحاب علم وأهل كتاب سماوي إلا أن تحريفهم وانحرافهم عن منهج ربهم جعلهم في منزلة الجهلة الذين لا يعلمون شيئاً. ثم قال سبحانه: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)﴾ عند الله يوم القيامة، يجتمع الخصوم فيحكم ولا حاكم هناك سواه، ويقضي ولا قاضي هناك سواه، ليميز الحق من الباطل في كل المسائل التي يختلف فيها الناس.

والفصل لا يكون بين اليهود والنصارى فقط، بل بين كل الطوائف التي كانت على وجه الأرض، السابقة واللاحقة، كلّهم سيجتمعون ويفصل الله بينهم، فيَعرض دينهم أفكارهم وعقائدهم على ميزان الحق، فإن كان من أهله جعلهم الله من أهل الجنة، لهذا جاء في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)﴾.

يقول الفخر الرازيّ رحمه الله: "هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفّر الأخرى. مع اتفاقهم على تلاوة القرآن". ثم قال: "فهاهنا تُسْكَبُ العَبَرات بما جناه التَّعَصُّب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا بِسُنّة ولا قرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمّا غلت مراحل العصبية في الدين، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين"، مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، فقال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة آل عمران: 103).

استمرار جرائمهم على مر الزمان (114-115)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾؟ استفهام استنكاري يعني: هل ترون أحدًا أكثر ظُلماً وتَعَدّيًا من هؤلاء الذين يمنعون المؤمنين من دخول بُيوت الله ليُعَظّموه ويعبدوه فيها، ويذكروا فيها اسمه بالتعظيم والإجلال؟ والآية عامة فيمن ذُكروا في أسباب النزول، وغيرهم ممن منع من يُريد أن يُعَظّم الله في بيوته، إلى قيام الساعة.

فالمشركون في مكة منعوا الرسول ﷺ ومن معه من دخول مكة والبيت الحرام، فأعَزَّهم الله، وأدخلهم البيت فاتحين مُكَرَّمين. والصليبيون الذين احتلوا بيت المقدس وعاثوا فيه، ومنعوا الصلاة، ففتحها عُمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم احتلوها ومنعوا الصلاة سنوات طوال، فجعل الله تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي. والقرامطة الذين صنعهم اليهود، روّعوا حُجاج بيت الله الحرام، وهدموه، واقتلعوا الحجر الأسود وسرقوه وبقي عندهم ما يزيد عن عشرين سنة[1].

وهاهم اليوم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الأقصى، وفي غيره من المساجد، بل أكد تقرير[2] "جمعية الأقصى للدفاع عن المقدسات" أن عددًا كبيرًا من المساجد في فلسطين حُولت إلى معابد لليهود والصهاينة، وأخرى مغلقة أو مهملة أو مهدمة. وقال التقرير: إن المساجد الباقية لا تساوي 10٪ من مساجد فلسطين التي هدمت في فترة الاحتلال، وما بقي منها إلا القليل شاهداً على عنت وصلف الظالمين، ولم تسلم حتى هذه النسبة القليلة التي تبقت من المقدسات، ويمارس بحقها أبشع أنواع الانتهاك، فالبعض يُغلق حتى وقت هدمه، والبعض يمارس بداخله أعمال الرذيلة"، وفي حرب طوفان الأقصى 2024 على غزة قصفوا أكثر من 1000 مسجد.

فمن أشدّ ظُلماً من هذا الذي يمنع من يُريد أن يُعَظّم رب العزة في بيته؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، لاحظ أن الله تعالى أضاف

(1) حركة باطنية هدامة تنتسب إلى حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق؛ لكن حقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية.

(2) من موقع: http://www.palestine-info.com/arabic/terror/aleatida/hathama.htm

المساجد إلى نفسه، فقال: ﴿**مَسَاجِدَ اللهِ**﴾ أي لا تنسوا أن هذه المساجد بُيُوتِي[1]، وللبيت رب يحميه ويُدافع عنه وعن أهله.

﴿**وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**﴾ خراب مادي ومعنوي، مادي بهدمها أو تدميره. أو خراب معنوي بمنع الناس من الوصول إليها والصلاة وتعظيم رب العالمين فيها، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ (سورة التوبة: 18) فالعَمَار هنا عكس الخراب، وهو مادي ومعنوي، فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خَرابٌ لها لا يقل عن هدمها وتدميرها.

وهذا العمل يستوجب عُقوبةً وعذابًا من الله تعالى، فهو الذي يقول: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الأنفال:34).

يقول تعالى: ﴿**أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ**﴾ وهذا يحتمل ثلاثة معان:

الأول: الذين يُحاربون المساجد فليس لهم حق أن يدخلوا المساجد إلا خائفين.

الثاني: خبر بمعنى النهي؛ يعني: لا تدعوهم يدخلوها -إذا ظهرتم عليهم- إلا خائفين.

الثالث: بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد - ومنهم المشركون الذين منعوا النبي ﷺ المسجد الحرام - ستكون الدائرة عليهم، ولا يدخلوها إلا وقلوبهم ترجف خوفًا، وأن الله سَيُذل المشركين حتى لا يدخل المسجد أحد منهم إلا خائفًا.

﴿**لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل. فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أُجلوا منها ﴿**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)**﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه فنصبوا الأصنام حوله، والطواف به عُرِيًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله".

وقيل: الخزي هو الذل الذي يلحقهم عندما تدخل بلادهم في الإسلام، وهذا بفضل الله تعالى في ازدياد وانتشار، حتى أن المسلمين ليشترون الكنائس والمعابد منهم،

(1) في الحديث: (**إن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها**) السلسلة الصحيحة، ج 3 ص 157.

وصُحفهم تنشر أخبار وإعلانات عن كنائس للبيع، كما حصل في فرنسا وسويسرا وألمانيا والدنمارك وأمريكا وغيرها الكثير، وفي استطلاع أجرته صحيفة "لاكرويكس" الكاثوليكية، تَبَيَّن أن الكنيسة الكاثوليكية قد بنت خلال العقد الماضي 10 كنائس فقط، وأغلقت 60 كنيسة أبوابها بسبب قلة مرتاديها، وغالبًا ما يتم شراؤها من قبل المسلمين ويتم تحويلها إلى مساجد (تقرير 2011م).

﴿**وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (114)﴾ فعذابهم عند الله كبير لا يُطيقه أحد.

إذًا، لهم عذابان: "خزي الدنيا فهو عاقبة الظلم وشؤمه المحتوم، فيكون الحاكم الذي ظلم المساجد وأهلها مخذولاً في حكمه، والمحتل مخذولاً في احتلاله، وأما عذاب الآخرة فيكفينا وصف الله بأنه عظيم، عظيم الهول، عظيم الإيلام، عظيم الحسرة".

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (115)﴾.

نزلت الآية في قصة تحويل القبلة، حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمسلمين باستقبال بيت المقدس في صلاتهم، واستمروا على ذلك نحو ستة عشر شهراً، ففرحت اليهود؛ لأنهم يعتبرونها قبلتهم، وقالوا: ما اهتدى إلا بِنا، ثم نسخ الله هذا وأمرهم باستقبال المسجد الحرام (الكعبة المشرفة)، عندها ارتاب اليهود وتضايقوا، وبدأوا بالتشكيك ولإثارة الشبهات -وهم المتخصصون في ذلك-، وقالوا: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ فنزلت الآية.

وقيل: نزلت في بعض المسلمين، كانوا في سفر ولم يعلموا اتجاه القبلة، وَصَلّى كل منهم في اتجاه، فأنزل الله تعالى الآية يقول لهم: إن صلاتكم صحيحة، ففي أي اتجاه صليتم فإنكم في الحقيقة تتوجهون إليَّ، فإني أنا مالك الشرق والغرب وكل الاتجاهات؟

وقيل أنها نزلت في صلاة السفر، أو في صلاة التطوع، فقد أخرج البخاري ومسلم: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، وفيه نزلت، يعني: إذا أراد أحد منكم أن يتطوع في الصلاة فإن بإمكانه التوجه إلى أي جهة أراد.

والمعنى يشمل كل هذه الأسباب وغيرها، فيجب على المسلم أن يتحرى الصلاة إلى القبلة، فإذا صلى إلى غيرها مخطئًا أو ظانًا أنه على القبلة، أو يكون معذورًا كمرض ونحو ذلك، فليس عليه حرج، فإن الاتجاهات كلها مُلك لله، يتصرّف فيها كما يشاء.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ والوجه هنا إما على المعنى الظاهر، أو المراد به الجِهَة، "وقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى قِبَل وجه المصلي؛ والمصلُّون حسب مكانهم يتجهون؛ فأهل اليمن يتجهون إلى الشمال؛ وأهل الشام إلى الجنوب؛ وأهل المشرق إلى المغرب؛ وأهل المغرب إلى الشرق؛ لكن الاتجاه الذي يجمعهم الكعبة؛ وكل يتجه إلى وجه الله"[1].

فلا يحزنكم أنكم مُنعتم من الصلاة في المسجد الحرام، وأُجبرتم على الهجرة، فإن أرض الله التي تطلع عليها الشمس وتغرب كلها لكم مسجداً تُصلون فيها، وكذلك أي مَسجدٍ تُمنعون منه على مرّ التاريخ، فاليهود تمنع المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى؛ إلا القليل منهم.

وأيضًا: لا يحزنكم ما أشاعه اليهود بعد تحويل القبلة من أن صلاتكم إلى بيت المقدس غير صحيحة، فإن كل الاتجاهات لله، فهم دائما ينشرون الشبهات والكذب.

﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)﴾ واسع لكل المخلوقات بعلمه وبرحمته وبمغفرته وبتصرُّفهِ وبحكمته، فلا يقتصر ملكه على المشرق والمغرب أو السماوات والأرض فقط، بل كل المخلوقات تحت مُلكه وتصرّفه، فرحمته وسعت كل شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء شهيد، وبكل شيء بصير، وأحصى كل شيء عدداً.

۞ ۞ ۞

عودا على بدء.. وادعاءات أهل الكتاب (116- 118).

هؤلاء الذين يمنعون الناس من مساجد الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركين، فاليهود ادعوا أن عزيرًا ابن الله، وادعى النصارى أن عيسى ابن الله، أما مشركوا مكة فتشبّهوا بهم ادَّعَوا أن الملائكة بنات الله، قال تعالى حكاية

(1) أخرجه الترمذي بلفظ: (**فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت**) انظر صحيح الترغيب رقم 552، بتصرف من تفسير ابن عثيمين رحمه الله.

عنهم: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57)﴾ (سورة النحل)، وهذا يدل على أن الذي يجعل لله الولد هو الذي يُحارب مساجد الله ويمنع من يُوحّده فيها؛ لأن التوحيد يُناقض ما هم عليه من شرك، وادعاء الولد له، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقولهم: ﴿اتَّخَذَ﴾ أي أن الله تعالى احتاج إلى أن يكون له ولد، ورغب فيه، أو اشتهى أن يكون له، وحاشاه، فالذي يتخذ وزيراً مثلاً لا يتخذه إلا لحاجته لمن يساعده ويؤازره.

وهنا يُكَذّبهم الله تعالى في هذا القول، ويقول: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن قولهم، بل هو الله تعالى واحدٌ في ذاته، أحدٌ في صفاته، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة، ولم يولد فيكون مسبوقًا، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، فالله تعالى له مُلْكُ السماوات والأرض، وهو المتصرف بها وبمن فيها، والجميع عبيد له ومُفتقرون إليه، وهو جل جلاله ليس له نظير، ولا مثيل، ولا صاحبة، فكيف يكون له ولد!

هذا السيد العظيم، هو الخالق، وكل ما دونه مخلوق، لهذا قال بعدها: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي طائعون، فكل المخلوقات التي في السماوات والأرض طائعة لله، وتعبُدُهُ وتسبحه وتعظمه، حتى الجمادات قانتة وخاشعة لله، تعبُدُهُ وتُوَحّده، لقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (سورة الإسراء:44).

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ بما فيهم من جعلوهم له أبناء، فعيسى وعُزير والملائكة كلهم له قانتون خاضعون طائعون، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (سورة النساء: 172).

ثم يقول تعالى مؤكّدًا: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليس مالكها فقط، بل خلقها وأبدعها وابتكرها دون مُساعد، من غير مثال سابق، وهي وكل ما فيها خاضعة له.

ثم يؤكد ربنا تبارك وتعالى ذلك ويقول: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)﴾ وهذا من كمال قُدرته وعظيم سُلطانه، فبكلمة (كُن) يحصل ما يُريد كما يُريد: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)﴾ (سورة النحل)، مُنَزَّه

عن كل نقيصة، له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يتحكم ويتصرّف فيهما كيفما يشاء، فلا رادّ لأمره ولا لقضائه، وهو غير مُحتاج إلى ولد أو صاحبة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

سبق أن ذكرنا أن (الذين لا يعلمون) هم مشركي مكة؛ لأنهم ليس لهم كتاب يُرشدهم إلى الهُدى، أو هم اليهود لما ورد في سبب النزول أنهم قالوا له ﷺ: "يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فَلْيُكَلمْنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله الآية.

وقد ذكرت كُتب السيرة أن رافع بن حرملة وهو من أحبار اليهود ورؤسائهم الذين عاصروا النبيّ ﷺ. وكان شريرًا يحسد النبيّ ﷺ على نبوتّه. فادّعى كذبًا بأنه أسلم، وكان يحضر مع المنافقين في المسجد، فيسخرون من المسلمين ويستهزئون بهم، ولمّا هَلَكَ قال النبيّ ﷺ: «**قد ماتَ اليوم عظيم من عظماء المنافقين**».

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال هؤلاء الجهلة للرسول ﷺ: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ فيُخبرنا بأنه أرسلك، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ وهذا جحود كبير منهم، فقد جاءهم أنبياءهم بآيات عظيمة تَدُل على نبوتهم، فموسى جاء بتسع آيات، وكذلك عيسى ومحمد، لكن كِبرهم وكُفرهم دَفَعَهُم إلى رفض هذه الآيات. بل إن بعضهم طلبوا آيات على مزاجهم هم، كما طلب أصحاب صالح ناقة تخرج من الصخر، وكما طلب اليهود من موسى ﷺ في قصة البقرة وفي التيه من طعام وشراب، وكذلك النصارى طلبوا المائدة.

أما محمد ﷺ فقد قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (91) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (92) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ...﴾ (الإسراء). وكذلك يوم الإسراء والمعراج طلبوا وصف بيت المقدس بأدق تفاصيله، قال ﷺ: «**لما كَذَّبَني قريش قُمتُ في الحجر فَجَلّى اللهُ لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**» (متفق عليه).

وهذه قاعدة، فإذا جاءت الآيات كما أراد من طلبوها، ولم يؤمنوا فإن العذاب يأتي بعدها مُباشرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا

الصفا ذهباً فنتبعك، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يُقرئك السلام ويقول لك: إن شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كَفَرَ منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، فقال ﷺ: «**بل باب التوبة والرحمة**»[1].

قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ أي أن هذا القول قاله الذين من قبلهم من بني إسرائيل لأنبيائهم، وقد مرّ سابقاً طلبهم من نبيّهم موسى ﷺ أن يُسمعهم صوت الله أو يُكلمهم، أو يروه جهرة.

لكن؛ لماذا قالوا كما قال الذين من قبلهم؟

الله تعالى يُجيب ويقول: ﴿**تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ وإذا تشابهت القلوب في ما تحتويه؛ فإن أعمال الجوارح تتشابه أيضاً، فلو أثار اليهود أو النصارى أو الملحدين شبهة مثل شبهة رضاع الكبير أو تعدد زوجات النبي ﷺ أو غيرها، لوجدتَ مرضى القلوب يجترون كلامهم، وهذا يدل على تشابه قلوبهم، فيجب على المسلمين يَعلَمُوا وَيَتَعَلَّمُوا هذه الشبهات والردّ عليها، حتى لا ينخدعوا بها، وقد قام بعض العلماء والمهتمين بتأليف مؤلفات في الرد على هذه الشبهات، سواء كانت حول القرآن، أو الرسول ﷺ، أو السنة النبوية، أو التاريخ الإسلامي المُشرِق[2].

ومن أمثلة تشابه قلوبهم وجوارحهم، وألسنتهم، وصف كفار قريش الرسول ﷺ بالسحر والجنون، وقد قال تعالى عن السابقين: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** (52)﴾ (سورة الذاريات) .

ومن أمثلتها في هذه الأيام، أن اليهود (ما تُسمي نفسها إسرائيل) والنصارى (أمريكا وغيرها) إذا ما اتهموا أحداً بالإرهاب أو معاداة السامية أو غير ذلك، فإن بعض المنتسبين للإسلام يُشمروا عن سواعد الجد، وتعمل أفواههم وفضائياتهم وأموالهم للشتم والقذف والتشهير والتحريض، حتى وإن كان هذا الأمر يُخالف عقيدتهم الإسلامية التي يزعمون

---

(1) قال المنذري رحمه الله: رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب 3142.

(2) مثل كتاب "العواصم من القواصم"، و"رد شبهات حول عصمة النبي" للدكتورعماد الشربيني، و"شبهات المشككين" لمجموعة من المؤلفين، و"شبهات حول القرآن" للدكتور محمد عمارة، و"شبهات حول الإسلام" لمحمد قطب وغيرها.

أنهم يتخذونها عقيدة. وإذا ما أرادوا أمراً تنبري هذه الفضائيات في تزيينه للناس، حتى أن بعضهم دافع عن اليهود في قتلهم الفلسطينيين، واحتلال أرضهم.

ثم يقول تعالى: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ**﴾ وهذا ردّ منه جل جلاله على قولهم: (أو تأتينا آية)، أي: أنتم تطلبون آيات على صدق محمد؟ فقد أعطيناه آيات كثيرة بينة واضحة، كما أعطينا الأنبياء السابقين آيات كثيرة، وقد بيّناها وفصّلناها وأوضحناها ﴿**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** (118)﴾ فهذه الآيات طريق هداية وصلاح، لا ينتفع بها إلا من يبحثون عن الحقيقة بحق وبصدق، أما من أُشربت قلوبهم بالكفر والعناد والتحدي فإنهم لا يستفيدون ولا ينتفعون من هذه الآيات؛ لأن قلوبهم مُقفَلة لا تقبل الحق.

۞ ۞ ۞

تعليمات أخرى للنبي ﷺ وللمسلمين (119-123)

﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ** (119)﴾.

أنكر اليهود والنصارى والمشركين الآيات التي أنزلها الله على الأنبياء، وهنا يُبيّن الله تعالى أهم آية، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**﴾ أي أن مُجَرّد اختيارنا لك للرسالة وأنت المشهود له بالصدق والأمانة والصفات والأخلاق الحسنة، من أكبر الآيات على صدقك.

﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ وهذه آية أخرى عظيمة، هي أننا أرسلناكَ بما هو حق لتُقيم الحق بين الناس، وتقضي على الظلم، حيث كان الظلم منتشراً بكثرة، بل إن تلك الحقبة من الزمن أُطلق عليها (زمن الجاهلية) لفرط الظلم الذي كان موجوداً، وعلى جميع الأصعدة، فجاء هذا الرسول برسالة تُخرجكم من ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام.

﴿**بِالْحَقِّ**﴾ فإنَّ إرسالنا لك حق، أرسلناك بالعقيدة الحق، والأخلاق الحق، والعبادات الحق، والحق يُثبِت نفسه، ويُقنع كل من عنده قلب يدرك، يروى أن أكثم بن صيفي حكيم العرب عندما سمع قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ قال: "هذا إن لم يكن دينًا كان في أخلاق الناس أمرًا حسنًا، كونوا يا بَني في هذا الأمر أولاً، ولا تكونوا آخرًا، فالحق نور يدعو إلى اتّباعه".

وهذا الحق والعدل يكون بالبشارة والإنذار، لهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾، فالدعوة إلى الله تعالى -وظيفة الأنبياء-؛ إنما هي ترغيب وترهيب، يعني تبشير الناس بالثواب إذا أطاعوا وعملوا الصالحات، وإنذارهم من الأعمال التي لا تُرضي الله، وليس عليك إجبار الناس وإرغامهم على اعتناق الدين بالقوة. لذلك فإنك يا محمد لن تكون مسؤولاً أمام الله عن الذين لم يُسلموا: ﴿**وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)**﴾، فالذين لم يَقبلوا دعوتك ولم يؤمنوا بها، وماتوا على ذلك هم أصحاب النار، وفي هذه تسلية لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر، فالله يقول: (لا نسألك: لم يؤمنوا بعد أن بَلَّغتَهم دعوتهم).

وفي هذا رسالة للدعاة في كل زمان ومكان تقول لهم: إن عملكم هو ترغيب الناس في الدين، وتبشير الطائعين، وترهيب العاصين من عقاب الربّ جل جلاله من خلال كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ، وكذلك الأخلاق الحسنة التي أمر الله بها.

وقرأ الإمام نافع رحمه الله: (**لا تَسْأَلْ**)، يعني: لا تُقلِق نفسَك كثيراً فتسأل عنهم وتغتمّ، إنما عليك أن تُبشّرهم بالخير، وتنذرهم من الشر، سواء أسلموا أم لم لا.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾. والخطاب للنبي ﷺ، ولكل مسلم، فهؤلاء الذين جعلوا لله ولداً، ومنعوا مساجد الله أن يُعبد وَيُوَحَّد فيها، ويسألون المعجزات عناداً واستكباراً، فلو آتيتهم (بكل آية ما تبعوا قبلتك)، لذا فإنهم لن يرضوا عنك: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى**﴾، والحرف (لن) لنفي التأبيد في المستقبل، فلا يمكن أن يرضوا عنك أو يقبلوك كشريك أو كصديق، لن يقبلوا أن تكون معهم تحت مظلة واحدة في أي مجال كان ﴿**حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾.

ولاحظوا قوله تعالى: ﴿**مِلَّتَهُمْ**﴾، ولم يقل: (دينهم) فليس الهدف أن تتبع دينهم، بل أن تَذِل لقوانينهم، وأن تكون عبداً لعلمانيتهم الظالمة، ورأسماليتهم الجائرة، وشيوعيتهم الحائرة، وتسير وراء أنظمتهم الوضعية، حتى وإن بقيت على دينك، فليس المهم على أي دين تكون، المهم أن تتبع ملتهم، فتُلغي من دينك كل ما يُخالف قوانينهم وأنظمتهم، كتحريم الربا، والعدل، ونصرة المظلوم، ونشر الفضيلة والعفاف، ويُريدون

تحليل جمع المال بأي طريقة كانت، كالربا والاحتكار والخمور والمخدرات والإباحية وغيرها، فالمهم جمع المال، من حلال كان أم من حرام.

وحتى لا ينخدع المسلمون بهم وبقوانينهم الوضعية؛ فقد جاء القانون الرباني الذي يقول: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى**﴾ فالهدي الرباني هو الحق والعدل، الذي أتمه الله وأكمله، وارتضاه للناس، وأمر به.. وهذا يعني أن لا يقبل المسلم الأنظمة والقوانين التي تعارض الهدي الرباني، وليقل لهم: أن أنظمتكم هذه تنشر الظلم والجور والفقر، وترفع طبقة صغيرة جداً من الناس إلى أعلى الهرم، وتخفض بقية الناس إلى درجة العبودية، ويجب أن يسعى لنشر الهدي الرباني في كل الدنيا، قولاً وعملاً فهُدى الله هو الهدى.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (120)﴾، فدينهم الذي يتبعونه، وقوانينهم التي يَتّخذونها، كلها مبنية على أساس هوى أحبارهم ورُهبانهم، ورؤوس الأموال وأصحاب القرار عندهم، ويرفضون كل ما يُخالف أهوائهم، قال تعالى عنهم: ﴿**كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ** (70)﴾ (سورة المائدة). ومثال ذلك قصة عبادتهم للعجل، فقد اعترف السامري أن أمره هذا إنما كان بهوى نفسه، لا لمصلحة بني إسرائيل، فقال بنفسه: ﴿**وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**(96)﴾ (سورة طه)، فالهدف ليس مصلحة الشعب.

قال تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ فيه رسالة للمسلمين بعد الرسول ﷺ، فالله تعالى يعلم أن الرسول ﷺ لا يمكن بأي حال أن يتبع أهواء هؤلاء. لكن جاء هذا الأمر والتحذير للرسول ﷺ والخطاب للمسلمين من بعده أن لا يتبعوا أهواءهم، وخاصة ﴿**بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ وهو الإسلام، فهو دين وحي لا دين أهواء، فلا تلتفت أيها المسلم لقولهم بعد أن أريناك الصراط المستقيم، وعَلّمناك الحق، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** (18)﴾ (سورة الجاثية).

ثم يقول تعالى: ﴿**مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ هذا جواب الشرط، فإن اتبعت أهواء هؤلاء فلن ينصرك أحد أو يُجيرك من الله لأنك خالفت أمره واتبعت عدوه، وفي

المقابل إذا اتبعتَ طريق الحق، والهدي الرباني فإن الله تعالى هو وليك ونصيرك الذي يتولى أمرك وينصرك في الدنيا والآخرة، وإذا لم ينصرك الله ويتولاك بمعونته، فمن ذا الذي يتولاك وينصرك؟

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (121)﴾. والخطاب أيضًا للرسول ﷺ، فقد أخبره الله تعالى أن اليهود والنصارى لن يؤمنوا له ولن يرضوا عنه أبداً، ولكي لا ييأس ويظن أن كل أهل الكتاب كذلك، قال له: إن منهم أناس يتبعون الكتاب الذي أنزلناه إليهم بصدق، واتبَعوا أوامره، وانتهوا عما نهى، وانتهجوا نهجه، فهؤلاء مؤمنين حقاً.

وقد يكون معنى "الكتاب" هنا: القرآن، أي: لا تكترث يا محمد بأهل الكتاب إن لم يؤمنوا بك، فسواء رضوا عنك أم لم يرضوا عنك لن يضرك هذا بشيء، فإن الله عَوّضَكَ بأُناس آخرين وصحابة صادقين يؤمنون بالكتاب الذي أنزلناه إليك، فأحَلُّوا حلاله، وحَرَّمُوا حَرامه، وآمنوا بمتشابهه، وعملوا بمحكمه، فهؤلاء أهل الإيمان حقاً.

☜ وقد يكون استثناء من أهل الكتاب، أي أن هناك فريق منهم صالحين، قلوبهم تقبل الحق وتؤمن به، وتُصّدق كتابهم، ويتلونه حق تلاوته، وهذا يتطلب الإيمان بما أُنزل إليك، فهؤلاء يُرجى إيمانهم، فيجب أن تدعوهم إلى الله فإنك ستجد منهم قبولاً ورغبة في اتباع الحق، لهذا اجتهد الرسول ﷺ في دعوته لأهل الكتاب وغيرهم أيما اجتهاد، فأرسل الرَّسائل الشفوية والرسائل المكتوبة، كما استخدم الدعوة باللسان والحوار والحُجّة، وقام بالجولات والزيارات الجماعية والفردية، ولم يَدَع طريقة مُتاحة له إلا استخدمها في الدعوة إلى دين الله، وهذا يدفع المسلمين لأن يبذلوا في الدعوة إلى الله كل جُهد، أن لا يتركوا طريقة مُتاحة إلا ويستخدموها في الدعوة.

ثم قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** (121)﴾ ومن لم يقبل الحق الذي أنزله الله على محمد ﷺ ولم يؤمن به وبكتابه، فقد خسر، ورسب في الامتحان، وهذا الخسران يكون في الدنيا وفي الآخرة، ولا يوجد أكبر من هذا الخُسران.

قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** (122)﴾. هذه الآية ذات الآية 47، والتكرار لتذكير بني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ بالنعم العظيمة التي أنعمها الله تعالى على أسلافهم من قبل، كنصرهم على عدوهم وإهلاكه أمامهم، وغيرها، لعلها تكون سببًا لهدايتهم، وتوبتهم.

قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ** (123)﴾، وهي أيضاً نفس الآية 48، حيث يُحذّرهم ربهم جل جلاله من أن يُلاقوه يوم القيامة وهم على ما هم عليه من الكفر والعناد، ففي ذلك اليوم لا يجزي أحد عن أحدٍ شيئاً، ولا يُقبل العدل أو الفداء، ولا تنفع الشفاعة، وهذا الخطاب لنا أيضاً، ولكل أُمَّة على وجه الأرض، لهذا كان النبي ﷺ يُحذّر أقرب المقربين إليه من ذلك اليوم، ويقول لهم: «**أنقذوا أنفسكم من النار**» (رواه مسلم).

لكن يُلاحظ هنا أن هذه الآية قَدَّمَت (العَدل) يعني الفدية على (الشفاعة)، أما في الآية 48 فقد قدمت (الشفاعة) على (العَدل)، وفي هذا إخبار لهم بأنكم لن تنفعكم أموالكم لتفتدوا بها هناك، ولا جاهكم وسلطانكم ينفعكم هناك، سواء كنت تملك هذا في الدنيا أو ذاك، فلن ينفعكم أبدًا.

ونلاحظ أيضاً أنه في آية 48 قوله: ﴿**وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾، وفي الآية 123: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾، وقوله في الشفاعة في الآية 48: ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾، وفي الآية 123: ﴿**وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾، فالمقصود هنا: سواء شفع بنفسه يعني بسلطته أو جاهه، أو شفع له غيره فلا (تقبل منه)، أو دفع الفدية هو بنفسه أو دفعها عنه غيره (فلا تنفعه).

۞ ۞ ۞

جوائز إبراهيم عليه السلام (124-126)

تنتقل الآيات الآن إلى الحديث عن إبراهيم ﷺ، وهو النبي الذي يعتبره اليهود أباهم، حيث ينتسبون إليه، ويعتبرونه أعظم الأنبياء، وقَصّ الله تعالى من قصص إبراهيم ﷺ الصحيحة الكثير، مثل قصته مع أبيه، ومع زوجاته وأولاده، وبنائه الكعبة... بينما ذكرت التوراة المحرفة قصص عنه ﷺ، منها ما هو قريب مما ذكره القرآن ومنها مُخالف.

وهذه قصة من قصص إبراهيم ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾، فاللهُ تعالى اختبر نبيَّه إبراهيم ﷺ بكلمات، فاختبره في عقيدته فنجح بامتياز، فقال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)** ﴾ (سورة الأنعام). واختبره بِكُفر أبيه، فنجحَ، واختبره بمحاجة قومه فنجح، واختبره بالنار، فصبر وثبت ونجح، واختبره وابتلاه بالملك النمرود الظالم الكافر فنجح في الحوار معه، وجعله يبهت فلا يجد كلامًا يَرُدّ به ولا حُجّة يحتجّ بها.. واختبره وابتلاه بأن جعل زوجته عاقراً فصبر ونجح، وبترك زوجته هاجر وابنها في واد غير ذي زرع، فنجح، وابتلاه بأن أمره بذبح ابنه... وغيرها، وفي كل الابتلاءات والاختبارات خرج بنجاح تام، فلم يعمل إلا ما يُرضي ربه، وقد وصفه ربه فقال: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ**﴾ (سورة النحل).

ابتلاه في كل حياته بابتلاءات ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ أي: نجح في كل الاختبارات أتم النجاح وأكمله وأوفاه، والتمام أكمل من النجاح، فالذي يحصل على مجموع 50 ٪ يُعتبر ناجحًا، لكن العلامة التامة لا تقل عن 100٪، فجاء لفظ (التمام) ليدل على أعلى درجات النجاح، وفي سورة النجم: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)**﴾ أي: قام بكل ما أمره الله به من الشرائع وأصول الدين وفروعه خير قيام وأكمله وأتمه، وَوَفَّاهُ بأعلى درجات النجاح.

① وبعد أن نجح إبراهيم ﷺ؛ أراد الله أن يُكرمه بجوائز لإتمامه هذه الاختبارات بنجاح، فـ ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ يعني قُدوة يقتدي بها الأجيال القادمة، وهذه هي **الجائزة الأولى**، وهي استجابته لدعائه: ﴿**وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾.

﴿**لِلنَّاسِ**﴾ يعني كل الناس سيقتدون بك إلى يوم القيامة، حتى أن الله أمر نبيه محمد ﷺ أن يقتدي به، فقال: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا... (123)**﴾ (سورة النحل)، وأمره بتحدي أهل الكتاب؛ لأنهم يَدَّعون أنهم يقتدون به: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)**﴾ (سورة البقرة). بل أمر الله جل وعلا كل المسلمين أن يقتدوا به، فقال تعالى: ﴿**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا... (95)**﴾ (سورة آل عمران)، وقد رغبنا فقال: ﴿**مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا... (125)**﴾ (سورة النساء)، وحذّرنا من عدم الاقتداء

به، فقال: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...** (130)﴾، فكان ﷺ قُدوةً تقتدي به الأمم كلها.

فَرِحَ إبراهيم ﷺ بهذه الجائزة، فأراد أن تَعِم هذه الفرحة ذريته، فتسائل: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾؟ هل هناك من ذريتي من سينال هذا الفضل العظيم؟ أريد يا رب أن يكون من ذريتي من ينال هذا الفضل وهذه الجائزة، فيكونوا أئمة في الدين، يقتدي بهم الناس.

فأجابه ربه: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ لا يمكن أن ينال الظالمون الإمامة أو القدوة، فهم ليسوا أهلاً ليكونوا قدوة في حماية الدين ولا حماية الأوطان، ولا حماية العدل؛ لأن الظلم أبرز صفة فيه، فكيف يكون إماماً وقد ظلم نفسه بكفره، وظلم عباد الله أيضًا؟ فكل ظالم من ذُرّيتك لا يناله عهذا الشرف، أما من آمنوا فينالهم.

ملاحظة: قرأ الإمام أبو حنيفة رحمه الله -وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنه-: (إبراهيمُ ربَّهُ) أي: دعاه بدعاء لينظر هل يجيبه أم لا؟ منها قوله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً**﴾، ﴿**وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾، ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾، ﴿**رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾ وغيرها، وعلى هذه القراءة يكون معنى: ﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ أي: فأعطاهُ اللهُ ما طَلَبَهُ لم ينقص منه شيئًا.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ...** (125)﴾

② **الجائزة الثانية لإبراهيم** ﷺ تكريمه بأن جعل الكعبة المشرفة التي بناها إبراهيم مثابة للناس: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ**﴾ يرجع إليها كل الناس، يَؤُمُّونَها من كل بقاع الأرض المعمورة، وفي كل وقت من أوقات السنة، ومن لم يذهب إليها ببدنه يذهب بقلبه، ويَتوجهون في صلاتهم إليها كل يوم، فاستقبالها من شروط صحة صلاتنا.

وقد جعل الله تعالى حُب هذا البيت محبولاً في الناس، فلا يأتيه من أتاه رغبة في مناظر خلابة من الأشجار والأنهار والبحار.. بل يأتيه حُباً وشوقاً إليه كبيت لله..

➤ ويُحتمل أن يكون معنى: ﴿**مَثَابَةً**﴾ من الثواب، يعني مكاناً يحصلون فيه على الأجر العظيم والثواب الجزيل، ويحصلون فيه على مضاعفة الأجور والثواب، ففيه الحسنة أعظم بمائة ألف مما سواه من المساجد، وهذه أيضًا جائزة إضافية.

③ والجائزة الثالثة ﴿**وَأَمْناً**﴾، فهذا البيت يجب أن يكون آمنًا، فَيُؤَمّن كل من دخله تائبًا، أو طائفًا عاكفًا راكعًا، على نفسه وماله، لهذا لا تُلتقط لقطته، كما ويجب أن يَأمَن هو بذاته، حتى أشجاره وحشيشه لا تقطع ولا تمس بأذى، كما في الصحيحين.

وكذلك (أَمْنًا) من فتنة المسيح الدجال أعظم فتنة في الدنيا، فلا يستطيع أن يدخلها كما أخبر بذلك الرسولﷺ بقوله: «**ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدجال؛ إلا مكة والمدينة، ليس نقبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها**» (متفق عليه).

④ والجائزة الرابعة لإبراهيم عليه السلام: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ حيث يُتخَذ مَقامَه مُصلى إلى يوم القيامة، يُوحّد فيه رب العزة، ويُعبد حق عبادته، فمن وضع جبهته مكان قدميّ إبراهيم وقال: سبحان ربي الأعلى؛ فإن الله يرفع ذكره ويرفع درجاته.

⑤ والجائزة الخامسة هي قوله تعالى: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)**﴾، أي أن الله تعالى أكرم إبراهيم وابنه إسماعيل[1] بعمل من أشرف الأعمال، وهو تطهير البيت الحرام وتأهيله لاستقبال زواره من الطائفين والعاكفين والمصلين، وإكرامهم واحترامهم.

ملاحظة: "بدأ هنا بـ ﴿**الطّائِفِينَ**﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد، فلا طواف إلا في الكعبة، ثم ﴿**العَاكِفِينَ**﴾؛ لأن عبادتهم خاصة بالمساجد؛ لكنها أعم من الطائفين، ثم ﴿**الرُّكَّع السُّجُود**﴾؛ لأن ذلك يصح بكل مكان بالأرض؛ فيكون الله سبحانه بدأ بالأخص فالأخص.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾، هذا دعاء دعا به إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى الكعبة، وصارت مكة بلداً يسكنه الناس، "فدعا الله أن يجعل هذا البلد في أمن وطمأنينة، فلا يتسلط عليه الجبارون، ولا يعكر صفوه الظَّلمة، وأن يحميه من الخسف والزلزال والغرق والهدم ونحو ذلك من مظاهر سخط الله على بلاد أخرى".

(1) قال ابن الجوزي في زاد المسير ج 1 ص 110: "إسماعيل: اسم أعجمي، وفيه لغتان: إسماعيل، و: إسماعين.

ثم دعا ﷺ أيضاً: ﴿**وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، فجعل الله فيه من خيرات الأرض وبركاتها، فرغم أنه: ﴿**بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**﴾، إلا أن الله أكرمه بماء دافق إلى يوم القيامة، وطعام وثمار تُجبى إليه من كل أنحاء الدنيا، وكما قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ... (57)**﴾ (سورة القصص).

وهنا خَصّ بالرزق المؤمنين من الناس، وذلك لأنه في دعائه السابق أخبره الله أن الظالمين لا ينالهم عهد الله، فخصّ المؤمنين، فأجابه الله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ**﴾ أي: ومن كفر فإني سأرزقه أيضاً، فإن رزقي ينال كل الناس، المؤمن منهم والكافر.

وقيل أن قول: (ومن كَفَر) هو من قول إبراهيم ﷺ، ومعناه: ارزق يا ربنا المؤمنين بالله واليوم الآخر، وارزق أيضاً الكافرين، لكن سياق الآية يدل على أنه من جواب رب العالمين له، حيث يقول: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا**﴾ أي: سأرزق من كفر ومن آمن، لكن بالنسبة للكافر فإن هذا مجرد متاع يتمتع به، لكنه متاع قليل، مهما رآه كبيرًا.

وسواء كان الكافر أو الظالم فرداً أو حزب أو دولة فإن متاعهم في هذه الدنيا قليل، وإن عذابهم جزاء ظلمهم واقع، قال تعالى: ﴿**وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48)**﴾ (سورة هود) ، لهذا كان ختام الآية: ﴿**ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ**﴾ أي يوم القيامة، وانظر إلى الحرف (ثم) الذي يُفيد الإمهال، فمهما طال عمر الظالم، ومهما طال أمد أمة الظلم فإن نهايتها واقعة مُحققة، وأن الله سيَرُدُّهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

وانظر أيضاً إلى اللفظ ﴿**أَضْطَرُّهُ**﴾ يعني: أُجبره غصبًا، وأسوقُهُ سوقًا، ﴿**وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)**﴾ الذي سيصير إليه الظلمة، وبئس هذا المآل الذي سيؤولون إليه، ففيه العذاب الأليم والخزي الشديد.

۞ ۞ ۞

وما زلنا مع الخليل إبراهيم ﷺ (127- 129)

استجاب الله تعالى لدعاء إبراهيم، فجعل له لسان صدق في الآخرين، وجعله للناس إماماً في التوحيد والأخلاق، ومنحه خمس جوائز، بعد أن ابتلاه فنجح وأحسن العمل، وهنا يضرب لنا مثالاً عملياً على طاعة وصدق إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام،

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾ أي أنهما قاما بتنفيذ أمر الله لهما ببناء الكعبة، وأخذا بالعمل فوراً دون توانٍ أو تأخير أو تلكؤ. و(القواعد) جمع قاعدة، وهي ما يقعدُ عليه البناء من الأساس، ورفعها:رفع البناء عليها، أو رفعها نفسها.

يعني ذَكِّر يا محمد كل الناس - اليهود والعرب والمسلمين- بيوم أن أمر الله إبراهيم ﷺ أن يرفع قواعد البيت الحرام ويبنيه، فبناه وأتَمَّهُ، وقد ساعده ابنه إسماعيل في هذه المهمة، ليكون أول بيتٍ يُوَحَّد فيه رب العزة، ويُعبد فيه حق العبادة، كما ثبت في سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96)**﴾، وفي وقد سُئل رسول الله ﷺ: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قيل: ثم أي؟ قال: «**ثم المسجد الأقصى**» قيل: كم بينهما؟ قال: «**أربعون عامًا**» (متفق عليه).

وجاء الفعل ﴿**يَرْفَعُ**﴾ بالمضارع ليستحضر قارئ الآيات عملية البناء وكأنها أمامه، ويشاهد إبراهيم ﷺ وكأنه ما زال يرفع حتى الآن، وحتى يتذكر المتذكرون أن هذا البيت عُمّر بالأمس، وسيظل معموراً، وأن أعمال إبراهيم ستظل شاهدة إلى يوم القيامة، قال ﷺ: «**قِفُوا على مشاعركم، فإنكم على إرثٍ من إرثِ أبيكم إبراهيم** ﷺ» (أخرجه الأربعة).

والدليل على صدقهما أنهما قاما بالعمل على أتم وأكمل وجه وهما يقولان في تذلل وخشوع وخضوع لربهم: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ فأنت تسمع دعاءنا وتعلم صدقنا، فاقبل منا، وفي هذا أمر للمسلمين أو دعوة لهم بأن يدعوا الله تعالى أن يتقبل منهم قبل وأثناء وبعد كل عمل يعملونه، وقد كان هذا دأب الأنبياء والصالحين.

وقولهم أيضاً: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ يا رب اجعلنا نستسلم لأوامرك دائماً، ونتقبل قضاءكَ وقدرك بكل رضًا وطمأنينة في كل حياتنا وفي كل أحوالنا، والإيمان والرضا بالقضاء والقدر هو التطبيق العملي لمعنى الاستسلام لله تعالى.

ثم قال: ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾ دعاء للأمة كلها، دعاء للأولاد وأولادهم إلى يوم القيامة.. أي رحمة هذه؟ إنها عظمة الأنبياء، والآباء الذين يُحبون لأبنائهم أن يكونوا طائعين لله، بعيدين عن كل ما يُغضبه، وانظروا إلى دعوة أخرى لهذا الأب الحنون ﷺ: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35)**﴾ (سورة إبراهيم).. فكم من الآباء اليوم يرفعون

أكُفّهم ويقولون بإخلاص وبرحمة وحُبّ: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ**﴾، ويقصد بهم كل أبناءه وذرياتهم إلى يوم القيامة، فانظروا إلا ما في قلوب هذين النبيين العظيمين من الإخلاص لله والنصح لدينه، فكان أمر العقيدة هو شغلهما الشاغل، فلم تشغلهما مشقة البناء عن الدعاء، فينبغي للمسلم ألا يشغله أي شاغل عن العمل لعقيدته ودينه في كل ميدان وبكل قوة.

﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾ أي: يا رب دُلّنا على طُرق العبادة الصحيحة التي تُرضيك، فنحن لا نريد أن نعبدك كما نريد نحن، بل أرنا أنت الطريق الصحيح للعبادة كما تُحب وكما ترضى، وهذه دعوة لنا لأن نَتّبِع العبادة الصحيحة التي أمر الله بها ونسير عليها، ولا ننحرف إلى العبادات البدعية والشركية التي لا تُرضي الله.

﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)**﴾ وهذا دعاء كي يتوب الله عليهما، ودعوة لنا إلى التوبة الدائمة، فالتوبة الصادقة يقبلها التواب الرحيم، القائل: ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39)**﴾ (سورة المائدة).

﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾ يعني محمد ﷺ، وهذه دعوة للأبناء وأبنائهم ولكل الذرية أن يستقيموا على الهداية والصلاح والاستمرار على عبادة الله حق عبادته، فببعثة النبي تلو النبي تستمر الذرية على العبادة والخير والصلاح، إلى آخر الأنبياء محمد ﷺ الذي بهديه تصلح المجتمعات، وترتقي الأمم، ويعم الخير، وتنتشر وتزدهر الحضارة.

وقد بعث من ذريتهما محمد ﷺ، به أُجيبت دعوتُهما، وهذا الدعاء من أبر الأدعية وأعظمها نفعاً وبركة وفائدة: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾، وهذا الدعاء فيه ميزة جليلة لهم، حيث طلبا من الله أن يبعث في ذريتهم رسولاً منهم وليس غريبًا، أي أن يجعل ذريتهم من أهل الصلاح، ليكونوا أهلاً للنبوة، ولهذا الفضل.

ثم ذَكَرَ إبراهيم ﷺ وظائف هذه النبي، وهي أربع وظائف:

✓ الوظيفة الأولى: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾ يعني: يَقرأ عليهم آياتك، فيحفظونها في صدورهم وقلوبهم، ويكون مؤيدًا بالبراهين الدالة على وحدانيتك وقدرتك وعظمتك، وأنك المستحق وحدك للعبادة، كالآيات الكونية والآيات المكتوبة.

✓ والوظيفة الثانية: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ أي: ما في هذا الكتاب (القرآن الكريم) من أحكام وشرائع، وأوامر ونواهٍ، وعبادات، أي تطبيق عملي لما حفظوه من الآيات.

✓ الثالثة: ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ أي: ويُعلّمهم الحكمة أيضاً، فمن انقاد لأوامر الله تعالى وطبقها عملياً في حياته؛ فإن الله يُكرمه بالحكمة، سواء كان فرداً أو دولة، والله يقول: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... (282)**﴾ (سورة البقرة)..

وقيل: الحكمة هي السُّنّة، ولذلك اقترنت بالكتاب باعتبارها المصدر الثاني للتشريع.

✓ الرابعة: ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ بدعوتهم إلى الأخلاق الحسنة والفضائل، ونبذ الرذائل، ويطهرهم من الشرك والمعاصي، فالتعليم يجب أن يُرافقه التزكية والأخلاق والتربية.

ثم ختموا دعائهم بالقول: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)**﴾ فالعزيز يلجأ إليه الناس دائمًا في كل أحوالهم فلا يَمَسّهم ضيمٌ وهم في جواره، فهو الذي لا يُقهر ولا يُغلب على ما يُريد، وهو ذو القدرة والقوة والسلطان والغلبة.

و(الحكيم) الذي يضع الشيء في موضعه بإحكام، وهو الذي لا راد لأمره، ولا مُعَقّب لحكمه، فمن كانت هذه صفاته فإنه من السهل أن يستجيب لمن يدعوه.

۞ ۞ ۞

إبراهيم ﷺ الإمام والقُدوة (130- 134).

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ... (130)**﴾.

هذا هو إبراهيم، النبي الكريم، الأواه الحليم، الذي تَشَرَّف برفع قواعد أول بيتٍ وُضع لتوحيد الخالق جل جلاله على وجه الأرض، بناه وطهره.. فاستحقَّ أن يكون قُدوة لكل الناس، إبراهيم الذي وصفه رَبّه بالإخلاص والصدق والتوحيد، بل كان إمام الموحدين لما قال: ﴿**يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الأنعام).

وبهذا الفضل استحق إبراهيم ﷺ كرامة أُخرى، فإنَّ أي إنسان يترك ملته ويتجه إلى طريق أخرى غير طريقه، فقد ﴿**سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ أي: ظَلَمَ نفسَهُ بسوء تدبيره لأنه تَرَكَ الحق

واتجه إلى طُرُق الضلال والغي، والسفه هو الجهل، وهذا توبيخ وتقريع من ربنا جل جلاله، واستبعاد لمن يتنكب عن ملة إبراهيم، فليس من العقلاء هذا الذي يرغب عن ملة الحق وعن الدين الصحيح، والملة الواضحةِ الغراء.

﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ وهذه الآية جاءت في الردّ على الذين تركوا ملة التوحيد وانحرفوا عنها إلى الشرك، ردّ على الذين تركوا ملة الأخلاق الحسنة وانحرفوا إلى الانحلال، ردّ على اليهود الذين ادعوا أنهم يتبعون إبراهيم ﷺ ثم قالوا: عُزير ابن الله، وردّ على النصارى الذين يدعون أنهم يتبعون إبراهيم وقالوا: المسيح ابن الله، وكذلك المشركين الذين ادعوا أنهم على ملة إبراهيم وعبدوا اللات والعزى، فهؤلاء كُلهم خالفوا ملَّة إبراهيم، فـ ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)**﴾ (سورة آل عمران).

فكل ﴿**مَنْ يَرْغَبُ**﴾ عن اتّباع الملة الحق والصراط المستقيم، الذي جاء به محمد ﷺ، واتجهوا نحو الملل المنحرفة، وساروا على علمانيتهم أو رأسماليتهم أو شيوعيتهم، أو غيرها، فقد ﴿**سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ أي: أضلها وذهب بها إلى الهلاك بهذا القرار السَّفيه، فإبراهيم ﷺ صفي الله: ﴿**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ**﴾ بضمير العظمة ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ أي: اخترناه دون غيره لمهمات عظام، فاخترناه لمهمة النبوة، ومهمة قيادة الأمم، ومهمة بناء الكعبة، وغيرها، فجعناه نبياً من أعظم الأنبياء وأكرمهم، بل جعلناه إماماً يُقتفى أثره إلى يوم القيامة.

﴿**وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)**﴾ المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح، الساكنين لأعلى الجنان، المرضي عنهم من رب العباد.

۞ ۞ ۞

✍ و**السؤال** الذي يتبادر إلى الأذهان: ما هي ملة إبراهيم؟ **الإجابة** في الآية التالي، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)**﴾. فملته الإسلام، وهو إسلام القلب والوجه لله، والانقياد له في الظاهر والباطن، فإذا أمركَ بأمرٍ؛ قلتَ: لبيك، هذا هو الانقياد، هذا هو الإسلام، فمن أسلم قلبه لله، أصبح قلبه يتقلب في طلب رضاه، وأسلمت جوارحه فلا تتجه إلا حيث أراد الله، فإبراهيم ﷺ كان مُسلمًا موحداً.

وهذا يقتضي رفض كل ما يُعبد من دون الله، فإبراهيم ﷺ ﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾، لكن من هو رب العالمين في نظر إبراهيم؟ يقول: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ...**﴾ (سورة الشعراء)، هو الذي خلقني ورزقني وعافاني وآواني.

وقد كان الأنبياء كلهم حنفاء، والحنيف هو الذي يميل بقلبه وبجوارحه إلى ما يُريده الله ويرضاه ويأمر به،كما يقول تعالى: ﴿**حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ... (31)**﴾ (سورة الحج).

كما أنه بقيت آثار لهذه الحنيفية بعد عيسى ﷺ وقبل بعثة محمد ﷺ في بعض العرب، منهم زيد بن عمرو بن نفيل[1]، الذي مات وهو على التوحيد، فكان من أهل الجنة، كما بيّن لنا النبي ﷺ فقال: «**دخلتُ الجنةَ فرأيتُ لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين**» والحديث في صحيح الجامع الصغير.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ**﴾ (بها) يعني كلمة التوحيد، وملة العقيدة الصحيحة، ونهج الحنيفية السمحة، ففي الحديث سئل النبي ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «**الحنيفية السمحة**» وفي رواية: «**أحبُّ الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة**» وفي رواية: «**أفضل الإسلام الحنيفية السمحة**»[2].

﴿**وَيَعْقُوبُ**﴾ أي: أن هذه الوصية استمرت من الأب إلى ابنائه حتى وَصّى بها يعقوب ﷺ -وهو حفيد إبراهيم- أبناءه، وقال: ﴿**يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)**﴾، وهذه رسالة لنا لنستمر في إيصال هذه الوصية من جيل إلى جيل، فهذا هو الميراث النافع الأصيل، وهو التراث الباقي الجليل.

﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ**﴾ هذا الدين ليس من اختراع البشر، الله تعالى هو الذي اصطفاه واختاره لكم، كما أنه اصطفى كل الأنبياء واختارهم لتبليغ دينه، ونشر الدين في الأمم، وقوله: (لكم) يعني لهم ولنا ولكل الناس، فقد رضي الله لنا هذا الدين

(1) هو أبو الصحابي الجليل سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(2) الحديث أخرجه أحمد والطبراني والبخاري في الأدب المفرد، انظر رواياته في السلسلة الصحيحة للألباني رقم 881.

كما رضيه للأنبياء: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ (سورة المائدة: 3)، فيجب أن نكون على قدر هذا الاختيار الرباني.

﴿**فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)**﴾ إنه الحب والحرص الذي يُكنه إبراهيم لكل الناس على مرّ التاريخ، أن يتمسكوا بالإسلام ويحرصوا عليه في كل حياتهم، فالإنسان لا يدري متى يموت، فيجب أن يلاقي هذا المصير الحتمي وهو مسلم لله موحد، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾" (سورة الزخرف: 28)".

ثم تُبين الآيات لنا عمليًا كيف وصى الأنبياء أبناءهم هذه الوصية، ويعقوب ﷺ نموذجًا: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ**﴾، هل شهدتم يعقوب حفيد إبراهيم ماذا قال لأبنائه وهو يحتضر؟ أنا أخبركم الخبر اليقين، لقد جمعهم وأوصاهم بوصية جده إبراهيم، وسألهم: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي**﴾؟ فأجابوه إجابة أثلجت صدره، وأراحت نفسه، ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾، فإبراهيم وأبناءه وأبناءهم كانوا مسلمين، تركوا عبادة كل شيء دون الله، وأسلموا واستسلموا لأوامره، يعبدونه كما أراد، وليس بأهوائهم.

فالأنبياء عليهم السلام كانوا يهتمون بجانب العقيدة -عقيدة التوحيد- حتى إن سكرات الموت لم تشغلهم عن تبليغها، فهي قضيتهم الكبرى، وهي شغلهم الشاغل. وفي هذا تبشير للمسلمين وتأكيد لهم أنهم على الحق الذي كان عليه إبراهيم، وكل الأنبياء.

ثم يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ... (134)**﴾.

إذا كان الخطاب في الآيات للمسلمين فإن معنى الآية: لقد مضت تلك الأمم انقضى عهدها، فلا ينفعكم إحسانهم ولا تضركم إساءتهم، وهذا دوركم للعمل، والسير على نهجهم بصدق، لأن أعمالكم هي التي تُحدد مصيركم عند الله، فإن اتبعتم الملة الصحيحة والصراط المستقيم نجوتم وفُزتم.

وإذا كان الخطاب لليهود والنصارى، فإن الله يقول لهم: ذاك الزمان قد مضى، والأمم السابقة قد مضت وانقضت، وقد سُجلت لهم صحائف أعمالهم، وأنتم تُسجّل لكم

صحائف أعمالكم، فلا ينفعكم انتسابكم إليهم إن لم يكن لكم أعمال صالحة تُنجيكم يوم القيامة، فلن ينفعكم توحيدهم وأنتم على الشّرك، ولن ينفعكم صدقهم وأنتم تكذبون، ولن تنفعكم أخلاقهم الحسنة وأخلاقكم أنتم سيئة، لن ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم.

﴿**وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (134)﴾ فلا يُسأل أحد عن ذنوب غيره، ولا تزر وازرة وزر أُخرى يوم القيامة، فلا تنفع الأنساب، فلو انتسبتم لإبراهيم أو لموسى أو لعيسى أو غيرهم، ولم تسيروا على ما ساروا عليه، فلن تنتفعوا.

۞ ۞ ۞

خطاب لبني إسرائيل، وتعليمات للمسلمين (135- 138).

﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ...** (135)﴾.

يرجع الحديث هنا عن اليهود والنصارى مَرَّةً أُخرى، وهذه المرة يُخبرنا الله تعالى أنهم يُخاطِبُون الرسول ﷺ والمسلمين، ويقولون لهم: ﴿**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**﴾، فقد ورد في سبب نزول الآية أن عبد الله بن صُوريا الأعورُ قال لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتدِ. وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله عز وجل الآية.

وهذا ديدن اليهود والنصارى وأتباعهم في كل زمان ومكان، فكل منهم يدعو إلى طريقته، يقولون: اتبعوا سبيلنا، فهو سبيل الهُدى، سيروا على ما سار عليه الشرق والغرب، فعندهم الحضارة.. وعندهم التكنولوجيا.. وما علموا أن حضارتهم إنما بُنيت على أنقاض حضارة المسلمين التي دمروها، وأن تكنولوجيتهم أسسها لهم المسلمون، وراحتهم هذه مزيفة، زينها أذنابهم من العرب والمسلمين، وأن شبابهم وشيابهم ورجالهم ونسائهم ينتحرون بأعداد مهولة[1]. فما فائدة الحضارة وقد نَشرت الأخبار أن هناك 30.000 أمريكي ينتحرون و500.000 يحاولون الانتحار كل سنة[2]؟ وما فائدة

(1) جاء في موقع حكومي سويسري: "وَوِفقاً لدِراسة نُشرت منذ عام 2006، احتلَّت سويسرا المرتبة الثانية عالمياً في الانتحار بعد الولايات المتحدة الأمريكية". انظر موقع: http://www.swissinfo.ch .

(2) من موقع "مؤسسة الحوار الإنساني" الجمهورية اليمنية، الحصيلة بتاريخ 2006/5/15.

التكنولوجيا والإحصائيات تقول أن 45٪ من الأطفال الإنجليز غير شرعيين مقارنة بـ28,3٪ قبل عشر سنوات (إحصائية سنة 2003)[1].

﴿**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**﴾ قالوا للمسلمين: "اتبِعوا ما عليه اليهود والنصارى من قوانين وأنظمة، ففيها الخير والهداية.. اتبعوا العلمانية التي تُلبي للبشر حاجاتهم"، وما علموا أن تدمير البشرية كان بسببها، فاضطُهِدَ الناس، ومات الفقراء تحت أقدام الأغنياء. يقولون: "سيروا على نهج الشيوعية التي تضمن حق الفقراء"، والحقيقة أنها سحقتهم وقتلتهم ودمرت حياتهم. وما من منهجٍ سوى الدين الرباني يضمن لكل ذي حق حقه، باختصار: (ملة إبراهيم) الحنيفية السمحة، قال ﷺ: «**إن ذات الدين؛ الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية، من يعمل خيرًا فلن يُكْفَره**»[2]:

هي الحنيفيةُ عيـن الله تكلـؤها *** فـكـلـما حاولوا تشويهَهَا، شاهوا

وكل من يدعو إلى طريق غير طريق الله -أياً كان- فإنه يتشبه باليهود والنصارى، كدعاة الإباحية، وتحليل ما حرم الله في العقيدة أو العبادات أو في الأخلاق.

بعد قولهم هذا جاء الرَّدّ من عند الله تعالى: ﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ قل لهم يا محمد: بل ملة إبراهيم هي الحقة، وهي التي يجب أن نتبعها نحن وإياكم على سواء، لأننا نتفق جميعاً على نبوته وصدقه وهدايته واستقامة منهجه، ولا نختلف في أمره، فما الداعي إلى هذا التفرق؟ دعونا نتفق جميعاً على اتباع ملة إبراهيم.

﴿**بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾ الذي كان ﴿**حَنِيفًا**﴾، والحنيف:أصلها الاستقامة، وأطلق اللفظ على الإنسان مُعوج السَّاقين تفاؤلاً باستقامته وشفائه، كما أُطلق على اللديغ لفظ: السليم تفاؤلاً، وأطلق على المكان المُهلِك: مفازة تفاؤلاً بنجاة من يدخله، وسُمّي دين إبراهيم (حنيفيًا) لاستقامته وبُعده عن الاعوجاج في العقائد والأخلاق والعبادات.

---

(1) خبر على BBC الإنجليزية بعنوان (Births out of wedlock 'pass 40%) ومن الملاحظ أن الـ BBC على غير عادتها لم تترجم التقرير في صفحتها العربية. والخبر على الربط:
.http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/4733330.stm

(2) انظر الأحاديث 881، 2908 في السلسلة الصحيحة.

وحتى لا يكون هناك مجالاً لليهود أو النصارى أن يَدَّعُوا أن إبراهيم ﷺ كان منهم فيقولوا: نعم نتبع ملة إبراهيم فإبراهيم كان يهودياً، أو تقول النصارى مثل ذلك، فقد قطع ربنا تبارك وتعالى عليهم الطريق وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي: ما كان إبراهيم في يومٍ من الأيام مُشركاً مثلكم، ولم يكن يعبد غير الله مثلكم، ولم يفتري على الله كذباً مثلكم، ولم يُحرّف كلام ربه مثلكم، فلا توهموا أنفسكم أنه كان كذلك.

ثم يقول تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾، وهذا خطاب للرسول ﷺ وكل المسلمين، يأمرهم بأن يُعلنوا براءتهم من الشرك كُله، ويقولوا: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ**﴾ فهو ربنا وربكم، وألهنا وإلهكم، آمنا به ربًا وآمنا به إلهًا.

﴿**وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾ وآمنا بما أَنزل الله إلينا على نبيه محمد ﷺ من القرآن الكريم.

﴿**وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ وآمنا أيضاً بما أَنزله الله على هؤلاء الأنبياء والرُّسل، وهم الأنبياء الذين ينتسب إليهم بنو إسرائيل.

﴿**وَالْأَسْبَاطِ**﴾ السبط: هو ما امتد من فروع الوالد (أبناء الابن أو البنت)، وقد سمى النبي ﷺ ابن بنته الحسين بن عليّ سبطاً، فقال: «**حسينُ منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، الحسينُ سبط من الأسباط**» (أخرجه أحمد).

وقد اختلف أهل العلم في تعريف (الأسباط) المقصودين في الآيات، فقال بعضهم: هم أنبياء بني إسرائيل من بعد يعقوب ﷺ، وقيل: هم أبناء يعقوب ﷺ، وهم ليسوا أنبياء سوى يوسف ﷺ. وقيل: هي القبائل المتفرعة من أولاد يعقوب ﷺ، لقوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**﴾ (سورة الأعراف: 160).

➤ أياً كان الأسباط، سواء كانوا أنبياء أم لا فقد جمعهم الله مع الأنبياء الموحدين المسلمين، وهذا دافع قوي لنا لاتباع الأنبياء، فمن اتبعهم طاعة لله وحُبًا لهم حُشر معهم، وكان في طرفهم يوم أن يصير الناس إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)**﴾ (سورة النساء).

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ وآمنا أيضاً بما أوتي موسى وعيسى من آيات في التوراة والإنجيل الحقيقة، والمعجزات المادية كالعصا لموسى، والكلام في المهد وغيرها لعيسى.

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وآمنا أيضاً بما لا نعلمه من الأشياء التي آتاها الله للأنبياء الذين لا نعلمهم، فنحن نُؤمن بها، وإن لم نعلمها.

وقوله: ﴿أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ معروف أن الذي أعطاهم النبوة والمعجزات هو الله، لكنه أكد بقوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ للتذكير بأن الذي جاء به الأنبياء ليس منهم وإنما من ربهم الذي أرسلهم، فقد اتهم اليهودُ عيسى ﷺ بالكذب رغم كل الآيات والمعجزات التي أيده الله بها، فنحن نؤمن بهم جميعًا؛ لأننا ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فكلهم أنبياء، وكلهم صادقون، وكلهم جاءوا لهداية البشرية إلى الطرق المستقيم الذي يُرضي الله.

ثم قال تعالى مُخاطباً الرسول ﷺ وأمته كلها، حكاية عن أهل الكتاب والمشركين: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ من توحيد الإله، ونبوة محمد ﷺ، والقرآن، والأنبياء السابقين وكتبهم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أي: دخلوا في الهداية، وأصابوا الحق، والرشاد.

﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ هذه هي الغاية العظمى، إنها نشر الهداية وتبليغ دين الله في كل الدنيا، حتى تهتدي الأمم إلى ما يُريده ربُّها، فكل كتاب أنزله الله كان هدفه هداية الناس، فالتوراة مثلاً قال الله عنها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾ (سورة المائدة: 44)، وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ... (46)﴾ (سورة المائدة)، وقال عن القرآن الكريم: ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (سورة المائدة).

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا وابتعدوا عن الحق، وتوجهوا إلى طريق الباطل: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: خلاف معكم، فقد أدخلوا أنفسهم في جهة مُخالفة مناقضة للحق، فاختاروا الباطل على الحق، والشرك على التوحيد، والكفر على الإيمان.

☜ لاحظوا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ الحرف (في) للظرفية، كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب، ويغمرهم من كل الاتجاهات، فهم منغمسون فيه. كما نُلاحظ أن اللفظ (شقاق) فيه قوة وغلظة وشدة أيضًا، وهذا يُنبئ عن شدة وقوة هذا الخلاف.

والإنسان إذا سمع ﴿**فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**﴾ قد يهاب، ويخاف ويخطر بباله العداوة؛ فطمأن الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين، فلو حاول أحدهم الاعتداء -عليك يا محمد أو على المسلمين- فإن الله هو الذي سيُدافع عنكم ويحميكم، لهذا قال: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ**﴾ أي سيكون الله كافيًا ومانعًا وناصرًا لكم.

ولاحظوا أيضاً اللفظ: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ**﴾ كأن الله تعالى يُنبه نبيه ﷺ والمسلمين أن يتوقعوا منهم العداوة والبغضاء، فأعطى إشارة إلى أن الله هو ناصرهم وكافيهم ومؤيّدهم، حتى لا يكون في صدورهم أدنى خوف، كما أنه لم يُحدد من ماذا سيكفيهم، وهذا يدل على أنه سيكفيهم كل شيء فيه ضرر وشر، سواء معنويًا كالحقد والحسد، أو ماديًا كمحاولات التشويه والشيطنة، أو الاغتيال أو القتل، وسواء كان علنياً أو كتموه في أنفسهم، لهذا خُتمت الآية: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (137)﴾.

وهذه خاتمة مناسبة جداً، ومُبشّرة للرسول ﷺ والمسلمين، وتقول لهم بأن الله ليس غافلاً عما يجري من أحداث في الدنيا، بل يسمع ما يقولون، ويعلم ما يُخططون وما يكتمون من نوايا مبيتة للشر، فكما أنجز وعده لنبيه، سيُنجز للمسلمين وعده.

كما أن الله يكفي المسلمين أيضًا إذا تحقق فيهم الإيمان الصادق، يقول: أنا أسمع ما تقولون، وأعلم ما في قلوبكم من نوايا، فإذا كنتم صادقين مخلصين فأنتم أهل لنصري وكفايتي لكم.

ثم يقول تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** (138)﴾

والصبغة في اللغة هي: ما يُغير لون الشيء أو ما ينغمس فيه الشيء، قال بعض المفسرين: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ**﴾ يعني دين الله، وسمي (صبغة) مجازاً واستعارة، حيث تظهر آثار شعائر الدين على جوارح المسلم، ويتشربها قلبه كما يتشرب الثوب الصباغ، وكما يتشرّب الخبز الإدام، فيظهر على قلبه بالصدق والإخلاص، وعلى جوارحه بالعبادات والمعاملات الطيبة، وعلى عقله بالأخلاق الحسنة. وعلى هذا يكون معنى الآية: أخبرهم يا محمد أن (ملة إبراهيم) هي دين الله الحق، فالزموا دينه، فما من دين أحسن منه.

وقال بعضهم: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ يعني: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعلى هذا يكون معنى الآية: يا بني إسرائيل إن هذه الملة الحنيفية (ملة إبراهيم) هي ملة الفطرة التي يقبلها العقل ولا يُعارضها مُنصف، فقد فطر الله كل الناس من يوم أن خلقهم على التوحيد الصادق وأعمال الخير، فلا تشوبوا هذه الفطرة بشرك، ولا تُعَطِّلوها بكفر.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ من أحسن خَلْقًا من الله؟ ومن يأتِ بدينٍ وفطرة أحسن وأفضل من دين الله وفطرته؟ ومن يأتي بحُكم أفضل من حُكم الله؟

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)﴾ ثابتون على هذه الفطرة التي تأمرنا بالاستسلام له وطاعته وعبادته حق العبادة، فإن المسلمين الصادقين طائعين لله، تظهر آثار العبادة على أخلاقهم ومعاملاتهم كما يظهر أثر الصبغ في الثوب.

۞ ۞ ۞

أأنتم أعلم أم الله؟؟ (139-141).

في الآيات السابقة ردّ الله تعالى على ادعاءات أهل الكتاب وقولهم: إن اليهودية أو النصرانية هي الدين الصحيح، وأقام عليهم الحُجة القوية والبرهان القاطع، وأمرهم أن يؤمنوا بملة إبراهيم التي هي التوحيد، وفي هذه الآيات يُؤكد أن طريقهم ليست سوية؛ لأن حُجّتهم ضعيفة، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؟ يعني: قل لهم يا محمد: أتُحاجوننا في ذات الله وفي دين الله، وفي توحيده والإخلاص له واتباع الهدى وترك الهوى؟ أهذا أمرٌ يكون فيه جدال؟

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أتُحاجون في الله وهو ربنا وربكم، الذي خلقنا وخلقكم، فنحن وأنتم عبيد له، وعلاقَتنا به نفس علاقتَكم؛ علاقة العبودية والخضوع، فالله الذي ربانا وربّاكم، وفطرنا على محبته، أتحاجُّون فيه؟ وتجادلون في وحدانيته؟ وتبحثون عن أدلة لتُثبتوا أن معه شريك، أو أن هناك معبود غيره؟

أتحاجون في الله؟ وهو الذي لا مجال للجدل في وحدانيته وربوبيته، فالعقل والفطرة يشهدون عليها، كما أن أنبياءه يشهدون عليها، والكتاب المسطور والكون المنظور كلها تشهد له بالوحدانية، والإلوهية والقدرة والعظمة والحكمة والعدل. لا يمكن لكم أن

تجدوا حُجة تحتجون بها، وإن وجدتم فإنها ستكون واهية، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)**﴾ (سورة الشورى) والداحض الباطل، أو الذي لا ثباتَ له ولا عزيمة في الأُمور.

﴿**وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**﴾ وقل لهم أيضًا: إن أعمالنا لنا نُحاسب عليها، وأعمالكم لكم ستحاسبون أنتم عليها، فنحن سنجد إخلاصنا وتوحيدنا وإيماننا، وأنتم ستجدون هناك شركَكم، وظلمكم، وافتراءكم، وتحريفكم، والله يجازي كل إنسان بعمله، فلا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وفي هذا إعلان البراءة من كل ما هم عليه من شرك وكفر، فإننا لن نعمل مثل أعمالكم، بل نعبد الله وحده ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)**﴾، فأنتم اعتمدتم على أسلافكم وزعمتم أنهم شفعاء لكم، ونحن اعتمدنا على إخلاصنا وتوحيدنا الصادق.

وهذه البراءة يجب أن تكون من كل المشركين وأعمالهم الشركية، لذلك أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بأن يتبرأ من أعمال مشركي قريش، فقال تعالى له: ﴿**وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)**﴾ (سورة يونس).

﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾ وهذه حُجة أخرى من حججهم الواهية، يقول الله لهم: أنكم تقولون في ادعاءاتكم أن هؤلاء الأنبياء كانوا منكم؟؟ ﴿**قُلْ**﴾ لهم يا محمد: ﴿**أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**﴾؟ وهذا تقريع وتوبيخ شديد، فالله تعالى يقول أن أنبياءه كانوا مُسلمين، وأنتم تقولون لا؟ الله يقول بأنهم كانوا صادقين، وأنتم تقولون: لا؟ الله يقول بأنهم كانوا أنقياء معصومين؛ وأنتم تقولون: لا؟ عجيب أمرُكم!! أأنتم أعلم أم الله؟ الله أعلم منكم، بل إن علمكم بالمقارنة مع علمه لا يُساوي شيئًا: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)**﴾.

وهذه أيضاً حُجة كبيرة عليهم، فإن قالوا نحن أعلم، فإنه لا يُمكن لمخلوق أن يكون أعلم من الخالق، وإن قالوا: الله أعلم، فقد بطل قولهم الذي يَدَّعُونه؛ لأن الله تعالى أخبر أنهم ما كانوا أبداً يهوداً ولا نصارى.

بل إن اليهودية والنصرانية أصلاً ما جاءت إلا بعد هؤلاء الأنبياء، فكيف تدعون أنهم كانوا منكم؟ وهذا ما رَدّ الله عليهم به في سورة آل عمران، فقال: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (65)﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ**﴾ وهذا تقريع وتوبيخ آخر لهم، فمن أشد ظلماً من هذا الذي كتم شهادة حق وكلمة حق موجودة عنده في الكتاب الذي أنزله الله إليه؟ والشهادة هنا تعمّ كل أمر جاء في كتاب الله، وتخصّ:

1- علمهم بأن الأنبياء كلهم مُسلمين، ومع ذلك كتموا هذا العلم.

2- علمهم بتبشير الله تعالى في التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ وإخفائهم ذلك.

فقد كتموا الأمرين وأظهروا العكس، فجمعوا بين جريمة كتم الحق، وجريمة إظهار الباطل ونشره، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟

﴿**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (140)﴾ فكل عمل تعملونه، فالله ليس غافلاً عنه، بل أحصاه وكتبه في سجلات عنده، وكلكم سيأخذ هذا الكتاب وينظر ما فيه، وسيجازيكم ويحاسبكم عليه، وهناك تندمون.

***

﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (141)﴾ كرر الآية 134 لقطع التعلق بالمخلوقين، فالإنسان لا ينفعه ما عمل أسلافه، فالنفع الحقيقي بعمله هو، فكل واحد سيقف أمام الله وحده وسيُسأل عن نفسه فقط، لا أُمّ تَحِنُّ عليك، ولا أب يرحم عليك، ولا صديق يشفع لك ولا قريب ينفعك، وحيدًا أمام الله لا تملك إلا أعمالك، فإن آمنتم فإنه يُسجّل لكم، وإن أبيتم فإنه سيُسَجّل عليكم.

انتهى الجزء الأول من كتاب الله تعالى، ويليه الجزء الثاني، ويبدأ بقصة تحويل القبلة

۞ ۞ ۞

قصة تحويل القبلة، ومكر اليهود (142-144)

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

انتهى الجزء الأول من القرآن، وبدأ الجزء الثاني منه، والحديث ما زال متواصلاً عن اليهود ومكرهم وتكذيبهم ومعاداتهم لدين الإسلام وشريعته ونبيه وأتباعه، وفي هذه الآية يُخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن اليهود لن يُعجبهم أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وسوف يبدؤون في إشاعة الشبهات ونشر الفتنة.

☜ بداية لنتعرّف على قصة تحويل القِبلة، باختصار: عندما أمر الله تعالى الرسول ﷺ والمسلمين بالصلاة في بداية البعثة، أمرهم أن يتوجهوا إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وهذا شرفٌ إلهيٌّ عظيم لهذا البيت المقدس، نسأل الله تعالى أن يُطهره من دنس المجرمين. ففرح اليهود بهذا لأنهم يزعمون أنها قبلتهم، وقالوا: محمد يتوجه إلى قبلتنا، لكنه ﷺ كان يُحبّ أن يتوجه إلى الكعبة، وكان وهو يُصلي يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة صار الاتجاه إلى الكعبة وبيت المقدس في آن واحد صعبًا، فامتثل أمر ربه اتجه نحو بيت المقدس، لكنه كان يُكثر النظر إلى السماء أدباً مع ربه، أملاً في أن يوجهه إلى الكعبة، ثم أُنزل الأمر بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام.

وبهذا التحويل، فَضَحَ اللهُ المنافقينَ من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة فانكشفوا عن المسلمين، وارتدوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه، فتطهرت صفوف المسلمين من كثير من أهل الغدر والخيانة، فمعادن الناس تظهر في الشدائد، وتبين حقيقتها.

وكان اختباراً للمسلمين، فنجحوا في هذا الاختبار أيما نجاح، فقالوا: (سمعنا وأطعنا، آمنّا به كلّ من عند ربنا) فلم يكونوا يعرفوا إلا الطاعة والخضوع لأوامر الله، سواءً وافقت هواهم أم لم توافقه، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتّفق، فقد امتحن الله قلوبهم للتقوى في 17 رجب من السنة الثانية للهجرة، وقد ورد عدة أحاديث في الصحيحين وغيرهما تشرح قصة تحويل القِبلة.

قال تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ**﴾ و (السفهاء) هم الطائشون الذين لا يعرفون مصالحَ أنفسهم، فهؤلاء الذين رغبوا عن ملة إبراهيم، واتبعوا أهواءهم بدلاً منها سيستغلون هذا الحدث وسيقولون لكم هذه المقولة البغيضة ذات النوايا الخبيثة، بهدف زعزعة صفوف المسلمين، نشر الشبهات وتشتيت الأفكار، حتى أن بعض المسلمين تشككوا بالفعل، وقالوا سواء علانية أو في أنفسهم: ما هذا؟ القِبلة مرة هنا ومرة هناك؟

﴿**مِنَ النَّاسِ**﴾ لفظ (الناس) يوحي أنه ليس اليهود فقط من سيقول ذلك، بل هناك غيرهم، كالنصارى والمشركين، والمنافقين، وقد وصفهم الله تعالى كلهم -بغض النظر عن دينهم أو توجههم- بأنهم سُفهاء، فماذا يقول هؤلاء السفهاء؟

يقولون: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ**﴾ صَرَفَهُم وأبعدهم ﴿**عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ التي كانوا يُصلون إليها؟ وهذا يدل على أن الاتجاه إلى القُدس كان منذ أن شُرعت الصلاة في مكة، فقالت اليهود: خالَف قِبلة الأنبياء قبلَه، ولو كان نبيًّا، لتوجه إلى قِبلة الأنبياء. وقال المشركون: كما رجَع إلى قِبلتنا، يُوشِك أن يرجعَ إلى دِيننا، وقال المنافقون: ما يَدري أين يتوجَّه؛ إن كانتِ الأولى حقًّا فقد ترَكها، وإنْ كانت الثانية هي الحقَّ، فقد كان على باطِل.

➤ وهذه الآية نزلت قبل تحويل القِبلة، حتى يكون الرسول ﷺ والمسلمون على علم بنوايا هؤلاء، وعندما تحولت القِبلة أطلقَ اليهود وأذنابهم هذه الشبهات لتشكيك المؤمنين، وبدأ إعلامُهم بنشرها وإذاعتها في المدينة، فماذا يَرُدّ عليهم النبيّ ﷺ؟

فَعَلَّم اللهُ نبيَّهُ الحُجة البالغة ليستعد للإجابة، عند مفاجأة التساؤلات، وأخبره بما سيقول لهم، فقال له: إن قالوا ذلكَ ﴿**قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ فالله تعالى هو مالك كل الاتجاهات، وهو المتصرف فيها كما يشاء، ولا يقع فيها إلا ما يُريد، فلا يُمكن أن أختار قِبلةً بنفسي، بل هو أمر ربي سبحانه ومشيئتِه، أمرنا بالتوجه إلى بيت المقدس تارة فأطعنا، ثم إلى الكعبة حسبَ ما تقتضيهِ مشيئتُه وحكمته البالغة فأطعنا، وليس للجهات أهمية، فبيت المقدس أو الكعبة لا تنفع بنفسها، وإنما الأمر كله لله، يختار ما يشاء، و إنما نحن عبيد له، نأتمر بأمره، ونمتثل قوله، لأن قوله فيه الهداية والحق.

۞ ۞ ۞

ثم يقول تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾، قَدَّرَ أن تكونوا يا أمة مُحمد ﴿**أُمَّةً وَسَطًا**﴾، و(الوسط) هو الأفضل والأصوب، والوسط بين طرفين، والمعنى: لقد جعلناكم أمة وسطاً، فلا تفريط كاليهودية التي قَصَّرَت في حق الله والأنبياء، ولا إفراط كالنصارى الذين غَلَوا في نبيهم حتى جعلوه إلهًا، فأنتم الوسط بينهما، و(خير الأمور أوسطها).

فديننا "وسط بين المادية المقيتة وبين الروحية الحالمة... بين الفردية الطاغية وبين الجماعية الساحقة، بين العقلانية الباردة وبين العاطفية المتأججة" لهذا ندعو الله دائمًا: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ (سورة الفاتحة)، أي: لا مُفرّطين كاليهود ولا مُفرِطينَ كالنصارى.

لماذا جعلنا الله أمةً وسطًا؟ قال تعالى: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾، فقد جعل الله من صفات المسلمين: العدل والصدق، لأنهم سيشهدون يوم القيامة على الأمم، والشاهد يجب أن يكون عَدلاً صادقاً.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ اعلموا أن تحويل القبلة كان اختبارًا وابتلاءً من الله لكم، ليَعلم من يتبع الرسول ﷺ ويقتدي به، ممن يعترض وينقلب على عقبيه، ويتراجع في إيمانه، وقد رأينا في أحاديث تحويل القبلة كيف امتثل الصحابة لأمر الله على الفور حتى أنهم لم ينتظروا حتى ينتهوا من الصلاة، فاستداروا أثناء الصلاة، وهذا يدل على كمال انقيادهم وطاعتهم لله، بينما ارتدَّ المنافقون على أدبارهم فطهر جماعة المسلمين منهم.

كيف قال تعالى: ﴿**إِلا لِنَعْلَمَ**﴾ وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها؟

1. أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، وهما يرتبطان بالعمل الذي يعمله العامل لتكون حُجّةً عليه يوم القيامة، والله تعالى لا يؤاخذ الناس بما لم يفعلوا حتى يفعلوه، وفي البخاري قال ﷺ: (**إن الله تعالى تَجَاوَزَ لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به، أو تعمل به**)، فالهدف أن يعلموا هم أعمالهم.
2. ﴿**إِلا لِنَعْلَمَ**﴾ أي: نُبيّن للنبي ﷺ والمسلمين ونميز من يتبع الرسول في القبلة ويُسَلّم لله في أمره ﴿**مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾ فالأمر ليس بسيطاً هيناً، وهذا التشريع فيه شدة على النفوس، لكن الذين قَدّر الله لهم الهداية يجدونه هيناً ويتقبلون أمر الله بكل خضوعٍ ورضا. فبالإيمان تهون كل الصعاب والشدائد.

﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ وهذه رحمة من الله تعالى وكرم، فقد جاء بعض الصحابة الذين طالما أطاعوا ربهم وَصَلُّوا إلى المسجد الأقصى، وسألوا الرسول ﷺ: يا رسول الله، أَنَّهُ مَاتَ رجال قبل أن تُحَوَّل القبلة، فمَا نَقُولُ فِيهِم؟ فَأَنزَلَ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ (متفق عليه).. أي أن الله تعالى لا ينسى هذه العبادة، ولن يُضيعها، فلا تخافوا ولا تحزنوا، ولا يخطر ببالكم أن أعمالكم السابقة ذهبت هباءً، كلا..

والأصل أنكم صليتم إلى بيت المقدس بأمر من الله تعالى، وطاعة له، فهل يُضيع ربُّنا تبارك وتعالى طاعة طائع قط؟ هل يُضيّع ربنا عمل عامل مُخلص صادق؟ كلا وألف كلا، فهو أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، وهو القائل: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (الأعراف: 156)، فحاشاه أن يأمر بشيء ثم لا يُثيب عليه.

وقد جمع الله بين اسمين من أسمائه العظيمة في هذا الموقف، وهما: (الرؤوف) و(الرحيم) ليدل على عِظَم رحمته ورأفته بعباده، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة:143)، وهاتان الصفتان يجب أن يتصف بهما كل مسلم؛ لأن الله وصف نبيه ﷺ بهما، فقال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة:128)

﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ لاحظ قوله: (بالناس) فرأفته ورحمته تشمل كل الناس، بكل أطيافهم وأديانهم وأجناسهم إذا ما أطاعوه وساروا على الطريق الذي أراده.

والفرق بين الرأفة والرحمة: أن الرأفة تكون خاصة، والرحمة عامة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)**﴾ (الأنبياء)، ﴿**وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا**﴾ (الشورى:48)، فالرحمة أعمّ من الرأفة، وعندما ندعو الله باسمه (الرحمن) فإننا نطلب أن ينزل علينا كل الخير ويرفع عنا كل الضر، وعندما ندعوه باسمه (الرؤوف) فنحن ندعوه أن يدفع عنا أي ضرر واقع فعلاً، أو من المحتمل وقوعه في المستقبل.

ولاحظوا -أيها الأحبة- أنه عبَّر عن الصلاة أو العمل الصالح بالإيمان: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾، وذلك ليُبيّن لهم أن الإيمان هو الفيصل وليست الاتجاهات، فالإيمان الصادق إذا كان موجودًا فلا يهم الاتجاه؛ لأن الإيمان والصدق هو الأصل.

ثم يقول تعالى: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ هذا الخطاب للرسول ﷺ تسلية له وتحقيقاً لرغبته، فالله يقول له: نحن نعلم ما يدور في خُلدك من رغبة في أن تتوجه في صلاتك نحو الكعبة، وكنا نراك وأنت تُقَلّب وجهك يمينًا ويسارًا أو للأعلى شوقًا وانتظارًا لتحويل القبلة، فاستجبنا لك: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ**﴾ بعد الآن في صلاتك ودعائك ﴿**شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

﴿**وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ**﴾ أيها المسلمون المتبعون لمحمد ﷺ في البَرِّ أو البحر أو الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب ﴿**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ عند الصلاة. و(شطره) يعني: جهته، لهذا قال الفقهاء: "إن أمكن استقبال عين الكعبة فبه ونعمت، وإلا فيكفي شطرها أي: وِجهتها".

قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾ أي: واعلم يا محمد أن أهل الكتاب يعلمون أنك في اتجاهك إلى الكعبة على حق، وأن ذلك أمر من الله، لكنهم يعترضون دائمًا، فلا تُبالوا بهم، ولا تهمكم شبهاتهم ولا افتراءاتهم الكاذبة.

وهنا يكشف ربُّنا لنبيه ﷺ حقيقة ما في قلوب وعقول أهل الكتاب، ويُبيّن للأمة أن ما يُظهروه ليس على حقيقته، فالكذب وإخفاء الحقائق سمة متجذرة فيهم.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)**﴾ تسلية أخرى للرسول ﷺ وصحابته، وتثبيتاً لهم على ما هم عليه من الحق، ودعماً لهم في مواجهة شُبهات هؤلاء السفهاء، فهو يقول لهم: لا يهمكم أمرهم، وما أنا بغافل عن أفعالهم بل أراها، ولا عن أقوالهم بل أسمعها، بل حتى نواياهم الخبيثة أعلمها، لكن أُدبر الأمر لحكمة بالغة.

۞ ۞ ۞

الثبات الثبات (145- 147)

يقول تعالى: ﴿**ولَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾ يا محمد، لو أنك تأتي بكل الآيات والدلالات والبراهين القاطعة لهؤلاء لن يتبعوا قبلتك.. وهذا يعني أن عدم إيمانهم ليس لأن هناك شبهة تمنعهم، أو لعدم اقتناعهم بالدين أو بالنبي أو بالقرآن، بل مكابرة وعناد، فهم يعلمون علم اليقين أن دين الإسلام حق، وأن النبي والقرآن حق، وأن رسالته وشريعته حق، لوجود تلك الأخبار في كتابهم.

ولو كان الكفر بسبب عدم الاقتناع لحصل الاقتناع بوجود البراهين والآيات، كما حصل مع والد عمران بن حصين[1]، وأبو ذر الغفاري[2]، عمرو بن الجموح[3] وغيرهم، ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعًا لوجدوه في كتبهم التي أخبرتهم بكل شيء.

ثم يقول: ﴿**وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ (ما) هنا نافية، أي: لا يمكن أن تتبع يا محمد قبلتهم، وهذا حسم لأطماع المشركين، لأنهم قالوا: عاد إلى قبلتنا، فسيعود إلى ديننا.

وفي هذا دليل على شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وتمسُّكه بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته فهو ﷺ لم يتوجه إلى بيت المقدس إلا لأنه أَمر اللهِ، وهذا يرد على من قال أنه توجه إلى بيت المقدس رغبة في إسلام اليهود أو طمعاً فيهم، أو مداراة لهم.

وقوله سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ أبلغ مما لو قال: (ولا تتبع) لأنها تحمل النهي القاطع، يقول: فأنت لن تكون تابعًا لقبلتهم ولا لدينهم أبدًا، بخلاف أمته، فإنه قد ينزلق بعض المسلمين فيوافقوا الكفار في بعض الأحوال، أو ينخدعوا بكلامهم وإعلامهم الكاذب.

---

(1) جاء والد عمران إلى النبي ﷺ قبل أن يسلم، فسأله: (**كم إلهًا تعبد**)؟ قال: سبعة - ثم فصَّل - فقال: ستةً في الأرض، وواحدًا في السماء، فقال: (**من لرغبتك ولرهبتك**)؟ قال: الذي في السماء، فدعاه إلى الإسلام، وقال له: (**إذا أسلمت فإني سوف أعلمك كلمتين نافعتين**)، فأسلم، وعلمه النبي ﷺ قوله: (**اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي**) انظر المشكاة رقم 2476.

(2) ذهب أبو ذر ذات يوم ليُصلي لصنمه، فوجد ثعلبًا قد بال على رأس الصنم، فوقف متعجبا ساخراً مما حدث، وانشد قائلا:

رب يبول الثعلبان برأسه *** لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فلو كان ربًا كان يمنع نفسه *** فلا خير في رب نأته المطالبُ

برئت من الأصنام في الأرض كلها *** وآمنت بالله الذي هو غالبُ

(3) كان له قصة في إسلامه، حيث أثبت له أولاده أن صنمه (مناف) ليس له حول ولا قوة يدفع بها عن نفسه السوء.

ثم لاحظوا -أيها الكرام- قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ ولم يقل: "ولو أتوك بكل آية أو برهان أو دليل" أتدرون لماذا؟ لأنهم ليس لديهم أي دليل على صدقهم، ببساطة لأنهم ليسوا صادقين.. وليسوا على الحق.. والحق له ألف دليل ودليل.. مع أنه لا يحتاج إلى دليل.. والباطل لا تجد له دليل واحد.. وإن كان فهو كذب وتزوير وتلفيق..

ثم يقول تعالى: ﴿**وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾ أي: أنهم مقسَّمون إلى عدة طوائف، وكل طائفة تتبع هواها، وهم دائمًا على خلاف بينهم، حتى وإن رأيتهم متفقين في الاقتصاد والسياسة والعلوم وغيرها، إلا أنهم في الاعتقاد على اختلاف كبير، ويتحدون في مواجهة الإسلام وأهله، إلا أن بأسهم بينهم شديد، وهذا ملاحظ اليوم أيضًا.

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ فيا من اتبع أهواء هؤلاء بعد أن عرفت الحقيقة: ﴿**إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ** (145)﴾ تظلم نفسك بإدخالها في الكفر والضلال، وتظلم غيرك ممن يقتدون به، فتحمل أوزارهم مع أوزارك. وأي ظالم أعظم من هذا الذي يُؤثِر الباطل على الحق، وهو يعلم أنه باطل؟ فإذا كان النبي ﷺ لو فعل ذلك -وحاشاه- صار ظالما مع علو مرتبته، وكثرة حسناته، فغيره من باب أولى وأحرى. فكأن الله يقول: إن هذا العمل جريمة عظيمة لا يتسامح الله سبحانه فيها مع أحد حتى لو وقعت من نبيه وحبيبه ﷺ، فكيف لو وقعت من غيره؟

ملاحظة: هل لاحظتم اللفظ: ﴿**أَهْواءَهُمْ**﴾؟ هذا فيه أمرين:

الأول: دليل على أن ما هم عليه ليس دينًا، بل مجرد أهواء، نشروها بين العامة، لهذا لم يقل (دينهم)، ولا شك أن كل من ترك الدين فقد اتبع الهوى لا محالة.

الثاني: دليل على أنهم لا يأبهون بمن اتبع أهوائهم على أي دين كان، المهم أن يتبع الأهواء، والقوانين التي تصدر عنهم، سواء كان مسلماً أو نصرانياً أو بوذيًا أو غيره.

ثم يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ... (146)**﴾. اعلموا يا أتباع محمد أن هؤلاء الذين آتيناهم الكتاب يعرفون كتابهم جيدًا، ويُدركون أن هناك نبي سيكون، ومن أوصافه كذا، فهم يعرفون ذلك ﴿**كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ**﴾ معرفة لا شك فيها، كما أنهم يعرفون أبنائهم من أبناء الآخرين.

﴿وإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ يُخفونه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الحق، ويعلمون عقاب الكتمان، وقد روي أن عمر ﷺ سأل عبد الله بن سلام ﷺ: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر؛ قال: كيف ذلك؟ فقال: نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، أما ولدي فإني لا أدري ما كان من أمه. فقبّل عمر رأسه[1].

فما هو واجبنا -نحن المسلمون- نحو كتاب الله؟ لقد اختصر الله تعالى لنا الإجابة في كلماتٍ أربع، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ﴾.. فيجب على كل مُسلمٍ أن يعرف القرآن كما يعرف أبناءه.. يَتَرَبى به كما يُرَبّي أبناءه.. يُحافظ عليه كما يُحافظ على أبنائه.. يَتَخَلَّقُ بأخلاقه كما يُحافظ على أخلاق أبنائه.. يُدافعُ عنهُ كما يُدافع عن أبنائه.. عندها نكون أهلاً لأن يرفعنا الله بهذا الكتاب، قال ﷺ: (**إِن الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**) (أخرجه مسلم).

يقول تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: اعلم يا محمد، ويا أتباع محمد في كل زمان ومكان، أن ما أنتم عليه من شريعة ودين، هو الحق، البعيد عن الأهواء البشرية.

والسؤال الآن: لماذا دين الإسلام هو الحق؟ لماذا هذا القرآن هو الحق؟ باختصار: لأنه ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، لم تتدخل في صياغته العقول البشرية التي تتبع أهواءها، ولم تتدخل في صياغته الأيادي البشرية، التي لا تعمل إلا لأجل المال، كما فعل الأحبار بكتابهم: حرفوه وباعوه للناس على أنه كلام الله، لم يتدخل البشر في وضع القوانين الربانية لذلك فهي الحق وهي العدل، فكل ما ذكره الله في القرآن هو الحق، سواء كان قصصًا أو أخبارًا أو أحكاماً، وهو الصدق الذي لا جدال فيه، لأنه (من ربكم) جل جلاله..

﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)﴾ فلا يكن عندكم شك أبدًا في: أنه من ربكم، وأنه الحق، ولا يكن عندكم شك أبدًا في أنهم يكتمون الحقَّ وهم عالمين به.

وليس المراد به -قطعاً- نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه؛ لأنه غير متوقع منه، ولكنه خطاب لكل الأمة، بأن يحتاطوا لدينهم الحق، فيزودوا أنفسهم دائمًا بالعلم الذي يزيدهم

(1) انظر ابن كثير ج 2 ص 18، وقال المحققون: في إسناده ضعف، لذا صدّرته بصيغة التمريض: روي.

إيمانًا، ويقوموا بالفرائض، ويتبعوا السنن التي تزيدهم قوة في الاعتقاد، وتبعدهم عن مواطن الشبهات فيزدادوا يقينًا، فيحدث الاطمئنان: ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾.

۞ ۞ ۞

فاستبقوا الخيرات (148- 150).

قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾.

لكل شخص أو لكل أمة، أو لكل نبي ﴿**وِجْهَةٌ**﴾ اتجاهًا واعتقاد، ﴿**هُوَ مُوَلِّيهَا**﴾ أي: يتوجه إليها بوجهه وبقلبه، فيسير على ملته التي اختارها، وعقيدته التي أرادها، ولم يأمرنا ربنا بمجادلتهم في هذه الملة، وإنما أمرنا بالأعمال الصالحات التي تُقَرّب القلوب للإسلام وتُحببهم فيه وفي أهله، وكثيرًا ما أثرت المعاملة والأخلاق الطيبة، في غير المسلمين كَعُدَي بن حاتم الطائي، وثمامة بن أثال وغيرهما.

ولهذا يسعى أعداء الدين في كل زمان ومكان إلى تشويه صورة الإسلام أمام الناس حتى لا يُسلموا، منذ أن كان أبو لهب يتبع الرسول ﷺ ويقول: "هذا ابن أخي وهو ساحر وشاعر وكاذب"، إلى يومنا هذا، ويستخدمون كل الوسائل لذلك، وهذا لا يخفى على أحد.

ثم يقول تعالى: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا**﴾ في أي زمان عشتم، وفي أي مكان كنتم، فإنكم ستُجمعون للعرض على الله، في ذلك اليوم يُجمع الأولين والآخِرين، ويسألكم عن النقير والقطمير، فيتبيَّن أهل الحق من أهل الضلال، ويُحاسَب كل على ما قدَّم: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)**﴾ (سورة الحشر).

﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)**﴾ خاتمة رائعة للآية، فلو تساءل أحد: هل من المعقول أن يُجمع كل الناس من زمن آدم إلى يوم القيامة في مجمع واحد؟ نعم.. يُحيي الأموات.. ويجمع الشتات.. ويُحيي العظام وهي رميم، ويُعيدها كما بدأها أول مرة، لأنه على كل شيء قدير.. وليس ذلك عليه صعبًا.. فهو الذي يقول: ﴿**يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44)**﴾ (سورة ق).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، لأن مسألة التحويل كانت صعبةً على المسلمين، فأكَّدَ الأمر ليَعلم الناس أهمية المسألة، فيخفف عنهم وتسكُن نفوسهم.

وقيل: أراد بالآية الأولى: وَلِّ وجهك شطر الكعبة في الصلاة، وقوله ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ**﴾ يا معاشر المسلمين في سائر المساجد في العالم ﴿**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾.

وفي هذه الآية قال: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ**﴾ يُفيد الاستقبال في السفر، فأمر الله نبيه ﷺ بالتوجه إلى الكعبة في جميع الأحوال، في الحضر والسفر، فكان ﷺ إذا سافر وأراد أن يصلي صلى على راحلته، استقبل القبلة وكبر ثم صلى حيث تَوَجَّهَت به[1].

﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**﴾ توجه إلى هذه القبلة الحقة في كل أحايينك، وهو جل جلاله لا يأمر إلا بما هو خير وحق وعدل.

﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (149)﴾ فالله تعالى عالم بكل شيء تعملونه، وهذا وعد للمسلمين بأن يجزيهم جزاء أيمانهم وتصديقهم وطاعتهم، ووعيد للكافرين، بأن يجزيهم جزاء كفرهم ورفضهم أوامر الله، فهو لا يغفل أبدًا عن أعمال عباده.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾. في الآية التي قبلها كان الخطاب للرسول ﷺ، وهو قدوة المسلمين، وفي هذه الآية الخطاب لهم جميعهم، أن يقتدوا به ﷺ، فيتوجهوا إلى هذه القبلة، أي: كما أَمَرْنَا نبيكم من قبل نأمركم: ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ في الصاة والدعاء والسفر والحضر، وفي كل مكان، في الكعبة أو في مكة أو خارجها.

ثم قال تعالى: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**﴾ أي أن توجهكم إلى الكعبة، وثباتكم عليه رغم كل الأقاويل والشبهات يقطع ويمنع كل حجة لأعدائكم، فثبات المسلم على أمر الله، وطاعته حُجّة على الكفار، أما التردد والتراجع والتذبذب في الأفكار والآراء يفتح الطريق لأعدائكم لبث إشاعاتهم وشُبهاتهم، وأفكارهم، وغزوكم فكرياً.

(1) قال القرطبي ج 2 ص 149: "هذا القول أحسن من الأول، لأن فيه حمل كل آية على فائدة". والحديث متفق عليه.

وقيل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾، "حتى لا يقول اليهود: "إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا سَيُحَوَّلُ إِلَيهَا وَلَم تُحَوَّل أَنتَ"، فَلَمَّا حُوِّلَ إِلَيهَا ذَهَبَت حُجَّتُهُم.

﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يُجادلون كذباً وعناداً، ولن يقتنعوا بأي حُجة، ببساطة؛ لأنهم لا يريدون دليلاً ولا برهان، ولا يريدون سوى العناد والعِداء. و﴿ظَلَمُوا﴾: اعتدوا عليكم بأي طريقة، سواءً بِنَشرِ الشبهات والتأثير الفكري، أو التخويف أو حتى القتال، وهذا تلميح إلى أن منهم من سيظلموكم بكل وسائل المتاحة.

﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ ما دمتم ثابتين على الحق، ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ بطاعتي وامتثال أمري، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ والنعمة: كل مَا أَنعم الله بِهِ علينا من نِعَمٍ مادية أو معنوية[1]، فتشمل كل أنواع النعم، وقيل: أتم لكم الدين باستقبال هذه القبلة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي يُكرمكم الله بالهداية إلى الطريق المؤدي إلى رضوانه، وذلك جزاء اتباعكم لأوامره واستجابتكم واستسلامكم له.

۞ ۞ ۞

فاذكروني أذكركم (151- 152).

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)﴾.

ما يزال الخطاب لأهل الإيمان، الذين صَدَّقوا أمر الله واتبعوه واستسلموا له، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ "كما كنا قد أرسلنا إليكم رسولاً يهديكم إلى العقيدة الصحيحة والصراط المستقيم، ويتلوا عليكم آيات الله، ويُزكيكم ويُطهركم؛ لذا يجب عليكم أن تذكروني وتشكروني.

ثم إن إرسال الرسول ﷺ كان لأجل غايات سامية ووظائف عظيمة، منها:

الغاية الأولى من بعثته ﷺ: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ كل الآيات والبراهين، وتشمل الآيات القرآنية والمعجزات الحسية، التي تُبيّن لكم الحق من الباطل والهدى من الضلال، وتؤكد على صدق رسوله، في جميع ما أخبر به ﷺ من الأحكام والغيبيات.

(1) في المعجم الوسيط: " مَا أنعم بِهِ من رزق وَمَال وَغَيره، وَالْحَال الْحَسَنَة والصنيعة وَيُقَال لَك عِنْدِي نعْمَة لَا تنكر منَّة وَفضل".

الغاية الثانية من بعثته ﷺ: ﴿**وَيُزَكِّيكُمْ**﴾ والزكاة هي الطهارة، ولم يقل: يزكي عقيدتكم أو عباداتكم أو أخلاقكم، بل كانت مطلقة حتى تشمل كل أنواع الطهارة؛ المادية البدنية والمعنوية القلبية والفكرية والعقلية، وهذا يدل على أن شريعة محمد ﷺ كلها تزكية للأمة من كل أرجاس الجاهلية، وتنمية لأخلاقها، ودعوة إلى إعمار الأرض المبني على أساس الحق والعدل، وطاعة الله تعالى.

الغاية الثالثة من بعثته ﷺ: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ**﴾ أي القرآن بألفاظه ومعانيه، وتشريعاته وأحكامه، وكان العرب أُميين لا يقرؤون، ولا يكتبون إلا القليل منهم.

أما الغاية الرابعة: ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ قيل: السُّنَّة، وهي كل ما قاله الرسول ﷺ أو فَعَلَهُ أو أقرّه، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وحُسن التصرف بوضع كل شيء في موضعه اللائق به، بعد أن كانوا في الجاهلية يتصرفون تصرفات هوجاء من عبادة الأصنام، وقتل الأولاد، والبغي على العباد، واستعباد الأحرار وغيرها.

ثم قال تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ أي: أن هذا النبي يُعلمكم أيضًا أشياء كثيرة تنفعكم في حياتكم، دينية أو دنيوية، ويَضبط حياتكم بقوانين لم تكونوا تعلمونها من قبل، كالعبادات الصحيحة، والمعاملات العادلة وحقوق العباد، وغيرها، التي تنفعكم وترفعكم في الدنيا والآخرة.

إذن: كل شيء عَلِمنَاه في هذه الدنيا هو من الله، كما أمرنا بالعلم والتعلم، والتطور وبناء الحضارة، وجعل لنا جوارح لنستخدمها في البحث عن العلم: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (78)﴾ (سورة النحل)، وهذا ما فهمه المسلمون واتجهوا نحوه، يدفعهم حُبّهم لله، وطاعة له، يلتمسون رضوان الله بخدمتهم للناس، فبُنيت بأيديهم الحضارة وتقدّمت، ولا ننسى قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ (البقرة: 282).

***

ثم يقول تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾

والآية عامة تشمل معاني كثيرة، قيل: اذكروني بحقي عليكم أذكركم بحقكم عليَّ، اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وبرحمتي.. اذكروني بالتوحيد أذكركم بالجنة، واذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة، واذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء، واذكروني بالدعاء أذكركم بالاستجابة، واذكروني في الدنيا أذكركم في الدنيا والآخرة.. اذكروني في أنفسكم أذكركم في نفسي، اذكروني في الناس أذكركم في ملأ خير منهم، اذكروني في كل أحوالكم، أذكركم في كل أحوالكم.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ هذا أمر آخر من الله تعالى لجميع المسلمين أن يشكروه على هذه النعم العظيمة التي أكرمهم بها وأتمها عليهم.

وشكر النِّعَم باللسان والجوارح معروف، فلا تستخدم هذه النعم فيما لا يُرضي الله، أما الشكر بالقلب فهو أن يعتقد الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله عزّ وجلّ وحده، فإن الإنسان إذا شعر بأن هذه النعمة من الله أحبه، فالنفوس مجبولة على محبة من يحسن إليها ، وروي في الحديث: (**أحبوا الله لما يَغْذُوكم به من نِعَمِه**) (أخرجه الترمذي).

﴿**وَلا تَكْفُرُونِ** (152)﴾ فيه تحذير من الله لهذه الأمة، حتى لا تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة، إذ كفرت بأنعُمِ الله، واستخدمت هذه النعم فيما يُغضبه، فإن اليهود – مثلاً– قد استخدموا نِعمة العقل والجوارح في تحريف كتابهم المقدس، واستخدموا نعمة القوة في ظلم الآخرين واحتقارهم واحتلال أرضهم وتهجيرهم من ديارهم.

وكُفران النعمة من الذنوب العظيمة التي يُعاقب عليها ربنا تبارك وتعالى في الدنيا قبل الآخرة، لذا: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** (112)﴾ وكان السبب أنهم كفروا بنعمة إرسال الأنبياء إليهم، فقد قال بعد ذلك: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** (113)﴾ (سورة النحل).

۞ ۞ ۞

وسائل نافعة تُعين على الصبر (153- 157).

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (153)﴾.

نزلت هذه الآية قبل الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر الكبرى التي هي نموذج عملي للاستسلام لرب العالمين وطاعته، وهذا أول اختبار حقيقي بعد تحويل القبلة، فقد كانت غزوة بدر بعد حوالي شهر أو شهرين، فيقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ فإذا أردتم أيها المؤمنون شيئاً يُعينكم على طاعة أوامر الله والثبات عليها، فإن الصبر والصلاة تُعينكم وتساعدكم على ذلك.

﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ**﴾ لأن الثبات على الحق يتقترن بالبلاء والمصائب، ولا دواء لتحمل المصيبة، ومقاومة الأعداء، وتربية الأبناء كما يريد الله، والحصول على لقمة العيش بالحلال وأي ابتلاء يُبتلى به إلا بالاستعانة بالصبر، الذي يُقوي الإرادة ويُعين على الثبات، وفي الصحيحين قال ﷺ: (**حُفَّت النار بالشهوات**) وهذا يحتاج إلى صبر وعزيمة لمقاومتها (**وحُفَّت الجنة بالمكاره**)، وهذا يحتاج أيضاً إلى صبر للثبات، لهذا جعل الله التواصي بالصبر صفة لأهل الإيمان الناجين من الخُسران، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ** (2) **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** (3)﴾ (العصر).

﴿**وَالصَّلَاةِ**﴾ وهي الارتباط بالله تعالى من خلال الاتصال به وتفريغ الأوقات للسجود والركوع له، تعظيماً وإجلالاً، وهي أم العبادات، وهي طريق استشعار هيبة الله وجلاله، وهي مفزع الخائفين، وسبيل تفريج الكروب، واطمئنان النفوس، قال ﷺ: (**جعلت قُرَّة عيني في الصلاة**) (أخرجه النسائي)، و"إذا استعان المؤمن بالصبر والصلاة التي تملأ القلب خشية وخشوعا لله، وتبعد النفس عن الفواحش والمنكرات، هانت عليه المصاعب، وتحمّل كل شدة ومشقة، وقاوم كل عناء وكرب".

﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ معهم بالتثبيت والتمكين، ولا يزال معهم حتى يغفر لهم: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ (هود:11) ثم يُدخلهم الجنة: ﴿**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ (المؤمنون: 111).

➤ لاحظوا أن الله تعالى قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (153)﴾ ولم يقل: (إن الله مع المصلين)؛ لأن الصلاة أيضاً تحتاج إلى صبر، وقد خُصّ الصبر والصلاة بالذِّكر لأن الصبر أشد الأعمال القلبية على البدن، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه، إذ فيها خضوع واستسلام لله، وتوجُّه بالقلب، واستشعار لعظمة الخالق.

وكان الرسول ﷺ يُطبّق ذلك عملياً، وفي كل أنواع الصبر: الصبر على الطاعات، فيقوم كل الليل أو نصفه أو ثُلثه. والصبر على المعاصي، حيث أنه لم يعص ربه رغم كل المغريات، وهذا يُذكرنا برفضه مغريات قريش المادية كالمال والجاه وغيرها، وأعلنها مُدوّية: (**والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يُشْعِلَ أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار**)[1]. والصبر على صروف الدهر، والابتلاءات، والجهاد في سبيل الله، وموت أولاده...

وكان أيضاً يستعين بالصلاة دائماً، فالصلاة لها تأثير عجيب في هدوء النفس وراحة البال، وعند أبي داود: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى) لأجل أن يرتاح.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ... (154)**﴾. نزلت في قتلى بدر، وكانوا بضعة عشر رجلاً، والسبب أن الناس كانوا يقولون للرجل يُقتل في سبيل الله: مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها، فأنزل الله هذه الآية.

فالله تعالى يُخبرنا أن من ثبت على دينه، وصبر حتى لقي الله مقتولاً في سبيل الله، بأنهم أحياء في قبورهم وليسوا أمواتًا، كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (169)﴾ (سورة آل عمران)[1].

قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ** (154)﴾ أنتم لا تشعرون بهذا لأنكم ترون بأعيُنكم أنه مات، لكن الحقيقة أنهم أحياء حياة لا نعلمها، وهذا من الأمور التي لم نكن نعلمها كما في الآية السابقة: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾.

---

(1) انظر فقه السيرة ص 118، والسلسلة الصحيحة رقم 92، وهو أصح من حديث: (لو وضعوا الشمس في يميني...)..

(1) قال د. الزحيلي: "هم أحياء في قبورهم حياة ذات طراز خاص ومعالم خاصة، ويرزقون رزقا على كيفية، الله أعلم بها، ولكنّا لا نستطيع إدراك حقيقة تلك الحياة بميزان الحسّ المشاهد، فهي حياة غيبية، في عالم آخر، وطراز آخر، وكلّ ما في الأمر أن الله تعالى أخبرنا عنها، فلا نبحث عنها، ويجب الإيمان بها" التفسير المنير ج 1 ص 402.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)**﴾.

فالله تعالى سوف يختبرنا، فيبتلينا بابتلاءات، وقد مَضَت سُنَّة الله جل وعلا واقتضت حكمته أن يبتلي الناس؛ ليميز الصابر من الجازع، والمؤمن من الكافر، وهنا يُعَدَّد بعض أنواع الابتلاء: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾..

والابتلاء يشمل كل نواحي الحياة، لهذا كان النبي ﷺ نموذجًا للقتداء به، فقد حوصر ومن معه، وزلزلوا زلزالاً شديداً، ومرضوا، وحزنوا، ودفنوا أولادهم، وفي عهد الصديق كانت فتنة الردة، وفي عهد عمر كان الطاعون، وغير ذلك، وقد يبتلى الإنسان بفقد ماله، أو أهله، أو قرابته، أو شيئاً من صحته، أو عضو من أعضائه، لذا قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ بُشرى تزيد إيمانهم، وتُقوّي عزائمهم، وترفع درجاتهم، وتدفعهم إلى الثبات على استقامتهم واستسلامهم لأمر الله تعالى.

ثم يُعلمنا ربنا تبارك وتعالى كيف نكون صابرين، فيقول جل جلاله: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)**﴾، فينبغي للمسلم عند تلقي البلاء أن يُطيع ربه ويقول كما أمره: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ**﴾ وهذا اعتراف كامل بأننا عبيد لله، ولا حول لنا ولا قوة لنا إلا به، وهو ربنا يفعل بنا ما يشاء، ﴿**وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ يومًا ما فيثيبنا على صبرنا، وهذا منتهى التسليم لرب البرية جل جلاله.

تنويه مهم: يجب أن يكون المسلم صادقًا مُخلصًا في قوله: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ ولا يقولها مع تَسَخُّط وكراهة، قال الراغب الأصفهاني: "وليس يُريد بالقول اللفظ فقط، فإنَّ التلفظ بذلك مع الجزع القبيح وتَسَخُّط القضاء ليس يُغني شيئاً".

ثم يُبيّن ربنا تبارك وتعالى جزاء هؤلاء الصابرين، فيقول ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)**﴾ والصلاة من الله تعالى رحمة ومغفرة وحُسن ثواب، وقال: ﴿**صَلَوَاتٌ**﴾ بالجمع لمضاعفة هذا الكرم، أي: رحمة بعد رحمة، ومغفرة بعد

مغفرة، وكرم بعد كرم، وإحسان بعد إحسان، ثم أكد ذلك فقال: ﴿**وَرَحْمَةٌ**﴾ المزيد من الرحمات والخيرات والبركات.. فمن كرمه أنه وفقهم للصبر وللثبات، ومن كرمه أنه يجزيهم بدخول الجنة بغير حساب.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ الذين اهتدوا إلى طريق الحق والخير في الدنيا، ويوم القيامة يهتدون إلى طريق الجنة.

۞ ۞ ۞

السعي بين الصفا والمروة (158).

تم تحويل القبلة، وهنا يُبيّن ربُّنا بعض أحكام هذا البيت المعظم الذي بدأ المسلمون بالتوجه إليه، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ والصفا والمروة جبلان عند الكعبة، (والشعائر) جمع شعيرة، وهي ما جعله الله من معالم وشرائع الدِّين، التي يُتَعَبّدُ له بها، فقد جعل هذان الجبلان من المعالم المهمة التي يُتعبّد بالسعي بينهما.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ**﴾ يعني: أيُّ إنسان توجه إلى مكة حاجاً أو مُعتمراً ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ فليس عليه من الإثم شيء إذا تَطَوَّف بين الجبلين، أي سعى بينهما، والسعي بينهما ركن من أركان الحج والعمرة على الأرجح، لأن النبي ﷺ قال: (**اسعوا فإن الله كَتَبَ عليكم السَّعي**) (أخرجه أحمد).

سؤال: لماذا قال: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾، ولم يقل: (فليتطوف بهما) أو: (عليه أن يطوف بهما) بالأمر؟ ما دخل (الإثم) في مسألة السعي؟

الجواب: سبب النزول: أنهم في الجاهلية وضعوا على الصفا صنمًا وعلى المروة صنمًا آخر، وكانوا يسعون بين الصنمين ويتمسحون بهما، وبقيا إلى ما بعد البعثة، فكان المسلمون يشعرون بالحرج من السعي بينهما بسبب الأصنام، فنزلت هذه الآية. فمسألة الجُناح أو الإثم إنما جاءت لأن الناس كانوا يخشون الإثم في سعيهم، ويخافون على عباداتهم من عدم القبول، لكن الله تعالى طمأنهم وأخبرهم بأن عبادتهم صحيحة، ولا يوجد إثم ما دُمتم ترجوا بطاعتكم رضا الله وامتثال أوامره.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا**﴾ أي: عَمِلَ طاعة، وليس من (التطوع) الذي هو النافلة أو العمل غير الإلزامي، فإن كل إنسان عمل عملاً فيه أي طاعة لله، سواء كان فرضاً أو نافلة، فردياً أو جماعة، سراً أو علانيةً ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ**﴾ يشكر الله له هذا العمل، وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر مما يستحقه على عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿**عَلِيمٌ** (157)﴾ من أسمائه الحسنى أيضاً، وهو صيغة مبالغة، لبيان سعة علمه جل جلاله، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ويعلم ما في القلوب والعقول، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن.

سؤال: ألا يجب أن نطوف بالصفا والمروة كطوافنا بالبيت، لقوله: ﴿**يَطَّوَّفَ بِهِما**﴾؟

الجواب: لا، لأن سنة النبي ﷺ فَسَّرت لنا كيفية التطوف بهما، وهو السعي بينهما، وليس كالكعبة، فالله تعالى يقول: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (44)﴾ (سورة النحل)، وقد قال ﷺ: (**خُذوا عني مناسككم**) (متفق عليه)، والسُّنة النبوية -كما هو معروف- تُفَسّر كثيرًا مما ورد في القرآن الكريم.

۞ ۞ ۞

ترغيب بني إسرائيل في التوبة (159-162).

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** (159)﴾.

شَرَعَ الله لنا الدينَ وأكمَلَهُ، وأتم علينا النعمة، وبيّنَ لنا الشرائع والأحكام والأخلاق، وعَلَّمنا ما لم نكن نعلم، وجعل هذا الدين طريقًا لهداية كل الناس، وقد تَكَفَّلَ بحفظ دينه، فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (9)﴾ (سورة الحجر).

كما أمر ربنا تبارك وتعالى بنشر هذا الدين وتبليغه لكل الناس، وأرسل لهذه الغاية الرسل، وأنزل الكتب، وأمر بالجهاد والتضحية لأجل هذه الغاية العظيمة، لكن بني إسرائيل ما استجابوا لأمر ربهم، فما بَلَّغُوا دينه، بل كتموا الحق عن عامة شعبهم، لذلك

يُحذّرنا من السير على ما ساروا عليه في كتمان الحق: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى**﴾ أي: اعلموا أيها الناس أن الذين يكتمون ويُخفون ما أنزل الله من العقائد والأحكام والشرائع والعبادات والعلم النافع الذي يهتدي به الخلق إلى عبادة الله عزّ وجلّ ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ**﴾ أي: كتموه بعد أن أنزله الله مُفَصَّلاً في كُتُبِهِ على الأنبياء، ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ لكل الناس، كي يكون سببًا في إيمانهم.

﴿**أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ**﴾ أي: أن عقاب هؤلاء أن يلعنهم الله، واللعن هو الطرد والإبعاد عن كل خير، ﴿**وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ من الناس، فإن من تَبَيَّنَ له الحق سَيَلعن من كان قد أخفى عنه الحقيقة، وأخفى عنه أحكام الله وشرعه، فَحَرَمَهُ من نعمة طاعة الله التي هي أكبر نعمة على الإنسان، وأوقعه في الشرك والكفر، فَبَدَل من أن يتعلّموه ويُعلموه للناس؛ كتموه وأخفوه عنهم.

﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)**﴾ فمن رحمة الله تعالى أن فتح باب التوبة حتى لهذه الفئة من الناس، لكن بثلاثة شروط:

(1) ﴿**تابُوا**﴾ فأقلعوا عن هذا الذنب، و ندموا، وعزموا على عدم العودة إليه.

(2) ﴿**وَأَصْلَحُوا**﴾ أتبعوا هذه التوبة، بالعمل الصالح وساروا في طريق رضا ربهم.

(3) ﴿**وَبَيَّنُوا**﴾ للناس الحقيقة، ووضحوا لهم ما كانوا قد كتموه عنهم، وهو من باب ردّ الحق لأهله، وإصلاح ما فسد بسبب كتمانهم.

فمن فعل هذا: ﴿**فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ أي أقبل منهم هذه التوبة، ﴿**وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات، وصيغة المبالغة لتعظيم كرمه جل جلاله وعفوه ومغفرته وتوبته ورحمته، فما أكرمك يا رب وما أرحمك.

۞ ۞ ۞

ثم يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161)**﴾. هؤلاء هم الفريق الآخر، الذين ما تابوا إلى الله، وما أصلحوا أعمالهم كما يُريد الله، وما بَيَّنوا للناس طريق الحق والهداية، وماتوا وهم

على هذه الحالة، أي أن حياتهم خُتمت بالكذب على الله: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** (161)﴾ وهذا تعريف (للاعنين)، فمن هم اللاعنون الذين ذُكروا في الآية السابقة؟ هم: الملائكة والناس أجمعين. ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ خالدين في اللعنة، وخالدين في النار، قال المفسرون: "وقد أُضمرت تفخيمًا لشأنها وتهويلاً لأمرها".

﴿**لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**﴾ لا يُخففه الله عنهم ولا حتى يوماً واحداً، ﴿**وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** (162)﴾ أي: لا يُؤَجِّل الله لهم العذاب، بل يبدأ من لحظة موتهم، فَيُعَذبهم بخروج الروح، وفي قبورهم، ويوم الحشر والحساب، ثم يوم القيامة.

وقد يكون معنى ﴿**يُنْظَرُونَ**﴾: أي: لا يُسمح لهم أو لا يُعطون فرصة للاعتذار، كما قال تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾.

ونلاحظ هنا قوله تعالى: ﴿**وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ فإن من لم يَمُت بعدُ فإنه لا تزال أمامه فرصة ليكون من الفئة الأولى التائبة الصالحة المُبيِّنة.

۞ ۞ ۞

الواحد الأحد وحده يستحق العبادة (163).

قوله تعالى: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** (163)﴾.

هذه قاعدة عظيمة من قواعد الدين، بل أعظم قاعدة، إنها التوحيد وهو أصل الدين الإسلامي، ، فلما ذكر الله تعالى تحريم كتمان العلم الشرعي أخبر سبحانه عن أول وأولى شيء يجب تبليغه وعدم كتمانه وهو توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، وهذا أول شيء كَتَمَهُ اليهود والنصارى وأخفوه عن الناس، وأمروهم أن يعبدوا معه آلهة أُخرى، لهذا قال تعالى يُخاطب كل الناس: ﴿**وَإِلَهُكُمْ**﴾ فهو إلهكم الذي يجب عليكم عبادته وطاعته، المعبود حُبًّا وتعظيمًا.. ﴿**إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ لا شريك له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، واحد أحد، فرد صمد[1].. وكل عبادة لسواه باطلة.. وكل عبادة مخالفة لما أمر به باطلة أيضًا.

(1) الصمد اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم، أو: هو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها وأحوالها.

وهذه الآية خطاب للكفار والمشركين، يقول الله لهم: اعلموا أنه لا يستحق العبادة سوى الله الواحد الخالق، فكل ما دونه مخلوق، فلا تعبدوا غيره، ولا تُشركوا به أحدًا.

وهو خطاب لأهل الإيمان أيضًا يقول لهم: لا تنخدعوا بأهل الشرك.. ولا تُطيعوا من يأمركم بعبادة المخلوقات واثبتوا على عبادة الخالق جل جلاله..

هذا الإله: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾ هذه كلمة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وكلمة التوحيد فيها نفي وإثبات، (لا إله) نفي أي إله يُعبد في هذا الكون كله.. و(إلا الله) إثبات الأُلوهية لله تعالى وَحدَهُ، لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، ولا فِي مُلكِهِ.

﴿**هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ وهو أرحم الراحمين جل جلاله، يتقبل منهم، وإن كانوا عُصاة، وكأن نهاية الآية ترغيب في التوبة إلى الله، فألوهيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ (سورة الفاتحة)؛ فإن ذِكْر هذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.. فكل شيء في هذه الدنيا مصبوغ برحمة الله تعالى، التي وسعت كل شيء.. فقد خلق الناس برحمته.. ورزقهم برحمته.. وسترهم برحمته.. وأرسل الرسل برحمته.. وأنزل الكُتب والشرائع برحمته.. فعقيدة الإسلام كلها رحمة.. وعباداته كلها رحمة.. وأخلاقه ومعاملاته كلها رحمة.. رحمة بالضعفاء قبل الأقوياء، وبالفقراء قبل الأغنياء، وبالنساء والأطفال قبل الرجال، وبالشيوخ قبل الشباب، حتى الحيوانات شملتها الرحمة، يقول ﷺ: (**إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الأَرْضِ رَحْمَةً، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ**) (أخرجه مسلم).

۞ ۞ ۞

الله الخالق (164-165).

الله جل جلاله هو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا شريك له، ودليل ذلك أنه خالق كل شيء، وجعل خلقَه دليلاً على وحدانيته وتفرُّده بالملك والألوهية، فَيَذكُر تبارك وتعالى هنا بعض الأدلة الواضحة التي لا يُمكن لأحد أن يُنكرها:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقد اعترف كل الناس أن الله هو خالقهما، حتى المشركين: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (سورة الزمر:38)[1].. خَلَقَها على غير مثال سابق بما فيها من أجرام عظيمة، ونجوم وشموس وأفلاك لا نتصوّر -حتى مجرد تَصَوُّر- حجمها.. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بما فيها من مخلوقات، "فقد أودع فيها ما أودع من منافع الخلق وضروراتهم وحاجاتهم ما نعلمه وما لا نعلمه، فجعلها مهادًا لتنتفعوا بما فيها من خيرات"، ليست للبشر فقط، بل لكم ولأنعامكم أيضاً[2].

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يخلف أحدُهما الآخر، أي: يأتي كل واحد منهما بعد الآخر، كما يختلفان في الطول والقصر، فينتج عن ذلك الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم، وقد يكون اختلافهما أن هذا نور وذاك ظلام ولكل منهما فائدته ووظيفته، فقد جعل الله تعالى النهار معاشًا، والليل لباسًا. ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الله القادر وحده الذي جعل البحر مُسَخَّرًا للناس فيحمل السُفن التي تحملهم وبضائعهم، ومنافعهم، وما تصلح به أحوالهم.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو الذي أنزل لكم الغيث الذي يُحيي به الأرض، بعد أن كانت ميتة، وفي هذا تذكير بقدرته تعالى على البعث، وقد سأل رجُلٌ رسولَ الله ﷺ: كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: (**أما مررتَ بوادٍ ممحل ثم مررت به خضراً**)؟ قال: بلى. قال: (**كذلك يُحيي الله الموتى**) (أخرجه أحمد).

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ وهو الذي خلق كل دابة تدُبُّ على الأرض، من إنسان وحيوان.. (بَثَّ فيها) يعني: نشر في كل الأرض.. أينما تذهب تجد الخير والنعمة والرزق.. تجد أُناس ومخلوقات لا تعلمهم، مختلفي اللغات والأشكال والألوان.. وهؤلاء كلهم هو الذي خلقهم، وهو القائم بأرزاقهم، والمتكفل بأقواتهم.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ وصَرَّف لكم الرياح التي تحمل لكم الخير والمطر مُنوَّعة ذات فوائد، فتحمل حبوب اللقاح للمزروعات، وتدفع السُّفُن في البحر والنهر، وتحمل

(1) تكرر معنى هذه الآية في أربع مواضع في القرآن الكريم: العنكبوت 61، لقمان 25، الزمر 38، الشورى 9.

(2) قال الإمام البغوي: "﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذَكَرَ السَّمَاوَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَالْأَرْضَ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ لِأَنَّ كُلَّ سماء مِنْ جِنْسِ آخَرَ، وَالْأَرْضُونَ كُلُّهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ التُّرَابُ". تفسير البغوي ج 1 ص 195.

السحاب والغيث، وتُرطّب الأرض... هذا كُلهُ تصريفٌ للرياح لا يقدرُ عليهِ إلا الله. ﴿**وَالسَّحَابِ**﴾ الغيم ﴿**الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي: المُذَلَّل لأمر الله تعالى، فيسير بأمره إلى حيث أراد، ويُفرغ ماءه حيث شاء الله، وبالقدر الذي أراده الله، وسمي سحابًا لأن الريح تسحبه و تسير به بسرعة، وهو فقط -ولا أحد غيره- يمكن له ذلك.. مهما بلغت قوته.. ومهما وصل في التكنولوجيا والحضارة، لذلك ختم الآية بقوله:

﴿**لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (146)﴾ هذه كلها آيات عظيمة يعتبر بها أصحب العقل، وأصحاب الفهم، فالكون يسير بانتظام وتدبير، وتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه، فتظهر فيه قدرة الله، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، فهو وحده المستحق أن يعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا...** (165)﴾.

بعد التأكيد على وحدانية الله تعالى وأحقيته بالعبادة، وإقامة البراهين الواضحة الجلية على ذلك، ورغم كل هذه النعم العظيمة التي أنعم الله على البشرية كلها، إلا أن هناك بعض الناس يُخالفون الفطرة والعقل السليم فَيُشركون معه غيره، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾ يعني بعض الناس ﴿**مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا**﴾ لفظ (دون) إما من الدّونية، أي: بعض الناس يُشركون معه آلهة وهي مجرد مخلوقات دنيئة لا تستحق العبادة. أو من الدنوّ بمعنى القُرب، أي أن هذه الأنداد أقرب إليهم من الله في الحُب والعبادة.

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا**﴾ وهذا من أعجب العجب؛ إذ كيف يُعبَد من لا يستحق العبادة؟ كيف يُشرَك مع الخالق من هو مخلوق؟! لهذا كان الشرك من أكبر الكبائر، حتى أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ أن يسألهم هذا السؤال الاستنكاري الذي يدفع إلى التعجّب: ﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (76)﴾ (سورة المائدة)؟!

فما من شيءٍ -بشر أو غير بشر- يُمكن أن يكونَ ندًا لله، لأنه هو الخالق، وغيره مخلوق، وهو الرازق ومن عداه مرزوق، وهو الغني وما دونه الفقراء، وهو الكامل، والعبيد

ناقصون ضُعفاء، بيده النفع الضُّر، والمخلوق لا يملك من الأمر شيء. وقد ينسحب لفظ (النّد) على رؤسائهم الذين يتبعونهم، فيطيعون أوامرهم المخالِفَة لأمر الله ويُفَضلون قولهم وقوانينهم على قول الله، حيث وصفهم الله بأنهم (أرباب) لهم، فقال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ... (31)**﴾ (سورة التوبة).

﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**﴾ يُحبون هذه الآلهة أو هؤلاء الأنداد كما يُحبّ المسلمون الله. أو أن حُبهم لآلهتهم هذه يكون مثل حُبهم لله تعالى خالقهم.

وهذا حُبّ غريب! فإنهم يُحبونها رغم أنهم يعلمون أنها عاجزة عن النفع والضَّرّ، فقوم إبراهيم ﷺ بعد أن أقام الحُجة عليهم وأثبت لهم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تَضُر وليس فيها فائدة؛ عندها ﴿**فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ**﴾ لكن حُبهم الأعمى دفعهم للقول: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68)**﴾ (سورة الأنبياء).. آلهتكم!!!

لكن: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ**﴾ فَحُبهم أصدق وأثبت وأدوم، لأنهم لم يختاروا على الله سواه، لعلمهم اليقين أن كل ما دون الله مخلوق ضعيف لا ينفع نفسه.

﴿**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعًا**﴾ لو رأوا وعاينوا في الدنيا العذاب الذي أعده الله لهم في الآخرة لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، وأن شُركاءهم ضعفاء، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ**﴾ (سورة الرعد:16).

ولاحظ هنا اللفظ (الذين ظلموا) فقد وصفهم بالظلم لأن أعظم ظلم هو الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة لقمان:13).

﴿**وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)**﴾ وسيعلمون هناك أن عذابه شديد لا طاقة لهم به.

وفي قراءة (وَلَو تَرَى) على أن الخطابَ للرسول ﷺ أو لكل الناس، فيكون المعنى: لو أنك ترى أيها السامع حال هؤلاء عندما يرون العذاب يوم القيامة لعلمت يقينًا أن القوة لله جميعاً، وأن عذاب الله شديد.

۞ ۞ ۞

البراءة يوم القيامة (166-167).

قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166)**﴾. . فكلّ الآلهة المزعومة التي يعبدها المشركون مخلوقات.. وهو الخالق العظيم الذي خَلَقَها.. هو ربّ الحجارة والشمس والقمر، وربّ النور والظلمة، ورَبّ الإنس والجِنّ والملائكة.. وسيجمع كل من عُبدَ من دونه يوم القيامة مع من عَبَدوهُم، وسيسألهم: لماذا عَبَدَكُم هؤلاء؟ هل طلبتم منهم ذلك؟ هل قبلتم منهم ذلك؟ عندها يتبرؤون من أتباعهم.. ويقولون: لم نأمُرهم ولم نقبل بذلك.

وما يُعبد من دون الله تُقسم إلى ثلاثة أقسام: (1) قسم عُبِدوا وهم يقبلون أو يأمرون بذلك كفرعون والنمرود (2) قسم عُبِدوا وهم لا يستطيعون الرفض كالحجارة والشمس. (3) قسم عُبِدوا وهم لا يقبلون ذلك، كالملائكة، وعيسى ﷺ، والصالحين من الناس الذين صُنعت لهم تماثيل وأصنام.. وكُلّهم يتبرؤون من أتباعهم.

يقول تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا**﴾ كل المعبودات من دون الله، يتبرؤون يوم القيامة ﴿**مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا**﴾ من كل أتباعهم.. مهما كَثُرُوا فلا وزن للعدد هناك.. مهما كانت قوتهم فلا وزن للقوة هناك.. يَتَبَرَؤون منهم ويُكَذّبونهم، ﴿**وَرَأَوُا الْعَذَابَ**﴾ أي: عندما يرون العذاب الذي أعدّه الله لهم ولمن عَبَدَهُم..

قال تعالى: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166)**﴾ أي: تقطّعت بهم كُلّ سُبُل النجاة والعلاقات والصحبة والقرابين التي كانوا يتقربون بها لهذه الآلهة المزعومة، لهذا قال الله تعالى لكل إنسان: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106)**﴾ (سورة يونس)، فينبغي أن يكون شعارنا: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ**﴾ (سورة الأنعام:71).

ملاحظة: لاحظ اللفظ: ﴿**الَّذِينَ اتُّبِعُوا**﴾ ولم يقل: تتبرأ هذه الآلهة ممن عَبَدَهَا، أو: تتبرأ آلهتهم منهم، وهذه لَفتَة جميلة جِدًّا تدُلّ على أن المُتَّبَعِين قد لا يكونوا آلهةً تُعبَد، وإنما أسيادًا يُتَّبَعُون، أو أحبارًا ورُهبانًا يُشَرّعون، أو مشايخ وعُلماء سوء يُقتدى بهم، أو

غير ذلك، فَكُلّ من زَيَّنَ الكُفر والفحشاء والمعاصي لغيرهِ سيتبرَّأ ممن اتبعه، حتى إبليس عُمدة الإغواء والضلال سيتبرأ من أتباعه، فلن يستطيع أن يُنقذ أحداً، ولا حتى نفسه.

أما الطرف الآخر: الذين عَبَدوا غير الله واستجابوا لتعليمات أسيادهم.. واعتمدوا في البرلمان قوانينهم المُخالِفَة لشرع الله فَإن لَهُم كلام أيضًا، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**﴾.. هذا يوم الحسرة والندم.. يوم الذلّ والهوان.. هنا يتمنى الأتباع أن يُرَدّوا إلى الدنيا كي ينتقموا ممن أضَلّوهم وأبعدوهم عن طريق الحق: يا ليتنا نُرَدّ إلى الدنيا كي نكفر بمن صَدّقنا كلامهم.. وانخدعنا بأقوالهم وأفعالهم.. وَضَيَّعَ إعلامُهم عقولنا.. يا ليت لنا ﴿**كَرَّةً**﴾ فقط مرة واحدة نرجع إلى الدنيا لنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا الآن.. وادعوا أنهم لم يأمرونا بالسوء والفحشاء والمعصية..

وهنا يقول ربنا تبارك وتعالى تعليقاً على كلامهم هذا: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ**﴾ أي: يُريهم أعمالهم التي عملوها وإجرامهم في حق أنفسهم وفي حق الناس، وكأنه شريط سينمائي يمُرّ عليهم، فيتحسّروا أشد الحسرة. ويُرِيهم الأعمال الصالحات التي تكون سبباً في نجاتهم لو أنهم فَعَلُوها، فإذا رأوها أمام أعينهم تحسروا؛ لأنهم لو فعلوها لنجوا مما هم فيهم.

ثم لاحظوا قوله: ﴿**حَسَرَاتٍ**﴾ فليست حسرة واحدة، بل حسرات كثيرة وندم عظيم: على كل قول حسرة.. وعلى كل فعل حسرة.. على كل صغير حسرة.. وعلى كل كبير حسرة..

ثم يوضّح ربنا السبب الرئيس لحسرة أهل النار فيقول: ﴿**وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)**﴾ خلودهم فيها.. فهذا أكثر شيء يتحسّرون عليه، وهو عدم تحقيق طلبهم بالعودة مرّةً أُخرى إلى الدنيا ليتبرؤوا من أسيادهم وآلهتهم الكاذبة.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُنذر الناس ويُحَذّرهم من ذلك اليوم، فقال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة مريم: 39)، فيجب على كل مسلم أن يُذّكّر نفسه وأهله والناس، ويُحَذّرهم من ذلك اليوم، ويُرَغّبهم في طاعة الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

۞ ۞ ۞

الرازق والرزاق هو الله وحده (168-171).

بيّنت الآيات السابقة أن الإله الحق واحدٌ لا شريك له، وهنا تبيّن أنه هو الرازق الوحيد لكل من على وجه الأرض: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ يا كل الناس.. في كل مكان على وجه الأرض: ﴿**كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا**﴾ يُذكرهم بأنه كما خلقهم فإنه هو الذي يرزقهم، ويُطعمهم، وهذا امتنان منه جل جلاله أن أباح للناس كل شيءٍ حلالٍ في الأرض من خيرات، وجعله ﴿**طَيِّبًا**﴾ تستطيبه أنفسهم، غير ضار للأبدان ولا للعقول.

﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ فهو الذي يُغوي ويرسم طريق الضلال، وجعل له خطوات، فلا تتبعوا خُطواته ولا مخططاته، واحذروا من تزيينه للمعاصي. ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** (168)﴾ (مبين) يعني واضح، فعداوته بَيّنة ظاهرة وواضحة، ومن صفات العدو أنه لا يريد الخير لعدوه، فالشيطان يريد أن يَغُشَّكم، لتكونوا من أصحاب السعير: ﴿**إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ**﴾ (سورة فاطر:6).. فهو أشد الأعداء خطورة، فحذرنا منه غَاية التحذِيرِ.

ثم أخبرنا بتفصيل ما يأمر به هذا العَدُوّ، فقال: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ**﴾، وهو: الشر الذي يسوء صاحبَهُ ويُحزِنُه، فيضُرّ به الآخرين أو يظلمهم، فيدخل في ذلك، جميع المعاصي. ﴿**وَالْفَحْشَاءِ**﴾ وهي ما عَظُمَ قبحه قولاً أو فعلاً، كالزنا، والقتل والقذف ونحوه مما يستفحشه ويستقذره العاقل.. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (السوء) من الذنوب ما لا حدّ فيه، و(الفحشاء) ما وجب فيه الحد. فالمؤمن تسوؤه المعاصي وتَسُرّه الأعمال الطاعات، قال ﷺ: (**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**)[1].

وينهاكم أيضًا عن أمر في غاية الخطورة، وهو: ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ فيدخل في ذلك كل قول على الله بلا علم، فمن زعم أن لله ندًا، وأوثانًا فقد قال على الله بلا علم، ومن أفتى فقال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، وهذا من أكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها.

۞ ۞ ۞

(1) أخرجه الترمذي (2165) وأحمد وغيرهما، وصححه الألباني في المشكاة رقم (6003).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ الآية عامة لكل من اتبع سبيل إبليس، وسار على خطواته التي سار عليها، فاقتدى به، وجعله له إمامًا.. يقول الله لهم: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ لا تسيروا في طريق الشيطان، ولا تتبعوا خطواته، واتبعوا الهدي الذي أنزله الله تعالى على أنبياءه ففيه الهداية والخير ورضوان الله..

لكن هؤلاء لو قلت لهم: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ سيقولون لك: ﴿**بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ ما وَجَدنا آباءنا عليه.. يا للعجب!! ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (170)**﴾؟ ماذا سيفعلون لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا من أمور الدِّين والعقائد والعبادات؟ ماذا سيفعلون لو أن آباءهم لم يكونوا على هداية صحيحة، وطريق سليمة؟ والعقل هو طريق الهداية، فذو العقل السليم الذي يبحث عن الحق لابد أن يهتدي إليه.

وفي هذا ذم للتقليد الأعمى، فيجب على المسلم أن يتعلم عقيدته وعباداته وأمور دينه، ولا يكون مجرد مقلدٍ. فالتقليد هو: قبول القول بلا حجة، أما الاتّباع: فهو الأخذ بالقول بعد معرفة دليله. لهذا أمرنا الله بسؤال أهل العلم عند الحاجة: ﴿**فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة النحل:43).

تنويه: هناك فرقٌ بين: (ألفينا) و(وجدنا)، فنقول: وجدتُ ضالتي ولا نقول: ألفيتُ ضالتي، فالفعل (ألفى) يُقال للشيء غير المحسوس، و(وَجَدَ) للمحسوس وغير المحسوس، وهنا جاءت كلمة (ألفينا) لأن سياق الكلام عن العقيدة، وهي قلبية غير محسوسة، بينما قالوا: (وجدنا) عندما كان الحديث عن العبادات، وهي محسوسة، والله أعلم.

ثم يضرب الله لهؤلاء مثلاً، فيقول: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ**﴾، ينعق يعني: يصيح، وتُقال للراعي الذي يصيح على أغنامه، ﴿**إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً**﴾ يعني لا تسمع البهائم إلا الصياح عليها ولا تفهم شيئًا، وفي الآية قولان:

الأول: شبَّه الرسول ﷺ بالراعي، وشبه الذين يُعرِضون عن الحق والخير، ويُقلّدون آباءهم تقليدًا أعمى دون التحقق بالدواب، وكأنه جل جلاله يقول: مثل هؤلاء كالأنعام التي يصيح عليها راعيها، فلا تسمع له، ولا تستجيب له، وهو يُريد الخير والسعادة لها.

والثاني: ضرب المثل لهم ولما يعبدون، فهؤلاء الذين يُقلّدون آباءهم أو أحبارهم ورهبانهم في العقيدة والعبادات الخاطئة كمثل الدواب الي تسير حسب صياح راعيها عليها، فتستجيب لمجرد صوت لم تفهم معناه، دون تفكير.

فَهُم ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** (171)﴾ صُمّ عن سماع الحق، ولا يُريدون سماعه، وبُكم عن النطق بالحق، فلا يُريدون قول كلمة الحق، ولا كلمة التوحيد، وهذا الفعل هو فعل الذين ﴿**لا يَعْقِلُونَ**﴾ أي: السفهاء الذين يفقدون نعمة العقل، فالإنسان العاقل يسمع الحق ويتعظ به، ويقول الحق ويعمل به، لأنه ذو عقل راشد.

۞ ۞ ۞

كلوا من رزق ربكم واشكروا له (172-173).

قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (172)﴾ فبعد الخطاب العام لكل الناس أن يأكلوا من كل حلالٍ طيبٍ رزقهم الله إياه، يأتي هنا الخطاب ليخص المؤمنين، تكريمًا لهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾.. خصَّهم لأجل إيمانهم وتصديقهم وامتثالهم لأمر الله تعالى، خصَّهم لأنهم تمسَّكوا بعبادة الله تعالى رغم التضييق والاضطهاد.. رغم كل الفتن والمغريات.. رغم كل الشهوات والشبهات.. خصَّهم بأمرٍ كان قد خصَّ أنبياءه به، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...** (51)﴾ (سورة المؤمنون).. فالشكر هنا هو العمل الصالح والطاعات..

﴿**مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ مما أحله لكم فهو الطيبات، وما حرمه فهو خبيث..

﴿**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ**﴾ والشكر هو: معروفٌ يقابل النِّعمة، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب، وشكر الله: اعتراف كامل أن هذه النِّعم كلها منه وحده، وأن هذه الأنداد التي عبدوها من دونه ليس لها فضل أو قدرة على الرزق.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** (172)﴾ أي: إن الشكر والاعتراف بالفضل من صفات العبد الصالح الصادق مع ربه، وأن من لم يعترف بأن النعم من الله ونسبها إلى غيره لم يكن صادقًا في عبادته، فاشكروه إن كنتم تعبدوه بصدق، وقد يدل هذا أيضًا على أن

أكل الطيب، سبب لقبول العمل الصالح، وأن الشكر يحفظ النِّعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر، يمنع النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ثم توضّح الآيات بعض الأشياء الخبيثة التي حرَّمها الله تعالى، ولا شك أن لتحريمها حكمة بالغة، علمناها أم لا، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ**﴾ و(الميتة) هي التي ماتت من غير ذبح، وقد استثنى الرسول ﷺ ميتتان: (**السمك والجراد**) (ابن ماجة).

﴿**وَالدَّمَ**﴾ وهو الدم المسفوح (المصبوب) دون الذي يبقى في اللحم والعروق والقلب، فقد بيَّنَت ذلك آية الأنعام: ﴿**قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا**﴾ (سورة الأنعام:145)، واستثني النبي منها (**الكبد والطحال**).

﴿**وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ**﴾ وهو حيوان معروف، ﴿**وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ أي ذُبِحَ لغير وجه الله، كالأصنام أو القبور، أو غيرها، أو ذُكِرَ عليه اسم غير الله، مثل أن يقول: (باسم المسيح)، أو (باسم محمد)، أو (باسم جبريل)، أو (باسم اللات)، ونحو ذلك.

﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ**﴾ لجوعٍ شديد أو إكراه، ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ أي يطلبه وهو قادر على نيل الحلال، ﴿**وَلَا عَادٍ**﴾ أي: مجاوز للحد، حيث يأكل أكثر من الضرورة، ﴿**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ لا يلحقه إثم، و"ذلك لأن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة بالموت جوعًا أشد ضررًا من أكل الميتة أو الدم مضطرًا، فالضرورات تُبيح المحظورات، وقال: ﴿**غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ**﴾ حتى لا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار، كمن يشرب الخمر بحجة العلاج .

إذًا؛ فالإنسان المضطر يجب أن يأكل حاجته، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، وهذه الإباحة والتوسعة، من رحمته تعالى بعباده، فلهذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)**﴾ فإذا كان الله تعالى يغفر المعاصي، فأولى أن يغفر في حالات الاضطرار: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة:185).

۞ ۞ ۞

عاقبة من كتم ما أنزل الله (174-176).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ... (174)﴾.

بعد بيان تحريم بعض المأكولات، يُذكرنا ربنا بآية سبقت قبل قليل تهدد وتتوعد من يكتمون كلام الله تعالى ويُحَرّفونه، وينشرون تحريفاتهم على أنها من عند الله، وكأن هذه الآية تخبرنا أن هناك من سيكتمون "تحريم" بعض المأكولات والمشروبات، ويُحلّونها لأنفسهم، أو لشعوبهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد حلل النصارى أكل لحم الخنزير، وهو محرم عليهم، بل ورد في العهد القديم الذي يعتبره النصارى "كتابًا مقدسًا" أنه رجس، كما في سفر أشعياء 65: 4، وفي سفر اللاوين 11: 8، وسفر التثنيه 14 : 7-8.

والخمر أحلوها مع العلم أنه لا يجوز عندهم مجرد النظر إليها (أمثال23: 31)، ونهى عن الجلوس مع من يشربها (أمثال 23: 20).

كما حلل اليهود ما حرمه الله عليهم، كشحوم الأنعام حيث أذابوها واستخدموها زيتًا للدهن. وللأسف فإن بعض المسلمين يُحرمون بعض ما أحل الله لهم، ويُحللون بعض ما حرمه عليهم، مُتبعين بذلك خُطوات الشيطان، ومُقتدين بأهل الكتاب، وهم أولى الناس بالطاعة؛ لأن دينهم الحق، وكتابهم الحق، وكتمان الحق من أكبر الآثام.

يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾** وما فيه من أحكام وشرائع، وأخبار ومواعظ، **﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾** أي: يعملون هذا لأجل مصالحهم الفردية، لأجل ثمن دنيوي: **﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾** يوم القيامة، جزاءًا وفاقًا، فقد أكلوا أموال الناس بالباطل عندما باعوهم كلامًا مكذوبًا على الله تعالى، وأكلوا أموال الفقراء بالربا والاحتيال، كما أنهم أكلوا ثروات الشعوب سرقةً وزورًا، وكل من أكل ما حرّمه الله فإنه سيأكل النار يوم القيامة، **وليست هذه عقوبتهم الوحيدة.**

العقوبة الثانية: **﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** فهو غضبان عليهم، لأنهم كتموا الحق بعدما علموا أنه حق، فاستحقوا الغضب، فلا يُثني عليهم، وأعدَّ لهم عذابًا أليمًا.

والثالثة: ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ من دنس الذنوب بالمغفرة، ويفضحهم على رؤوسِ الأشهادِ.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ باعوا الهُدى الذي ما ينبغي لأحد أن يحيد عنه، واشتروا بدلاً منه الضلالة، ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ كما باعوا المغفرة التي يجب أن يتسابق إليها الناس، واشتروا العذاب.

ونلاحظ هنا الترتيب الرائع في قوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ فالضلال يتبعه العذاب في النار، والهدى تتبعه المغفرة ودخول الجنة.

قال تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (ما) إما تعجبية؛ أي: ما أعظم صبرهم على النار! كيف سيتحملون تلك النار؟! أو: ما أجرأهم على النار! وإن اقترافهم الأعمال التي تُدخلهم النار لأمر عجيب!!

وقيل: (ما) استفهامية، فيكون المعنى: ما هو الشيء الذي يُمَكِّنَهُم من الصبر؟ أو: كيف يصبرون على النار، وكان الأجدر بهم أن يتخذوا وقاية منها لا وسيلة إليها؟

ومن أسباب دخولهم النار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(176)﴾. فسبب ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الرباني عليهم بالنار؛ لأن الله نزل الكتاب بالحق، وما ينبغي لأحد أن يكتم الحق عن الناس، لأنهم بحاجة إليه في حياتهم الدنيا وفي الآخرة، فمن فعل هذا وجبت له العقوبة؛ لأنه سدّ أبواب الخير عنهم.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه حسب أهوائهم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ هؤلاء سيكونون في (شقاق) يعني خلاف ومنازعة، وقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، كما سبق أنهم يتنازعون ويتلاعنون ويتلاومون ويتبرأ بعضهم من بعض. ﴿بَعِيدٍ﴾ يعني: عن الصواب، وبعيد عن الحق.

أو معنى: ﴿بَعِيدٍ﴾ بعيد زمنيًا، أي مدة زمنية طويلة، فخلافهم في الدنيا موجود منذ أن بعث الله عيسى ﷺ، أو من قبله، وأما يوم القيامة فإن خلافهم سيكون أبديًا.

۞ ۞ ۞

معنى البر على حقيقته (177).

قال تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾.

في هذه الآية يُبَيّن الله تعالى معنى مهم جدًا، فقد تحدثت الآيات السابقة عن أحكام شرعية كثيرة، منها تحويل القبلة، والأمر بتبليغ الدين وعدم كتمانه، وتحريم بعض الأطعمة، فأراد الله تعالى أن يُبَيّن أنَّ الأصل ليس الحكم الشرعي بنفسه، بل التصديق والإيمان بمن شَرّع هذه التشريعات وأمر بهذه الأحكام.

وذكر ربنا تبارك وتعالى قضية الاتجاه في القبلة كمثال لأنها كانت ذات وقع كبير على نفوس المؤمنين، واتخذها المشركون وأهل الكتاب والمنافقون ذريعة للتشكيك في دين الإسلام، وفي نبوة محمد ﷺ، فخاطبهم ربنا كلهم، فقال: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ فلا تظنوا أن حقيقة البر مجرد التوجه في الصلاة إلى جهة مُعيَّنة، فهذه الأحكام إنما يقضي بها الله تعالى كما أراد وكما يشاء.

﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ البر الحقيقي الذي يُفضي بصاحبه إلى الجنة هو: الإيمان الصادق بأن الله سبحانه لا رب غيره، ولا إله سواه، يحكم ما يشاء، يفعل ما يريد، وهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الرازق وما سواه مرزوق.

﴿**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ والإيمان به، يدفع الإنسان إلى العمل وامتثال أوامر الله تعالى، ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، وقيام الساعة، والبعث والحساب... وسُمِّيَ باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعده يوم.

﴿**وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾ والإيمان بها يكون تبعاً للإيمان بالله، فمن أمن بالله رباً وإلهاً؛ يسهل عليه الإيمان بوجود الملائكة، وبالكتب التي أنزلها الله، وبالنبيين الذين أرسلهم، فمن آمن بالملائكة التي تكتب كل عمله؛ استقام على البر، ومن آمن بأن هذه الكتب من الله امتثل ما فيها، ومن آمن بِرُسُل الله فإنه لا يخالف شرعهم.

ومن صفات أهل البر أيضًا: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ**﴾ فمن آمن بالله تعالى

وباليوم الآخر وبالنبيين الكرام فإنه يهون عليه كل شيء في سبيل دينه، فتهون عليه العبادات، ويهون عليه الإنفاق في كل ما يُرضي ربه.

لاحظ قوله تعالى: ﴿**عَلَى حُبِّهِ**﴾ فرغم حُبه للمال إلا أنه يهون في سبيل الله.. فأهل الإيمان: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا**﴾ (الحشر:9)؛ لأنهم يفضلون ما أراد الله على أرادتهم، ولو كانوا يُحبونه ويسعون للحصول عليه، ومثل قصة أبي طلحة رضي الله عنه.

ثم تُكْمِل الآية صفات أهل البِر، فيقول تعالى: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ يوفون بعهدهم مع الله، فقد آمنوا به ربًا وما استعانوا بسواه، وآمنوا به إلهًا وما عبدوا غيره، أخذوا على أنفسهم عهدًا بقولهم: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأوفوا بهذا العهد، وكذلك أوفوا عهودهم مع الناس، فكانوا صادقين في كل أحوالهم.

ومن صفاتهم أيضًا: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾، و﴿**البَأسَاءِ**﴾ شدة الفقر؛ فلا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس، ولا يستخدمون وسائل مُحَرَّمة للحصول على المال، و﴿**الضَّرَّاء**﴾: المرض الذي يضر بالبدن؛ فلا تحملهم الضراء على أن يتسخطوا من قضاء الله وقدره؛ و﴿**حينَ البأس**﴾: يعني الحروب، وشدة القتال؛ فلا يولون الأدبار.

فكل من اتصف بهذه الصفات فإن الله يعطيه شهادتين عظيمتين، ووسامين شريفين، بل أعظم شهادة في الدنيا والآخرة لأنها من العظيم جل جلاله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (177)﴾، يشهد لهم الله بأنهم أهل الصدق وأنهم أهل التقوى.

إذًا: البر الحقيقي ليس في حركات الصلاة، وإنما الاستجابة لأمر الله بها، وليس بالجوع، وإنما بالاستجابة لأمر الله بالصيام، وليس في مال تدفعه لفقير، بل هو الاستجابة لأمر الله بالزكاة، فالبر معناه كبير واسع، يختبر الله به إيمان العباد، فلا تجعلوا مسألة التوجه شرقًا أو غربًا هي المشكلة.

۞ ۞ ۞

مثال عملي على العدل الإلهي (178-179).

ذكر الله تعالى -قبل آيتين- أنه أنزل هذا الدين لأجل إقامة الحق والعدل، وهنا يضرب لنا مثالاً على العدل وهو (القصاص)، والقصاص في اللغة: مطلق المساواة والتتبع، وفي الفقه، هو: عقوبة مقدرة شرعًا، تقضي بمعاقبة الجاني بمثل ما فعل.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ الخطاب للمؤمنين الصادقين، وأَتبعوا ذلك بأعمال وعبادات، فحققوا بذلك البِرّ بحقيقته، فإيمانهم يدفعهم إلى تطبيق الأحكام الربانية.

﴿**كُتِبَ**﴾ أي: فُرض، عند مطالبة أهل الحق به، فهذا الحُكم فرضه الله -الذي من صفته العدل- على القاتل وولي الدم، فإذا علم القاتل أن الله شَرَعَ القصاص؛ فإن هذا يفرض عليه أن يُسَلّم نفسه، وعلى أهله ألا يخفوه؛ فعليه أن يتحمل مسئولية فعله، فأمر الله لا يجب أن يرفضه أو يتحايل عليه مؤمن: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... (36)**﴾ (سورة الأحزاب).

﴿**الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ القصاص ليس في القتل فقط، بل في الجروح أيضًا، كما بيّنه الله تعالى في سورة المائدة: ﴿ **وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**... (45)﴾، وهذا من باب العدل الإلهي. فيا من آمنتم بالله وحَسُن إيمانكم، اعلموا أن الله تعالى قد فرض عليكم العدل عندما تحكموا في القتلى، ثم بيَّنت الآية أن العدل يكون بأمرين:

الأول: إذا قَتَلَ شخصٌ شخصًا آخر فإن القصاص يكون من القاتل لا من غيره.

أما الثاني فإن: ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى**﴾ وكانت العرب تتحكم في ذلك بحسب قوة القبائل، فكثيرًا ما كانت تأبى إلا أن تقتصّ من رئيس القبيلة، وربما طلبوا بالأنثى ذكرًا وبالعبد حرّا، وإلا تحاربوا وسفكوا دماء كثيرة، وهذا ظلم، فقتل القاتل هو العدل، لذا وضّحت الآية أن القاتل هو الذي يُقتل، سواء كان حرًا أم عبدًا.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾ فإن عفى ولي المقتول عن القاتل فإن له أن يأخذ الدية مقابل عدم القصاص، ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ أي يطلب حقه في الدية بالمعروف، دون مَنّ ولا أذى، أو تعسُّف، وعلى القاتل في المقابل: ﴿**وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾

بحيث يؤدي الدية دون تأخير، ولا ينقص ولا يُسيء في كيفية الأداء، ويجوز العفو عن الدية أيضًا كما قال: ﴿**وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا**﴾ (سورة النساء:92).

ثم يقول تعالى: ﴿**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ جعل الله تعالى هذه الأحكام تكريمًا من الله تعالى للمؤمنين، ورحمة بهم بحيث خفف عليهم، بالنسبة للأمم السابقة، فاليهود كان عندهم القصاص فقط، والنصارى كان عندهم الدية فقط، فجعل الله تعالى ذلك تخفيفًا لهذه الأمة، فمن شاء اقتص، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفا.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (اعتدى) لها معنيان:

- **الاعتداء الأول**: قَتَلَ بعد أن أخذ الدية، أو بعد أن عفا، فإذا قبل كلا الطرفين بحكم الله تعالى وأشهداه على الحكم فلا يجوز أن ينقض أحدهما العهد مع الله، فيحتال ليقتل، لذا توعد الله تعالى فاعل ذلك بأن له عذاب أليم، ووصفه بأنه (معتدٍ)، وروي في الحديث مرفوعًا: (**لا أعفي من قَتَلَ بعد أخذ الدية**)[1].
- **الاعتداء الثاني**: قَتْلُ غير القاتل، وفي الحديث: (**إنَّ أَعْتَى الناسِ على الله عَز وَجَل: مَنْ قَتَل في حَرَم الله، أو قَتَل غير قاتِله، أو قَتَل بذُحُولِ الجاهلية**) (أخرجه ابن حبان).

﴿**فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ في الدنيا بالاقتصاص منه لأنه قَتَلَ بغير حقَ، أو النار في الآخرة.

ويُستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**﴾: أولها: التحريض على العفو بالتذكير برابطة أُخوَّة الدين التي هي أقوى رابطة بين المسلمين.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (179)﴾. وهنا يُبيّن الحكمة من القصاص، فقد شَرَّعَ الله من العقوبات في الدنيا ما يحقق الأمن ويمنع الفساد والظلم، فتنفيذ القصاص كفًا للقتل، وحقناً للدماء، وشفاء لصدور أولياء المقتول، وتحقيقاً للعدل، وحفظاً للأمة من كل معتدٍ يقتل ويُرعب الأبرياء.

﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ أي: جعل الله تعالى بحكم القصاص حياة للأمة كلها، ففيه بقاء النفوس وصونها، لأنه إذا عَلِم القاتل أنه سَيُقتَل، ارتدع، فيعيش الناس حياة

(1) أخرجه أبو داود (4507) وغيره، وضعفه الألباني في المشكاة رقم 3479.

مطمئنة خالية من الظلم والاعتداء، حياة كريمة تظهر فيها الفضيلة، وتختفي فيها الرذيلة، ويقام فيها العدل، ويختفي فيها الظلم.

وقيل المرادُ بالحياة هي الأُخروية فإن القاتلَ إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة، فكان في القصاص نجاة له من النار، والله أعلم.

﴿**يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ "والذي يُقَدِّر حق الحياة، ويفهم سِرّ تشريع القصاص وما يحققه من مصلحة هم العقلاء. فيقوموا بتحذير الناس من جريمة القتل، فمعنى ﴿**تَتَّقُونَ**﴾ من (الاتقاء) يعني: الحماية والسلامة، يعني يسلم المجتمع.

أو: ﴿**تَتَّقُونَ**﴾ الإثم الناتج عن القتل وجرائم الاعتداء على الآخرين، وتُبعدوا عن المجتمع تبعات هذه الجرائم.

أو: ﴿**تَتَّقُونَ**﴾ من التقوى، فيكون المعنى: يا ألي الألباب قوموا بتطبيق شرع الله تعالى، وأحكامه، وفرائضه التي فرضها، التي منها القصاص، لتكونوا من أهل التقوى.

۞ ۞ ۞

من أحكام الوصية قبل الموت (180-182).

بعد الحديث عن القصاص والموت، تتحدث الآيات عن حكم من أحكام المحتضِر، وهو الوصية، يقول تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾ أي: فرض الله عليكم الوصية، إذا حضر أحد أسباب الموت، كالمرض الشديد، أو التقدّم في السنّ، أو الحكم بالقصاص، وغيره.

﴿**إِنْ تَرَكَ خَيْرًا**﴾ أي مالاً كثيرًا، فَعَلَيهِ ﴿**الْوَصِيَّةُ**﴾، فالوصية الواجبة تكون فيمن خلّف مالاً كثيراً؛ وتقديره متروك للعرف، ، فأما من ترك مالاً قليلاً فالأفضل أن لا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه : (**إنك أن تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**) (متفق عليه) [1].

(1) قالَ رَجُلٌ لأم المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها: إنِّي أريدُ أنْ أوْصِي، قالتْ: كَمْ مالُكَ؟ قالَ: ثلاثةُ آلاف، قالتْ: كم عيَالُكَ؟ قالَ: أرْبَعَة، فقالتْ: قالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿إن ترَكَ خَيْرًا الْوصِية﴾ وإنَّ هَذَا لشيَء يسيرٌ، فاترُكْهُ لِعِيَالِك فهو أفْضَلُ. رواه البيهقي.

وتكون الوصية ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ قيل: الآية منسوخة بآيات الميراث، وهذا يعني أن الوصية كانت واجبة قبل أن تنزل آيات الميراث، أما بعدها فإن كل واحد يأخذ حقه بِحُكم القرآن.

أما إذا كانت مُحكمة فإن المعنى يكون: (الوالدين) و(الأقربين) غير الوارثين، إذ لا وصية لوارث، وهو الأرجح عند معظم المفسرين لإمكان التوفيق بينهما.

وقيل: المقصود بالوصية هنا وصية الله للأمة بإقامة المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء:11)، فيكون المعنى: فلتتقوا الله ولتعملوا بما أوصى الله به في آية المواريث، ولتُعطوا كل ذي حق حقه، ولا يبحث أحدكم عن طُرق يحتال بها على التقسيم الشرعي الذي وصى الله به في آيات المواريث.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالعدل، أو هو ما لا يستنكره الناس: بحيث لا يزيد على الثُّلث، وأن لا يكون وارثًا، وأن لا يُفَضِّل أحدًا على أحد، فهذا ليس من المعروف.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد على ثبوت حكم الوصية، وأن أهل التقوى هم أحق الناس بتطبيق هذا الحكم.

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فلا يجوز لأحد أن يُغيِّر أو يُبَدِّل أقواله في الوصية، والشهود لا يجوز لهم أن يكتموا الشهادة، أو يشهدوا بغير الحق، والوصيّ أو الكاتب لا يجوز له أن يُغيير ويُبدّل فيها، وكذلك الورثة لا يَحُولوا بين المال وبين وصوله لمن أوصى له به صاحب المال، أو يتحايلون لحرمان بعضهم كالنساء.

وقوله ﴿الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ بالجمع يدل على ان التبديل قد يكون باتفاق أكثر من واحد، سواء الورثة أو الشهود أو المحامين، وأنه سيلحقهم الإثم كلهم مهما كان عددهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)﴾ خاتمة تحذيرية، فالمراقبة الإلهية لكل الناس فائقة الدقة، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، وهو عليم بما يدور في الصدور، وما يُحاك في النفس الأمارة، فيعلم ما أوصى الموصي، ويعلم ما بَدَّلت ألسِنَة أو أقلام المبدّلين.

ثم إنه ليس كل الناس من المتقين، وليس كل الناس عادلين -مع أن هذا المطلوب من كل مسلم- فقد يظلم الموصي، أو يتعدى في وصيته على حقوق الورثة، كأن يوصي بكل ماله مثلاً، أو يحرم البنات، فإن هذا لا يصح، لذا حمَّل الله تعالى المسلمين المسؤولية، فقال: ﴿**فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ...** (182)﴾. فمن غلب على ظنه أن الموصي سيقع في الظلم، متعمدًا أو غير متعمد؛ فيحاول الإصلاح:

1) **أولاً**: بين الموصي والورثة، قبل وفاة الموصي، فيُذكره بالله تعالى بِلُطف ولين، وموعظة حسنة، ويرغبه في العدل، وفي الخاتمة الحسنة، والاقتداء بالأنبياء والصالحين.

2) **ثانيًا**: بين الورثة أنفسهم، وهذا بعد وفاة الموصي، فإذا تبين للمُصلح أن الوصية ضارة ببعض الورثة مثلاً، فإنه يتدخَّل للإصلاح بينهم، ويرغبهم في الحق والعدل، وأنه لا يصح تنفيذ وصية فيها حيف أو ظلم لأحد.

فإذا لم يستطع أن يُوفق بينهم لأي سبب: ﴿**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾، بل له ثلاث أجور: أجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجر الصلح، والصلح خير، وأجر منع الظلم.

﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**﴾ يغفر للموصي إذا تاب ورجع إلى الحق في وصيته، ويغفر لورثته إن هم بَرّوا بأبيهم وأصلحوا الوصية كما أراد الله، فيرتاح أبوهم في قبره.

﴿**رَحِيمٌ** (182)﴾ فمن رحمته أن جعل الوصية على الأغنياء، ومن رحمته أنه يَسَّرَ للموصي من يَرُدَّهُ إلى الحق ويبعده عن الظلم، ومن رحمته أنه أوجب الإصلاح في المجتمع على كل فرد، ومن رحمته أنه أثاب على التبديل في الوصية بما يرضي الله ويمنع الظلم والجور.. فهو أرحم الراحمين.

۞ ۞ ۞

من أحكام الصيام وشهر رمضان (183-187).

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (183)﴾، والخطاب هنا أيضاً للمؤمنين؛ لأنهم المكلفون بالأحكام الشرعية، أي: فرض الله عليكم الصيام، وهو: "التعبُّدُ لله تعالى، بالإمساكِ عن الأكلِ والشُّربِ وسائِرِ المُفَطِّراتِ، مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى غُروبِ الشّمسِ". ﴿**كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ**

﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فالصيام ليس خاصًا بأمة محمد ﷺ، بل كان مفروضًا على الأقوام السابقة، والتشبيه هو في حُكم الصيام، لا في الوقت والمقدار، يعني أن صومهم ليس بالضرورة أن يكون مثل صومنا، لكنهم كانوا يصومون[1].

وفي هذا تسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كُلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؟!.. فإن الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شاق هان عليه؛ ولهذا قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ولـولا كـثرة الباكين حـولي *** على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي، ولكن *** أُسَـلّي النفس عنه بالتأسي

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعل هذه العبادة تُنَمّي فيكم بذرة التقوى، فتكونوا من الذين يخشون الله حق خشيته، ويوقرونه حق توقيره، فيُطيعوا أوامره دون جدال أو تردد.

ثم أراد الله أن يُهوّن أمر الصيام على نفوس الناس، فقال: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ يعني: أن عددها قليل معروف، ليست سنينَ ولا شهور، بل هو شهر واحد، ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ مرضًا يتضرر بالصيام، فيمنع أو يؤخر شفاءه، ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ وقال: (على سفر) وليس (في سفر) وقد أخذ العلماء من هذا أن نية الفطر تبدأ بمجرد بَدَءَ السفر أو هَمَّ به، ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي يُعيدها في أيامٍ أُخرى غير رمضان، فيصومها بعد أن يبرأ من مرضه، أو يُقيم من سفره، بنفس عدد الأيام التي أفطرها.

ثم يقول تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يفعلونه بمشقة، فَيَتعَبُون من الصيام؛ لكِبر السّن أو لمرض، عليهم ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ يُخرجونها إذا أفطروا، بمقدار إطعام مسكين، وكأن الآية فيها تخيير، فمن يتعب من الصيام فله أن يُفطر ويدفع الفدية.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ (تطوع) لها معنيان: الأول: زاد على الفدية، فأطعم أكثر من مسكين. والثاني: أن يجمع بين الصيام والفدية كصدقة. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فإن الله تعالى لن ينسى له هذا المعروف، وهذا التطوع.

(1) ورد في التوراة والإنجيل الحالية -المحرفة- عدة فقرات تدل على أنهم كانوا يصومون، وأن صومهم كان عبادة تذلل لله، منها ما ورد في سفر عزرا الإصحاح (8:21)، وفي سفر أشعياء، الإصحاح (58:3)، وفي إنجيل متّى، الإصحاح (17:21) وغيرها.

﴿**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ لها معنيان أيضًا: الأول: فمن يستطيع الصيام، ويتحامل على نفسه؛ فإن الصيام خير له من دفع الفدية، والثاني: أن الإفطار مع قضاء الصيام في أيام أُخر؛ خير من الفطر ودفع الفدية.

﴿**إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)**﴾ إن كنتم من أهل العلم فافهموا هذا الحكم الرباني، وتفكروا في هذا التيسير الإلهي، أو: إن كنتم تعلمون أنكم لن تتأذوا بالصيام فصوموا.

﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ أي: أن الله تعالى اختار لنا شهر رمضان لكي نصومه، لفضل هذا الشهر، ومن فضله أنه أنزل فيه القرآن الكريم ليكون ﴿**هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ فيهدي الناس إلى الطرق المؤدية إلى رضوان الله تعالى والجنة، وفيه من الآيات والأحكام والتشريعات والأخبار الواضحة البينة.

﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ كما أراد الله تعالى، أي: يصوم نهاره، فصيامه فرض لازم، على كل مكلف شهد الشهر، بل هو من أركان ومن أعمدة دين الإسلام.

﴿**وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ تأكيداً لبيان الرخصة، وتوضيح أن هذه الرخصة باقية حتى بعد أن تعين الصيام وتحديده برمضان؛ وهذا من بلاغة القرآن؛ وعليه فليست هذه الجملة من الآية تكراراً محضاً؛ بل تكرار لفائدة.

﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ كل هذه الأحكام، وهذه الرخص، وهذا التخفيف؛ لأن الله تعالى لا يُريد أن يُشدد عليكم، ولا أن يُعَسّر عليكم العبادات، بل يريد بكم التيسير، رحمة بكم.

﴿**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**﴾ اللام للتأكيد، فيجب عليكم أن تُكملوا عدد أيام الشهر، لهذا قال ﷺ: (**لا تَقَدَّمُوا الشهر، حتى تروا الهلال، أو تكملوا العدة، ثم صوموا حتى تروا الهلال، أو تكملوا العدة**) (أبو داود والترمذي)، وَسُمِّي الشهرُ شهرًا لاشتهاره.

﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ**﴾ تكبير الله تعالى تعظيمه وتقديره حق قدره، والتكبير يكون باللسان والقلب باستشعار عظمة الله، وبالجوارح بامتثال أوامره، ومن أسماء الله تعالى: الكبير، فوجب تكبيره، فهو أكبر من كل شيء جل وعلا، فكبروه ﴿**عَلَى مَا هَدَاكُمْ**﴾

فقد هداكم إلى أكمل دين، وأشرف العقائد، وأشرف العبادات، وأشرف الأخلاق، وهداكم إلى كل طريق فيها رضاه، وتؤدي إلى جنته.

﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (185)﴾ فامتثلوا أمر الله لتكونوا من الشاكرين لنعمه.

ثم قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ... (186)**﴾.

ورد في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ سُئل: أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله هذه الآية [1]، أي: يا محمد؛ إذا سألك عبادي المؤمنين عنّي، فقل لهم إني قريب منهم بعلمي وببصري وبسمعي وإحاطتي بكل أحوالهم، فليس بيني وبين أحد من عبادي حجاب يُبعدني عنه: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ (سورة الحديد:4). فإذا أحس العبد بقرب الله تعالى؛ امتلأ قلبه بخشيته، وأحس بأنه سنده، وأنه معه في كل أحواله، فيطمئن قلبه، وترتاح نفسه.

﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ إذا دَعَوني سمعتهم، وإذا عبدوني رأيتهم، فأجيبهم على دعائهم، وأُثيبهم على عبادتهم، قال رسول الله ﷺ: (**والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**) (متفق عليه).

﴿**إِذَا دَعَانِ**﴾ تفيد الإخلاص، أي: دعاني أنا وحدي، فإذا دعا معي أحدًا ما استجبت له، فإن (**من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**) (أخرجه مسلم).

ثم يقول تعالى: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**﴾ في ما أمرتهم به، من العبادات والدعاء وغيرها، والانقياد لشرعي، ﴿**وَلْيُؤْمِنُوا بِي**﴾ إيماناً صادقًا، فإن ذلك أدعى للاستجابة. ففي هذه الآية شرطين لقبول الدعاء: الأول: استعداد بدني، بالاستسلام التام لرب العزة، وطاعته: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**﴾، والثاني: استعداد قلبي، وذلك بالإيمان الصادق، لقوله: ﴿**وَلْيُؤْمِنُوا بِي**﴾، لذا قال ﷺ: (**واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**) (أخرجه الترمذي).

وخُتمت الآية: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** (186)﴾ فالايمان بالله وطاعته، سبب للرُّشد وهو:

(1) القرطبي ج 2 ص 275. وتفسير ابن كثير ج 1 ص 505 وعزاه لابن أبي حاتم.

إصابة الحق، وحُسن التصرف[1]، وهي عكس الغيّ والفساد: فالعبادات إذا مُزِجَت بروح الإيمان كان صاحبها راشدًا مهتديًا، أما إذا كانت مجرد عادات فهي إلى الفساد أقرب.

ثم تعود الآيات إلى ذكر أحكام شهر رمضان والصيام، فيقول تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ**﴾ أي: أَحَلَّ الله لكم؛ لأنه لا يُحلل ولا يُحَرّم إلا هو جل وعلا، ﴿**لَيْلَةَ الصِّيَامِ**﴾ أي: في كل ليلة يتبعها صيام، ﴿**الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾ والرَّفَثُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ، قَالَ ابن عباس رضي الله عنهما: "إن اللَّهَ حَيي كريم يُكَنِّي، كلما ذُكِرَ فِي القُرآنِ مِنَ المُبَاشَرَةِ وَالمُلَامَسَةِ وَالإِفضَاءِ وَالدُّخُولِ وَالرَّفَثُ، فَإِنَّمَا عَنَى بِهِ الجِمَاعَ".

﴿**هَنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ واللباس فيه معنى: (السّتر) فكلاهما ستر للآخر من الحرام والفتن، وتعني (الحماية والصيانة)، وهي إما معنوية كالحماية من الحرام، أو مادية كحماية البيت وأهله مما يؤذي، كما أن اللباس لا غنى عنه لأحد، فإن الأزواج لا غنى لأحد منهما عن الآخر، واللباس أيضًا فيه معنى (القُرب) فكل منهما قريب من الآخر جسميًا وقلبيًا، فالمسافة بين الزوجين هي كالمسافة بين الملابس ولابسها.

﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ**﴾ في أول أمر الصيام كان يتحرَّج الصائم من مواقعة زوجته في ليلة الصيام، وكان يَشُقّ عليهم ذلك، لكن هذا لا يخفى على علام الغيوب، فرفع عنهم الحرج لتستريح نفوسهم، ولا يتحرجوا أو يخافوا من الإثم.

لكن الله تعالى الرحيم يقول: ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ**﴾ وهذا كرم منه جل جلاله، بأن تاب عليهم وعفا عنهم، كما أنه أكرمهم بالتخفيف والتيسير والتسهيل فقال جل وعلا: ﴿**فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ**﴾ بحرية، دون تحرُّج أو شعور بالإثم، و(المباشرة) مأخوذة من ملامسة بشرة كل منهما الآخر. ﴿**وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ من الولد الذي يأتي من هذه المباشرة، وكذلك تأتي راحة البال، ويأتي الشعور بالرضا، وعدم الاثم.

﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا**﴾ وكذلك أُحِلَّ لكم أن تأكلوا وتشربوا وتتنعموا في وقت الليل، ثم حددت الآية وقت النهاية، فقال تعالى: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ**

(1) ومن معاني (الرشد): حُسن التصرف، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (سورة النساء: 6) ؛ ولا شك أن من آمن بالله، واستجاب له فإنه أحسن الناس تصرفاً، ويوفّق، ويُهدى.

﴿**الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ أي: يظهر الحد الفاصل بين الليل والنهار، وهو الفجر الصادق، ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ**﴾ وهنا يبدأ وقت الصيام، والابتعاد عن كل هذه الأمور ﴿**إِلَى اللَّيْلِ**﴾.

ثم يقول جل وعلا: ﴿**وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾ أي أن قاعدة ﴿**فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ**﴾ ليست على إطلاقها، فهناك استثناءات، فالمعتكف في المسجد لا يجوز له أن يأتي أهله حال الاعتكاف.

﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ لا تتجاوزوا ما حَدَّهُ الله تعالى، يعني: الحرام لا تقتربوا منه أبداً، لم يقل: لا تأتوها، بل مجرد الاقتراب منها محظور؛ لأن الذي يطوف حول الحمى يمكن أن يقع فيه.

وحدود الله نوعان: 1 ـ حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرمات؛ ويقال فيها: ﴿**فَلا تَقْرَبُوهَا**﴾. 2 ـ وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: ﴿**فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾.

يقول تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون** (187)﴾ فاستجابتهم لأمر الله، وإيمانهم به، وعدم تعديهم على حدوده نابع من التقوى، وهذا التقوى ينبغي على كل إنسان الحصول عليه، لذا جاء اللفظ: (للناس) أي: لكل الناس.

سؤال: لماذا جاءت آية الدعاء ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ بين آيات الصيام؟

الجواب: جاءت بين آيات أحكام الصيام -والله أعلم- لتدل على أن الصيام والدعاء مقترنان، وفي هذا دعوة لكل صائم أن لا يفتر لسانه عن الدعاء، في كل وقت، كيف لا والحبيب ﷺ يقول: (**ثلاثة لا تُرَدّ دعوتُهُم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم، يرفعها** -هذه الدعوات الثلاث- **فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين**) (أخرجه الترمذي)، ألم تلاحظوا اللفظ النبوي: (**والصائمُ حَتّى يفطر**)؟ يعني: ما دام هو صائم ولم يُفطر، فإن استجابة الدعاء قائمة.

۞ ۞ ۞

قاعدة في المعاملات المالية (188).

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... (188)**﴾.

خمس كلمات؛ قاعدة قرآنية من أعظم القواعد وأشملها في الدستور الإلهي العظيم، من أجَلّ البنود وأشملها، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**﴾.. وتشمل كل المعاملات المالية المحرمة، فالربا من أكل أموال الناس بالباطل، والرشوة والسرقة وقطع الطريق والحرابة والغش والزنا والقمار والميسر كُلها أكل لأموال الناس بالباطل.. وكل معاملة مالية لا يقبلها الله هي أكل لأموال الناس بالباطل..

وقال (أموال) بالجمع حتى تشمل كل شيء يُؤخذ بالباطل، كالأرض، والزروع، والثمار، أو حتى كتاب أو عود أراك، وحتى المناصب والوظائف، وحتى الأمور المعنوية كتكريم شخص وهو ليس أهلاً، كمن يأخذ الأول في المدرسة أو الثانوية العامة بواسطة وهو لا يستحقها، فهذا يدخل ضمن هذا التحريم القرآني.

لماذا قال: (أموالكم) ولم يقل: (أموال غيركم) فالإنسان لا يأخذ ماله بالباطل، وإنما يأخذ مال غيره؟ لأن المؤمنين أمة واحدة، فينبغي أن يكون حريصًا على مال غيره كحرصه على ماله، وعلى أشياء الآخرين كأشيائه، و(**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**) (أخرجه الترمذي).

﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**﴾ أي: لا يأخذ أحدٌ أشياء غيره بغير حق.

لكن قد يدفع من ماله فيتحايل أو يرشي، لذلك قال تعالى: ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ**﴾، أي: لا تأكلوا أموال بعضكم بأي وسيلة، وبالأخص مصانعة الحُكَّام ورشوتهم ليقتطعوا لكم حق غيركم، و(الحُكَّام) هنا عامة، تشمل كل من يحكم بين اثنين، أو كان من أهل الحل والعقد، كالقاضي أو المُصلح بين الناس أو الخليفة أو الأمير أو المحافظ، أو ربّ العمل، أو مدير شركة، وكل من يقبل رشوة أو يبيع ذمته، مقابل أن يُحلل حرامًا أو يُحرم حلالاً.

وقد عَرَّف الجرجاني رحمه الله الرشوة بأنها: "ما يعطى لإبطال حق أو لإحقاق باطل"، وهي محرمة قطعًا، لأن الرسول ﷺ لعن الراشي والمرتشي والرائش بينهما.

وقد خَصّ الرشوة في الحُكم، فقال: (**لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم**) (الترمذي).

وفَسَّر ابن عباس رضي الله عنهما الإثم هنا باليمين "الكاذبة"، وهي من أخطر الأمور، وقد حذَّر منها النبي ﷺ؛ لأن هذا اليمين الذي يحلفونه إشهادٌ لِرَبّ العزة على قوله، فإن كان كاذبًا فإن هذا اليمين سيغرقهم في الإثم إغراقًا.. وسيوقعهم في غضب الرَّبّ جل جلاله..

﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ وتزداد المشكلة صعوبة، ويزداد الإثم على الإنسان إذا كان يعلم أن ما يفعله محرم، أو أنه يُغضب ربه جل وعلا، فارتكاب المعصية مع العلم أقبح من ارتكابها عن جهل، وصاحبها أحق بالتوبيخ والعقاب.

فمعنى الآية باختصار: لا تُخاصِموا الناس وأنتم تعلمون أنكم على باطل وهم على حق، وهذه الآية لو أن كل مسلم تدبرها وفهمها، وطبقها في حياته العملية، لكان حال المسلمين أفضل بكثير، وكانوا في محبة وألفة وخير، فاللّٰهُمَّ أصلح أحوال المسلمين.

۞ ۞ ۞

جواب سؤال (189).

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (189)**﴾.

في تفسير القرطبي: سُئل رسول الله ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ ما بال الهلال يبدو دَقِيقًا ثُمَّ يَزِيدُ حَتَّى يَمتَلِئَ نُورًا، ثُمَّ يَعُودُ دَقِيقًا كَمَا بَدَأَ، وَلَا يَكُونُ عَلَى حَالَةٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾، أي: إن قومك يا محمد يسألونك عن هذه الأهلة، فأخبرهم أن الله جعلها على هذا الشكل المتغير لتكون آليةً لمعرفة الناس الشهور والأزمان، فيَعلَمَوا أَوقَاتَ الحَجِّ وَالصَّومِ وَالإِفطَارِ وَآجَالَ الدُّيُونِ وعِدَّة النساء في الطلاق والوفاة، وغير ذلك.

وقد خَصَّ الحج لأنه لا يجوز فيه النسيء عن وقته، يعني: الصيام مثلاً لو تأخر عن الصيام يوم، ثم تبين أن الصيام خطأ، فإن الناس يصومون يومًا آخر، بدل منه، والزكاة إذا مرَّ عليها حول وزاد فلا يؤثر فيها فإنه تُدفع في أي وقت حتى لو بعد عشرين سنة، لكن الحج إذا أخطأ في يوم عرفة مثلاً فلا يجوز تأخيره إلى يوم آخر، كما أنه لا يجوز نقله إلى أشهر أخرى كما كانوا يفعلوا في الجاهلية من النسيء.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا**﴾. كان عند أهل الجاهلية -أو الأنصار- عادة، هي: إذا حجَّ أحدهم أو اعتمر لا يدخل بيته من الباب وإنما يدخل من أي مكان آخر ما دام مُحْرِمًا، فأبطلها الله تعالى.

وهذا الجزء من الآية عبارة عن قاعدة للنجاح، فإن أي أمر تريد أن تعمله يجب أن تأتي إليه من الطريق المباشر، وليس من خلال طُرق مُلتوية، حتى أصبح ذلك مثلاً، فيُقال: أتيتُ الأمر من بابه، وكما قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم:

متى ما تَقُد بالباطل الـحقّ يأبَهُ *** وإن قُـدْتَ بـالحقّ، الـرواسي تنقدِ

إذا ما أتيت الأمر من غـير بابه *** ضَلَلتَ وإن تدخل من الباب تهتدِ

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (189)﴾ التقوى: طريق الفلاح والنجاح، وهو أن تعملوا الأعمال على الوجه الذي يُرضي رب العزة، لا على ما تريدون أنتم، ومثاله ذلك الرجل الذي أراد ان يأتي عبادة لم يَأمُر اللهُ بها، لكنه ظنّ أن له فيها أجرًا كبيرًا، فالنّبِيُّ ﷺ بينما كان يخطُبُ، إذ بِرجُلٍ قائِمٍ، فسأل عنهُ فقالُوا: نذر أن يقُوم ولا يقعُد، ولا يستظِلّ، ولا يتكلّم، ويصُوم. فقال النّبِيُّ ﷺ: (**مُرهُ فليتكلّم وليستظِلّ وليقعُد، وَليُتِمَّ صَومَهُ**) (أخرجه البخاري)، فهذا لم يأتِ العبادة من بابها، بل أتاها بطريق لم يأمر الله به، والفلاح والخير هو في تقوى الله والامتثال لأمره تبارك وتعالى وأمر نبيه ﷺ.

۞ ۞ ۞

الحكمة من القتال في سبيل الله وبعض أحكامه (190).

﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (190)﴾. قال القرطبي: هذه الآية أول ما نزل في أمر القتال، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ القِتَالَ كَانَ مَحْظُورًا قَبلَ الهِجرَةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (سورة فصلت: 34)، وقوله: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**﴾ (سورة المائدة: 13).... فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ أُمِرَ بِالقِتَالِ فَنَزَلَ هذه الآية[1].

يقول تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ اشترط للقتال الذين يُقاتلونكم، وقد جاء النهي عن قتال من لا يُقاتلون؛ كالنساء والأطفال والرهبان

(1) وَرُوِيَ عَن أَبِي بَكرٍ الصِّدّيقِ وابن عباس رضي الله عنهم أَنَّ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَت فِي القِتَالِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ (الحج: 39) (أخرجه النسائي)، والأول أشْهَر، حيث أن آية سورة الحج نزلت بعد الحديبية.

والعُسفاء -أي العمال والأجراء والفلاحون-، فقد رآى الرسول ﷺ امرأة مقتولة في حرب، فقال: (**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**)، وقَالَ لِأَحَدِهِمْ: (**الْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، وَلا عَسِيفًا**) (أخرجه أبو داود وأحمد)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: اتَّقُوا اللهَ فِي الذُّرِّيَّةِ وَالْفَلَّاحِينَ الَّذِي لَا يَنْصِبُونَ لَكُمُ الْحَرْبَ.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَا تَعْتَدُوا**﴾ والاعتداء يكون من عدة أوجه: (1) لا تبدأوا بالقتال، فإن قوتلتم فقاتلوا. (2) لا تتجاوزوا الحد في القتال، فتقتلوا النساء والولدان الشيوخ وغير المقاتلين. (3) لا تعتدوا فتقاتلوا لغير وجه الله تعالى، كمن يقاتل حمية أو رياءً، لهذا جاء في أول الآية: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أي: لإعلاء كلمة الله وَنُصْرَة دينه. (4) لا تعتدوا فتقاتلوا في الأشهر الحُرُم، وهذا وقت أمرنا الله أن لا نقاتل فيه. (5) ومن الاعتداء: التمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار، ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين، ومنه مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز. (6) لا تعتدوا: أي لا تَغْلوا، فيأخذ أحدكم ما ليس له.

فإذا كان هذا النهي الإلهي في الكفار، فالنهي عن الاعتداء على المسلمين من باب أولى، ولا بأي نوع من الاعتداء، سواء اللفظي أو الجسدي أو حتى المعنوي، بل إذا كان الاعتداء على الحيوانات محرم، فما بالكم بالاعتداء على الناس؟!.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ المتجاوزين لحدود الله في الشرائع والأحكام.

قال تعالى: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ الضمير (هم) يعود على (الذين يُقاتلونكم)، و(ثقفتموهم): وَجَدْتُمُوهُمْ، فالمعنى: أن الله أمر بقتال من بدأ بالقتال، أينما وُجِدَ، في مكة أو في غيرها، كأن الله تعالى يقول: إذا بدؤوكم بالقتال فقاتلوهم في أي مكان كنتم.

ثم بَشَّر المسلمين فقال: ﴿**وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾ أي أنكم سوف تُخرجوهم من مكةَ كما أخرجوكم، وقد حصل ذلك يوم فتح مكة، وقد حاول كفار قريش إخراج المسلمين ومطاردتهم في مكة وفي المدينة أيضًا، وحاولوا أيضًا إخراجهم من الحبشة عن طريق رشوة النجاشي بهدايا، إلا أن الله تعالى فَتَحَ على قلبه وفهمه.

يقول تعالى: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ والفتنة هي الشَّر، فإن فتنة الكفر والشرك التي تمسكوا بها شرّ، وفتنة المسلمين عن المسجد الحرام ومنعهم منه شرّ، والفتنة في الدين أيضًا حيث عَذَّبوهم، وآذوهم، وقتلوا منهم، وأخرجوهم من أرضهم حتى يردوهم عن دينهم إلى الشرك شرّ، كلها فتن عظيمة أعظم من قتلكم إياهم.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**﴾ فالمسلمون أولى الناس بتعظيم البيت الحرام، فهو قبلتهم، قَالَ ﷺ يَومَ فَتح مَكَّةَ: (**إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ...**) (البخاري)، وقوله: (**سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**) أي: وقت محدود قصير، في حال قُوتِلَ المسلمون فيه، فإن بدأ الكفار بالقتال فيه فإن الله إذن بقتالهم.

﴿**كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** (191)﴾ أي أن الله تعالى أذن بالقتال في المسجد الحرام عقوبة وجزاءً لهؤلاء الكفار، حتى لا يتمادى أحدهم فيعمل ما يعمل ثم يحتمي بالحرم، أو أنه يفعل ما يفعل من شرّ داخل الحرم وهو آمن، والجزاء من جنس العمل.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (192)﴾ حتى في مثل هذا الموقف يفتح الله تعالى باب التوبة للناس، فإن انتهى هؤلاء عن كفرهم وفتنتهم للمسلمين وتابوا إلى الله فإنهم يجدوه غفورًا رحيمًا، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ (سورة الأنفال:38).

ثم بين ربُّنا أسباب القتال في الإسلام، فقال: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾.

فالهدف الأول من القتال هو أن لا يبقى لهم قوة يفتنوكم بها عن دينكم بالتعذيب أو الإخراج أو الإيذاء، وهذا يعني أن يكون دين الإسلام هو المسيطر وهو الحاكم، فلا يجرؤ أحد على اضطهاد المسلمين.

أما الهدف الثاني فهو: ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ أي: يكون الدين في الأرض هو دين الله، الذي أمر به الناس أجمعين، دين التوحيد، وتكون الطاعة المُطلقة لله وليست

للمخلوقين، هذا الهدف الذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكُتُب وسَنَّ الشرائع. ﴿**فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)**﴾ أي: فإن انتهوا عن قتالكم، وعن مَنْعِكُم من نشر دين الله في الأرض، فلا تقاتلوهم، ولا تعتدوا عليهم، إلا من ظَلَم فاعتدى عليكم وصدَّكم عن نشر الدين، فيكون قتاله تأديبًا له وإصلاحًا لشأنه، حتى يكفّ عن ظلمه ويرتدع عن غيّه، وتطبق عليه أحكام الشرع.

ثم يقول تعالى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ**﴾.

في الآية السابقة بَيَّن الله للمسلمين حُكمًا شرعيًا، وهو جواز قتال المشركين عند المسجد الحرام إذا ما بدأوا هم القتال فيه، فهذه حُرمة المكان، وهنا يُبيّن الله تعالى حُرمة الزمان، فـ ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ**﴾ يعني: إنكم إذا قوتلتم في الشهر الحرام فيجوز القتال فيه، يقول جَابِرٍ رضي الله عنه: "لَم يَكُن رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغزُو فِي الشَّهرِ الحَرَامِ إِلَّا أَن يُغزَى -أَو يُغزَوا- فَإِذَا حَضَرَ ذَاكَ، أَقَامَ حَتَّى يَنسَلِخَ "(أخرجه أحمد).

﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ أي: يجب أن يُحتَرَم كل ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ وخالف فإنه يُقتَصّ منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قُوتِل، ومن انتهك البلد الحرام أُخِذَ منه الحد، ومن جَرَحَ أحدًا أو قطع عضوًا منه اقتُص منه، وقد انتهكت قريش بصدّها المسلمين عن الكعبة الحُرمات الثلاث: حرمة المكان، وحرمة الزمان، وحرمة الإحرام.

وقد يكون معناها: لقد منعوك من البيت في الشهرالحرام (ذو القعدة) وستعود إليها في الشهر الحرام، ﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ فكما أخرجوك فإننا سنخرجهم لك من مكة، وذلك أن المسلمين رجعوا إلى مكة في عمرة القضاء عام سبع، وقد أخلَت قريش مكة لهم، ونزحوا إلى الجبال، فدخلها ﷺ مُحرِمًا آمنًا هو وأصحابه.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ هذا توضيح للقصاص المطلوب، وهو أن تأخذ حقك دون إفراط، أواعتداء، أو ظُلم، لاحظ قوله ﴿**بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾.. ولما كانت النفوس البشرية -غالبًا- لا تقف على حدها؛ فقد يعتدي أحد أو يظلم، جاء الأمر بلزوم تقوى الله والوقوف عند حدوده

وعدم تجاوزها، فقال: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ ثم أكد ذلك وَرَغَّبَ في التقوى فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** (194)﴾ أي: واحذروا أن تعتدوا، واعلموا أن الله مع المتقين بالمعونة والتأييد، والنصر والتمكين، والغلبة على أعدائهم تأييدًا لدينه وإعلاءً لكلمته.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ فالجهاد في سبيل الله تعالى يحتاج إلى إنفاق، وهو أهم أسباب الإعداد، والإنفاق لا يكون بالمال فقط، بل إنفاق من المال والجهد والوقت... وكل نعمة أنعمها الله على الإنسان؛ لأن فيه مصالح عظيمة، لتقوية المسلمين، والجهاد يقوم على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها.

وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إيقاف للجهاد، وتسليط للأعداء، وهذا خطر كبير، لذلك أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ أي: لا تتوقفوا عن الإنفاق فيتوقف الجهاد، ويزداد أعداؤكم قوة. فإذا أنفق المسلمون من كل ما رزقهم الله حتى من عقولهم وأفكارهم وتسخيرها لمصلحة دينهم ودُنياهم فإن في ذلك عزهم، أما إذا لم يُنفقوا فإنهم يُهلكون أنفسهم، ويُهلكون بلدهم أيضًا، ويُضعفونه بأيديهم[1].

والتهلكة أيضًا: غضب الله، فيكون معنى ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾: لا تتركوا الجهاد والإنفاق في سبيل الله، حتى لا تُغضبوا ربكم بترك أوامره فتهلكوا.

ولما كانت النفقة في سبيل الله والجهاد نوعًا من أنواع الإحسان، أمر الله بالإحسان فقال: ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (195)﴾، وقوله: (وأحسنوا) عامّ في كل الأعمال التي تُرضِي الله تعالى، فيدخل فيها كل أنواع الإحسان.

من أحكام الحج والعمرة (196-203).

ذكرت الآيات السابقة من أحكام الوصية والصيام والجهاد، وهنا يذكر بعض أحكام الحج والعمرة، فقال تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ والتمام عكس النقص، أي: حُجوا البيت واعتمروا، بتمام الأركان والواجبات التي أمر الله بها، وطبقها رسوله ﷺ عَمَليًا،

(1) مستفاد من تفسير المراغي ج 2 ص 93.

وقال: (**خُذوا عني مناسككم**) (أخرجه النسائي).وقوله تعالى: ﴿**للهِ**﴾ أي: خالصًا لوجهه الكريم، وإنما قال في الحجّ والعمرة (لِلهِ) ولم يقل ذلك في الصلاة والزكاة؛ لأنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحجّ والعمرة إلى أصنامهم، وكانوا يزيدون في تلبيتهم ما فيه شِرك بالله، فخصهما بقوله ﴿**للهِ**﴾ حثًا على الإخلاص فيهما، ومجانبة تلك الأعمال الشركية.

وهناك تفسير آخر لقوله تعالى: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ**﴾ أي: أكملوها، فإذا أحرَمَ ونوى أحدٌ بحج أو عمرة فلا يستطيع أن يُلغيها، أو يؤجلها، فيجب أن يُتمها، ما أمكنه ذلك، أما إذا لم يستطع فهناك تخفيف رباني: ﴿**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ فإذا مَنَعَكُم أيُّ مانع اضطررتم بسببه إلى التحلل من إحرامكم فإن عليكم أن تفتدوا بهدي يُهدى إلى الحرم، ويحل الرجل من إحرامه إذا ذبح هديه، ويرجع إلى أهله، ثم يُعيد حجه وعمرته بعد ذلك.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ**﴾ يعني لا يصح التحلل من الإحرام إلا بعد أن يُذبح الهدي في (مَحِلِّه) يعني المكان الذي يحل فيه الذبح، وهو منطقة الحرم، أو: الزمان الذي يحل فيه الذبح وهو "يوم النحر".

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾، وهذا استثناء، فمن اضطُرَّ أن يحلق رأسه لأي سبب كمرضٍ أو عملية جراحية، أو قمل أو غيره، فإن عليه فدية، وهي: إما صيام أو صدقة أو نُسُك، وقد فصّلت لنا السنة النبوية كيف تكون هذه الفدية، وهي على التخيير.

﴿**فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ يعني: إذا كانت الطريق إلى مكة في الحج أو العمرة آمنة، لا يوجد فيها مُعوّقات أو موانع، كأن ذهب العدو، أو شُفي من المرض أو غيره، وأراد الحاج مواصلة حجه بعد أن كان قد تحلل، فإنه يجب عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدي، وهو ما يُجزئ في الأضحية.

فالمتمتع يذبح هديًا، ﴿**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ**﴾ فإذا لم يتمكن من ذبح الهدي؛ لأنه لم يجد هديًا أو نفقة، أو سُرقت نقوده، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع، وإذا تعذّر الصيام في مكة صام عشرة في بلده.

وقوله: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ للتأكيد على هذا العدد، والتشديد على هذه الكفارة.

﴿**ذَلِكَ**﴾ يعني هذا الحكم بالتمتع وذبح الهدي ﴿**لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ مختص بالبعيدين، يعني إذا كان من أهل الحرم أو من سكان مكة، أو إذا كان يسكن دون الميقات، فليس عليه هدي، وإنما الهدي على القادمين إليها.

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ فالعبادات -ومنها الحج- يجب أن تزيد التقوى في القلوب، وتزيد الخشية من الله تعالى، فليست العبرة بأعمال الجوارح، وإنما بأثرها في القلوب، فإن أوجدت العبادة رحمة على المخلوقات، ورهبة من الخالق، فقد أُدِّيت على الوجه الصحيح، وإلا فإن فيها نقص، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (196)﴾ ليلقي في نفوس الناس الرهبة من اتخاذ العبادات عادات لا تنفع صاحبها، فلا تهذب أخلاقه، ولا تُصلح قلبه، فهو تحذير من إهمال أمر الله والاستخفاف بشرعه.

ثم يقول تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**﴾ الحج زمنه محدود، وأشهره معروفة، فلم تُحَدَّد أشهر الحج في الآية لأن المُخاطبين يعرفونها، ولأن الرسول ﷺ بيَّنها، وهي: شوال، وذو القعدة، وتسعٍ أو عشر من ذي الحجة.

﴿**فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ فمن نوى الحج؛ فينبغي أن يتجنب أمور: ﴿**فَلَا رَفَثَ**﴾ وهو الجِماع ومقدماته، ﴿**وَلا فُسُوقَ**﴾: معصية الله بترك واجبٍ أو فعل محرمٍ، ﴿**وَلا جِدَالَ**﴾ خصام ونزاع، عندها يكون الحج مبرورًا، لقوله ﷺ: (**مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**) (متفق عليه).

﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ كل ما نفعله من الطاعات يعلمه الله، ويُثيب عليه، لذلك: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ فالحج موسم للتزود بالطاعات والخيرات، واستغلاله واجب، فقد لا يحصل الإنسان على فرصة أخرى، فلا ينبغي إضاعة الوقت فيما لا فائدة دينية منه.

﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** (197)﴾ فالتقوى صفة أصحاب العقول الواعية، الذين لا يُفضلون الأدنى على الأعلى، ولا يختارون عديم الفائدة ويتركون ما فيه الفائدة.

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أيضًا بعد الحج والعودة إلى الديار، فالعاقل الفطن الذي يحفظ أجوره التي تحصَّل عليها بالحج بعد عودته، ولا يُضيعها، فإن هناك أعمالاً تأكل الحسنات التي جمعها في حجه، وخاصة ظلم الناس، فلنحرص على حسناتنا.

ثم يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾. فإن من تمام الحج أو العمرة أن تكون النية خالصة لله تعالى، وأن لا يكون هدفه دنيوي، وهنا يُبيّن ربنا تبارك وتعالى أنه لا جُناح (إثم) أن تكون هناك مصالح دنيوية للحاج، كتجارة أو تبادل خبرات وصناعات أو مؤتمرات لصالح الإسلام والمسلمين، أو غيرها، فهذه إحدى منافع الحج المادية لقوله تعالى: ﴿لِيَشهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...﴾.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ يعني: إذا رجعتم من عرفات بعد غروب الشمس ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾، وهو في الأصل جبل في مزدلفة، ويطلق أحياناً على مزدلفة كلها، وبُني (مسجد المشعر الحرام) في مكان وقوف النبي ﷺ بعد صلاة الفجر، حيث دعا وَذَكَرَ الله كثيراً تطبيقًا لهذه الآية.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي أكثروا من الذكر في الحج، وخاصة عند المشعر الحرام لتشكروا الله أن هداكم، فقد هداكم للدين الحق، وهداكم فَيَسَّرَ لكم إتمام الحج، وهداكم للصواب في المناسك، فاقتديتم بحجة النبي ﷺ ...

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198)﴾ وقد كنتم من قبل هذا الهداية الربانية من الضّالين عن الحق، تعبدون الأوثان والأصنام، وتلبون تلبية الشرك، فهداكم الله إلى ما هو خير، وما هو حق، وما فيه نفعكم في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾. والخطاب هنا لقريش، لأن قريشًا كانوا يقفون في الجاهلية بمزدلفة، فَيُفَضّلوا أنفسهم على باقي القبائل، لكن؛ تحقيقًا لمبدأ المساواة ونبذ الامتيازات في الإسلام أمر الله نبيّه بأن يقف مع الناس في عرفات، وأن يفيضوا منها إبطالاً لعادة قريش هذه. والإفاضة مع الناس تُشعِر كل مسلم بأنه في منزلة واحدة مع غيره، فيستوي الكبير والصغير، والغني والفقير والحاكم والمحكوم؛ فَتَصْقُل هذه الزحمة القلوب، وتُعلن المساواة.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)﴾ فأمرهم بالاستغفار عن هذه العادات الجاهلية، ومن جميع الذنوب، فمن استغفر باللسان مع التوبة الصادقة في القلب وَجَدَ ربًا رحيمًا يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)﴾ (سورة طه).

ثم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. إذا انتهيتم من المناسك وذبحتم النُّسُك، فأكثروا من ذكر الله وتعظيمه، فالعرب كان لهم نوادٍ بعد الحج يتفاخرون فيها بآبائهم وقبائلهم، ويقولون الشِّعر، لذا أمر الله أن يذكروه أكثر من الفخر بالآباء والأنساب، فذكر الله ينفع أكثر، في الدنيا والآخرة.

ثم يقول تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200)﴾. أي: هناك من الناس من يكون هدفهم دنيويًا، سواء في الحج أو في غيره، فلا يسألون الله تعالى من أمرهم إلا الدنيا وزخرفها، فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾، فأنزل الله الآية ليُعلمنا أن الآخرة هي الغاية الأسمى والأعظم والأشرف، فهذا الذي لا يطلب إلا الدنيا فإن الله يُعطيه في الدنيا، لكن؛ ليس له في الآخرة نصيب لأنها لم تكن ذات أولوية عنده، ولم تكن همه، ولم يسعى لها سعيها.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201)﴾. ومن الناس من يريد الآخرة، فلا يغفل عنها، ويسعى لها، فلا تُشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا تُشغلهم أعمالهم وأرزاقهم عن العبادات والفرائض، فيطلبون من ربهم كرم الدنيا والفوز في الآخرة. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202)﴾ أي: أن الله تعالى يُجازيهم بالخيرات، فيستجيب لهم كل حسب عمله وكسبه في الدنيا وهمته للآخرة، فالناس مُتفاوتون، والجنة لها درجات، يرتقي فيها الناس حسب أعمالهم وإخلاصهم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد، وسميت (أيام التشريق) لأن الناس كانوا يذبحون فيها وينشرون اللحم حين تُشرق الشمس حتى يُجف، أما (الأيام المعلومات) فهي أيام العشر من أول ذي الحجة. ويمكث

الحاج هذه الأيام في (مِنى) فيرمي الجمار، ويذكر الله كثيرًا وخاصة أثناء الرمي تعظيمًا لله وإذلالاً للطاغوت الذي يتمثل في الشيطان، فيرفع كلمة الله، وتقديم أمره على كل أمر، ويُعلي كلمته فوق كل كلمة.

ثم قال تعالى: ﴿**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ أيام التشريق تكون في منى، والمبيت فيها واجب ليومين لمن تعجل، وثلاثة لمن لم يتعجل، يعني: أن يقوم بأعمال الأيام الثلاثة في يومين، والأفضل أن يتأخر إلى آخر أيام التشريق، ثم ينفر، و(مِنى) مشعر عظيم من أعظم المشاعر، ولا يمكث الحُجاج في مشعر أكثر من مكوثهم فيها.

﴿**لِمَنِ اتَّقَى**﴾ فالتقي يزيد في العبادات، ولا يستعجل الخروج منها، بل يؤديها بشوق ورغبة، ويسعى لأداء عبادته على أكمل وجه، ويتمنى أن يستمر فيها، ولا يتمنى أن تنتهي.

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ فالمسلمون أحق الناس بالتقوى، وأن يؤدوا العبادة كما أراد الله، فلتكونوا من المتقين الذين يُحبهم الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** (4)﴾ (سورة التوبة)، وهم أهل لمعيته: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** (36)﴾ (التوبة)، ولقبول الأعمال: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** (27)﴾ (المائدة)، وأهلُ جنته: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** (17)﴾ (الطور).

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** (203)﴾ فالتقوى يُنجيكم يوم الحشر، ويُخفف من أهوال القيامة، والحج يُذكِّر بيوم الحشر، حيث يُجمع الناس في صعيد واحد يدعون الله، كلهم عارٍ من الدنيا، فيتساوى في الحج الملك والمملوك، والغني والفقير، كما يجمع الله الناس يوم الحشر، وكلهم خائف يرجو الله، ويتساوى الجميع، كلهم حفاةً عُراةً غُرلا.

۞ ۞ ۞

النفاق والفساد مَهلكة (204-207).

قَسَّمت الآيات السابقة الناس إلى قسمين: قسم يبتغي الدنيا فقط، وقسم آخر يوازنون بين الدنيا والآخرة، وهُنا يذكر المنافقين، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ عنده من البلاغة والفصاحة ما يُعجب السامع، ليس ذلك فقط، بل: ﴿**وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ**﴾ يعني يحلف الأيمان أن قلبه (أبيض) وأن سريرته (نظيفة)، وغايته (سامية)، وأنه لا يريد إلا الإصلاح، فيُظهر الإسلام والصلاح

والإخلاص، وفي الحقيقة: ﴿**وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204)**﴾ شديد الخصومة والجدال، لا يقبل كلام الله، ويعترض على كلام رسول الله ﷺ، ويختلق الحُجج كي لا يطيع أوامر الله.

﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا**﴾ ومن صفات هؤلاء المنافقين أنهم إذا تولوا: أي ابتعدوا عن المسلمين واختفوا عن أنظارهم يسعون للفساد والإفساد في الأرض، وأيضًا: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ**﴾ أي: الزرع، فمن نتائج إفسادهم أنهم يُدمرون الاقتصاد، ﴿**وَالنَّسْلَ**﴾ من نتائج إفسادهم تدمير الحياة الاجتماعية بالإباحية والأخلاق العفنة.

ثم لاحظ قوله تعالى: ﴿**سَعَى**﴾ يعني: يبذل جهده، ينفق وقته، وماله، ويتعب ويَخرُج يُنَظّر على الفضائيات، ويعمل بيده لأجل أن ينشر الفساد في الأمة والمجتمعات.

﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)**﴾ لا يُحبه لأنه يُخالف الحق والعدل، وهما أساس الوجود، وأساس رضوان الله، أمرنا بها في قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)**﴾ (سورة النحل)، قال القرطبي: "وَالآيَةُ بِعُمُومِهَا تَعُمُّ كُلَّ فَسَادٍ كَانَ فِي أَرضٍ أَو مَالٍ أَو دِينٍ ".

ثم يذكر لنا ربُّنا صفة أُخرى من صفات هؤلاء المنافقين، فيقول تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ**﴾ في قولك وفي أعمالك ﴿**أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ**﴾ يتكبر على أوامر الله، ﴿**بِالْإِثْمِ**﴾ وكل شيء نهى عنه الله تعالى فهو إثم، فهم لا يقبلون النصيحة، ولا يتعظون من المواعظ.

وعقوبة من يتكبر على أوامر الله ﴿**فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ**﴾ وهي أسوأ مصير يُمكن أن يصير إليه إنسان، ﴿**وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)**﴾ وهو الْفِرَاش، يعني أنهم دائمون قاعدون فيها.

وفي المقابل: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾ هذا صنف آخر من الناس، باعوا أنفسهم لله، وهذه الآية نزلت في صهيب الرومي[1] رضي الله عنه لما هاجر إلى المدينة تَبِعَهُ نفر من قريش، فأخذ قوسه وكان راميًا (قناصًا)، وقال: والله، لا تَصِلُونَ إليّ حتى أرمي كل سهم معي، وإن شئتم أَدُلُّكم على مالي وخليتم سبيلي، قالوا: نعم، فلما سمع

(1) قال صاحب (الصحيح من أسباب النزول) ص 33: "الحديث قوي ثابت لكثرة طرقه".

النّبي ﷺ قصته، قال: (**ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع**) ، وهي عامة في كل من يحذو حذوه، فيشتري آخرته بدنياه، فهؤلاء رَبِحَ بيعهم، فهم سيجدون رَبًّا رؤوفًا بهم، رحيمًا كريمًا، يجزيهم على ذلك خير الجزاء، لهذا خُتمت الآية: ﴿**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** (207)﴾.

۞ ۞ ۞

ادخلوا في السِّلم كافة (208-210).

في هذه الآيات جاء الأمر للمؤمنين أن يتوحدوا على دين الإسلام: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ و(السِّلم) هنا: الاستسلام والانقياد لله تعالى ولشرعه.

وقوله تعالى: ﴿**كَافَّةً**﴾ إما أن تكون عائدة (الذين آمنوا) فيكون المعنى: لتكونوا -أيها المؤمنون- كلكم مستسلمين لأمر الله وشرعه، ولا يتخلف منكم أحد، فكلكم مأمورون بتطبيق أحكام الإسلام وشرائعه التي أمر الله بها.

وإما أن تكون عائدةً على (السِّلم) فيكون المعنى: يجب عليكم أن تُطبقوا أحكام الشرع وتكاليفه كافة، فلا تؤمنوا بشيء منها وتكفروا بشيء كما فعل بنو إسرائيل، فالشرع كله واحد، فلا تُصلي مثلاً وتستحل الربا، تلبسين الحجاب وتتركين الصلاة، تؤمنون بالصلاة والصيام وأنتم تستبيحون دماء الناس، وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.

ثم يُحذرهم ربهم فيقول: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ إياكم أن تسيروا في الطريق التي يرسمها الشيطان، سواء شياطين الجن أم شياطين الإنس، بل إن شياطين الإنس أخطر وأكثر فتنة، لهذا قَدّمهم على الجن في قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ (سورة الأنعام:112).

﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** (208)﴾ وعداوة الشيطان بيّنة واضحة، لكل البشر، وخاصة للمسلمين المؤمنين، وهي موجودة منذ بدء الخليقة، حيث أخرج أبانا آدم من الجنة.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ**﴾ يعني: إذا ابتعدتم وانحرفتم عن طريق الحق والاستقامة، ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ أي: من بعد ما جاءكم بالأدلة الواضحة مع الرسل وفي الكُتُب السماوية، فمن رأى آيات الله الواضحات ثم زلَّ وابتعد وارتد

فليعلم ﴿**أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ قادر عليه، لا يغلبه أحد، و﴿**حَكِيمٌ** (209)﴾ لا يعذب إلا من يستحق، و(الحكيم) لا يجزي ولا يُعاقب إلا بحكمة ولحكمة.

◈ قيل: الخطاب لأهل الكتاب، حيث أمرهم ربُّهم بأن يدخلوا في دين الإسلام، وقال: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ يعني: لا تستمروا في طاعة شياطين الجن والإنس، ﴿**فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ فإن أنكرتم وصف ﷺ محمد الذي جاءت في كتبكم، ورفضتم اتباعه؛ فاعلموا ﴿**أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ قادر عليكم، و﴿**حَكِيمٌ** (209)﴾ اقتضت حكمته معاقبة من يكفر به ويُخالف أمره.

ثم يقول تعالى عن الذين زلَّت أقدامهم واتبعوا سبيل الشيطان: ﴿**فَهَلْ يَنْظُرُونَ**﴾ أي: ينتظرون، وكثيرًا ما تستعمل بهذه الصيغة في القرآن، خصوصًا في أمر الآخرة، فلفظ (يَنظُرُون) يوحي ليس بقرب الشيء المنتظر فقط، بل بحتمية حصوله وكأنه موجود أمامهم ينظرون إليه، بينما لفظ (ينتظرون) يوحي بغيابه وأنتظارهم أن يحصل بعد فترة.

﴿**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ**﴾، وهذه الآية من الآيات (آيات الصفات) وهي الآيات التي تتحدث عن صفات الله تعالى، وينبغي علينا نحن أن نلتزم بمنهاج أهل السنة في التعامل مع هذه الآيات، وهو مبني على ثلاثة أُسس:

1. الأساس الأول: تنزيه الله تعالى أن يُشَبَّه بشيء من صفات المخلوقين، قال جل وعلا: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ (سورة الشورى:11).

2. الأساس الثاني: الإيمان التام بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيه الذي لا ينطق عن الهوى؛ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ودليله: ﴿**أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**﴾ (سورة البقرة:140). ولا أحد بعد الله أعلم بالله من رسوله ﷺ.

3. الأساس الثالث -وهو مهم جداً-: قطع الطمع في إدراك الكيفية، يعني: لا سبيل أبداً إلى معرفة كيفية هذه الصفات، ودليله قوله تعالى: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه:110)، فإتيان الله سبحانه في مذهب السلف إتيان حقيقي في ذاته، على وجه يليق بجلاله، نؤمن به دون البحث عن كيفيته.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ يعني: ماذا ينتظر الذين لم يدخلوا في السِّلم -أي الإسلام-؟ هل ينتظرون أن يأتيهم الله بنفسه لأجل أن يؤمنوا؟ هل يُريدون أن يكونوا مثل بني إسرائيل عندما قالوا: أرنا الله جهرة؟

أو: هل ينتظرون أن يأتيهم الله بعذابه في ظُلل من الغمام؟ فالعذاب قد يأتي على شكل غمام كما عُذّبت "عادٍ" قوم هود ﷺ بالريح سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا.

☜ وقد يكون المعنى: يوم القيامة حيث ينزل الباري تبارك تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26)﴾ (سورة الفرقان)، وهو نزول يليق بجلاله العظيم.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أم ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أيضًا؟

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: تمّ أمر إهلاك المكذبين، فإذا قضى الله أمرًا فلا مفرّ منه.

﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)﴾ في آخر المطاف الكل راجع إليه، وواقف بين يديه، فإليه يَرجِع الأمرُ والحكمُ والفصلُ بين الناس، فالأمور كلها راجعة إليه سبحانه.

فالمؤمن يبادر إلى التوبة وإصلاح الحال، قبل أن يأتي العذاب بغتة وهو لا يشعر، فإذا لم تُفَاجِئهُ القيامة، فاجأه الموت، أو المرض الذي يُقعده، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الزُّمَر).

۞ ۞ ۞

بالمثال يتضح المقال (211-212).

ثم يضرب لنا ربنا مثالاً ببني إسرائيل، حيث أرسل إليهم الأنبياء، وأراهم الآيات البينات، وآتاهم من نِعَمِه وخيراته، لكنهم ما اتعظوا وما استقاموا، فاستحقوا غضب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ والغاية من السؤال تقريعهم وتوبيخهم على جحودهم بعد وضوح الآيات، فاسأل يا محمد -ويا أتباع محمد- بني إسرائيل عن النعم والخيرات التي أعطاها الله لهم، وانظروا إلى فعلهم، حيث بَدَّلُوا

الإيمان بها بالكفر، لهذا قال تعالى بعدها: ﴿**وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)**﴾ أي: احذروا أن تكونوا مثلهم، فتكفروا بربكم، وتعصوا نبيكم، لأن الذي يكفر سيُعاقبه، وعقاب الله تعالى شديد.

ثم يقول تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾، الحياة الدنيا كلها زينة، والفعل (زُيِّنَ) هنا مبني على ما لم يُسَمَّ فاعله، فمن الذي زَيَّن الحياة الدنيا؟

أولاً: زينها الله سبحانه الذي خلقها فأبدع خلقها، وجعل فيها جمالاً يأسر الألباب والعقول في البر والبحر والجو، قال تعالى: ﴿**أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ**﴾ (الحديد: 20)، وليس هذا المقصود بالآية قطعًا؛ لأن هذا يُقرّب الناس إلى الله.

ثانيًا: زينَ إبليسُ وأتباعُه زخارف الدنيا للناس، ليحرفهم عن طريق الحق، قال: ﴿**رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)**﴾ (سورة الحجر)، فكم من الأمم قال الله عنهم: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)**﴾ (سورة العنكبوت)، وهو المقصود.

والآية تشمل كل من ينخدع بالدنيا فينسى آخرته، وخَصَّ الكفار لتعلُّق قلوبهم بالدنيا، أما المؤمنين فيجعلونها في أيديهم لا في قلوبهم، ولا تُلهيهم عن آخرتهم.

﴿**وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، من عادة هؤلاء الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا، فأعمى الكفر بصيرتهم، وعَطَّلت الشهوات عقولهم، أن يسخروا من المؤمنين، فإذا كانوا فقراء سخروا منهم، وإذا كانوا أغنياء سخروا منهم، وإذا كانوا ضعفاء سخروا منهم، كما سخروا من بلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين.

لكن: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ لا مقارنة بين بينهم، فالمسلمين المتقين خير وأفضل وأعلى مقامًا عند الله منهم، وإن رأيناهم في الدنيا فقراء أو ضعفاء، فإن الله سيُمكن لهم في الدنيا، وفي الآخرة هم أهل الجنة، وهؤلاء الكفار أهل النار.

وخَصَّ يوم القيامة لأنه في الدنيا قد يكون الكفار أعلى مقامًا وأكثر مالاً وأولاداً وعتادًا وجاهًا وسُلطةً وبهرجةً، لكن يوم القيامة خالصٌ للمؤمنين المتقين، قال تعالى:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)﴾ (سورة الحشر). ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)﴾ أي: يرزق من يشاء من خَلْقه، ويعطيه عطاءً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، ويُعطي الكافر والمؤمن في الدنيا لأنها لا تُساوي عنده جناح بعوضة، أما في الآخرة فإنه لا يُعطي الخير إلا لأهل الجنة، ولا تنقص خزائنه، بكثرة الإنفاق. والله أعلى وأعلم.

۞ ۞ ۞

الابتلاء سُنة من سُنن الحياة (213-214).

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: كان الناس بعد خلق آدم ﷺ أُمة واحدة، وعلى دين واحد، ويعبدون إلهًا واحدًا، لكنهم على مرّ الأزمان ضلوا واختلفوا، فزيَنَ لهم الشيطان المعاصي، وأبعدهم عن الطريق الحق، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ أي: أن الله تعالى اختار أشخاصًا من البشر ليرسلهم إلى بني جلدتهم ليرُدّوهم إلى الحق، ويوصلوا رسالته إلى الناس، وفي الآية ثلاث وظائف للأنبياء:

- ✓ **الأولى**: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ أي: يُرَغِّبُوا الناس في طاعة الله تعالى، وعدم معصيته، والاستقامة على كل ما يُرضِيه، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (سورة البقرة: 25).
- ✓ **الوظيفة الثانية**: ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ وهي تخويف الرافضين لدين اللهِ وشرعه، من عقابه وعذابه، قال تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12)﴾ (سورة الأحقاف).
- ✓ **والوظيفة الثالثة**: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: أنه أنزل الكتب مع الأنبياء لتكون دستورًا ومنهج حياة، تبين الحلال والحرام، فإذا علموا ما أحل اللهُ وما حرَّم عليهم زال الاختلاف، واهتدوا إلى الحق.

فكتاب الله موجود ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: لِيَفْصِل ويُصلح بينهم، يفصل بينهم في الأمور الدينية ويُبيّن لهم الحق، كما يفصل في الأمور الدنيوية ويُبيّن لهم طريق الحق والعدل، كي لا يتظالموا. وجعل تحكيم القرآن والشريعة بين الناس من متطلبات الإيمان، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)﴾ (سورة النساء).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ قوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يُبين لنا أن سبب اختلاف الناس راجع إلى الحسد والبغي والحرص على طلب الدنيا، ولأن كل منهم يسعى لمصلحته، وليس إشكالاً أو غموضاً في الكتاب.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: أن الله تعالى أراد الخير للمؤمنين به، فيَسَّر لهم الهداية، ووفقهم لمعرفة الصواب، فالإيمان الصحيح يُنير العقول، ويهديها لترى السبيل إلى الحق، الذي يوافق الوحي الإلهي.

وقوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ يدل على أن اختلافهم لا أصل له، لأنهم اختلفوا في الحق، والحق ما ينبغي لأحد أن يختلف فيه، كما أن الكتاب يفصل بينهم في كل أمر اختلفوا فيه، لكنها الأهواء الشخصية، وَحُب الاستئثار بالمنافع -كما قال الشيخ الشعراوي رحمه الله -.

ثم يقول تعالى: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)﴾ لذا فإننا نطلب منه الهداية في صلاتنا مرات كثيرة كل يوم، فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وقال بعض المفسرين: المعنى: أن الله تعالى سهل للناس طُرُق الهداية، فأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وجعل آيات بينات في الكون والحياة والنفس تدلهم على الله، وتدعوهم للإيمان به، فمن أراد الهداية وسعى لها فإنه يهديه ويُثبته، ومن رفض الهداية يُثبته على الضلال، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ(108)﴾ (سورة يونس).

ثم يُخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن الجنة لا يدخلها أحد إلا بعد اختبارات وابتلاءات يختبرهم بها، فيقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم﴾ كما اختبر الذين من قبلهم، فالابتلاء سُنَّة ماضية إلى يوم القيامة، ولا تحسبوا أيضًا أن الابتلاءات بسيطة هينة، فقد تتجاوز في شدتها ما يتحمله الإنسان.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ﴾ فهذا مثال على شدة الابتلاء، حيث ابتلى ربنا تبارك وتعالى أقوامًا قبلنا فـ ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ أي: الفقر ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ أي: الأمراض في أبدانهم

﴿**وَزُلْزِلُوا**﴾ بأنواع المخاوف كالقتل والنفي وأخذ الأموال، وقتل الأحبة... حتى وصل بهم الحال إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، وفي حديث خَبَّاب بنِ الأَرَتِّ ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ: (**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**) (أخرجه البخاري)، يعني بعد الابتلاء يأتي التمكين بإذن الله تعالى.

﴿**أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** (214)﴾ فليكن أملكم بالله موجودًا، وليكن يقينكم قويًا، وظنكم حسنًا، فإن نصره قريب منكم، وهذا مؤكد لا شك فيه، فمهما طال الابتلاء، واشتد الابتلاء، وسالت الدماء، حتى وإن طُردتم من أرضكم وديياركم، فالنَّصر وعد من الله، فهو وهو لا يُخلف وعده، قال تعالى: ﴿**فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (47)﴾ (سورة الروم).

۞ ۞ ۞

من أحكام الإنفاق والجهاد في سبيل الله (215-218).

﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**﴾ كثير من الآيات هي إجابات لأسئلة كان المسلمون -أو غير المسلمين- يسألونها للنبي ﷺ، وهنا سأله المسلمون: ﴿**مَاذَا يُنْفِقُونَ**﴾ فكان الجواب: ﴿**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ .

لكن؛ هذا جواب على سؤال: على من نُنفق؟ فأين جواب سؤالهم: ماذا نُنفق؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿**مِنْ خَيْرٍ**﴾ أي: الإنفاق يجب من أي خيرٍ يكون عندكم، من كل شيء، كما قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ...** (254) ﴾ (البقرة)، وكل شيء عندنا هو رزق من الله تعالى، فزاد في الجواب مصارف الإنفاق للتوضيح. ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ** (215)﴾ هذه إضافة أُخرى للجواب، أي:

واعلموا أيضًا أنَّ كل خير تفعلونه، من إنفاق وغيره فإن الله تعالى يعلمه، وسَيُجازيكم عليه، ولن ينساه أو يُهمله، فهو معلوم لديه محفوظ عنده.

كان الجواب على السؤال: (ماذا نُنفق) في كلمتين: (من خير)، فهناك أشياء كثيرة وخير كثير يُمكن أن تنفق منه غير المال؛ كالوقت، والجهد، والعلم، وكأنه تمهيد للآية التالية: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**﴾ أي: فَرَضَ الله عليكم القتال -أيها المسلمون- ﴿**وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ**﴾ يعني: غير مرغوب، وغير محبوب، وإنّما كان الجِهادُ كُرهًا لأنّ فِيهِ إنفاق المالِ ومُفارقة الوطنِ والأهلِ، والتّعرُّض للجِراح والقتل.

يقول تعالى: ﴿**وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ رُغم أن القتال غير مرغوب وغير محبوب إلا أنَّ فيه خيرًا كثيرًا، ﴿**وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ وهناك أشياء تُحبونها، وترغبون فيها، لكن لا يكون فيها خير، بل فيها شر، فأنتم تَكرَهُون مَا فِي الجِهَادِ مِنَ المَشَقَّةِ لكن فيه النصر والظفر والغنيمة والأجر وأيضًا الشهادة، وعسى أن تُحبوا الترف والنعيم ويكون فيه هزيمتكم وذُلكم إذا هجم عليكم العدو.

ولأن الإنسان لا يعلم الغيب؛ قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (216)﴾ فكم من محنةٍ كانت في حقيقتها منحة، وكم من بلاءٍ تَجَلَّى بعد ذلك عن نعماء.

لكن الشيخ محمد أو زهرة ﷺ له رأي آخر، فيقول -ما مُلخصه-: "إنّ كره المسلمين للقتال ليس لأن فيه ويلات وشدائد وصعاب، فهذا لَا يتفق مع ما عرف عن العرب عامة من أنهم أهل بأس وقوة ونجدة، ولا ما عرف عن الصحابة من أنهم كانوا يتنافسون على القتال، بل السبب أن الإسلام أودع قلوب المؤمنين رأفة ورحمة، فليس من خُلق المؤمن المحب للسلام أن يكون محبًا للقتال، فكان الصحابة يُؤثِرُون إيمان المشركين وهدايتهم على القتل، فكُتب القتال مع هذه الكراهة، لأنه الأهدى سبيلا بعد أن قامت الحجة، واستطالوا على المؤمنين بالأذى، وأخرجوهم من ديارهم...".

ثم يقول تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**﴾. وهذا سؤال آخر موجه إلى رسول الله ﷺ من أصحابه ﷺ، وقد كانوا يسألون عن أمور لا يعرفونها، وقيل: السؤال هنا جاء على لسان كفار قريش، يعني: ما رأيك يا محمد في القتال في الأشهر الحُرم؟

والأشهر الحُرُم هي: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم ورجب، وسُميت بذلك لأن الله حَرَّم فيها القتال، وحتى في الجاهلية كانوا يُحرمونها، وهذا من بقايا الحنيفية الإبراهيمية التي كانوا عليها، فالمعاصي والمحرمات فيها أكبر وأعظم إثمًا منها في غيرها.

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**﴾ أي: هل يجوز القتال فيه؟ وكأنه تعريضٌ بما فعل قائد السرية عبد الله بن جحش في سبب نزول الآية، فقال الله عز وجل: ﴿**قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن القتال والقتل في الأشهر الحرُم إثمٌ وذنب كبيرة من الكبائر، فلا يجوز فيها سفك الدماء، ولا انتهاك الحرمات.

ثم يقول تعالى بعدها: ﴿**وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ**﴾ أي: واعلموا أن صَدَّ كفار قريش الناسَ عن دين الله، وترغيبهم في تركه وعدم الدخول فيه، وترهيبهم من اعتناقه، وأيضًا كفرهم بالله تعالى، وإخراج أهل مكة من أرضهم وتشريدهم؛ جريمة وإثم أكبر من القتال في الشهر الحرام.

﴿**وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ وهذا تأكيد على ما سبق، إي إنَّ ما ترتكبونه من فتنة المسلمين عن دينهم بشتى أنواع الإرهاب والتعذيب هو أكبر حتى من القتل.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ هذا هو الهدف الحقيقي من تعذيب المؤمنين وفتنتهم، في كل زمان ومكان، فهم لن يكُفوا عن فتنتكم وتعذيبكم: ﴿**حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ فالهدف الدين، والحرب ليست على أشخاص، بل على ما يحملوه من دين وعقيدة وأخلاق.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ أي: من استجاب لهم، وارتد ولم يرجع إلى إيمانه ودينه بعد أن هداه الله، ومات وهو كافر، فسيُحبِط الله عمله، ويجعله هباءً منثورًا، فلا يقبله الله، لهذا استحقوا العقوبة في الآخرة: ﴿**وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (217)﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ**﴾ الذين ثبتوا على إيمانهم وهجروا الذنوب، وهجروا المحبوبات من أجل الله،

وجاهدوا في سبيل الله تعالى، فهؤلاء إنما فعلوا ذلك لأنهم يرجون ويبغون ويسعون إلى رحمة ربهم جل جلاله، فلن ينسى أعمالهم، لهذا ختمت الآية: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (218)﴾، سيغفر لهم؛ لأنه غفور، ويرحمهم؛ لأنه رحيم ويجزيهم خير الجزاء.

۞ ۞ ۞

أسئلة أخرى وأجوبتها (219-220).

سؤال آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ**﴾ السائل هم المؤمنون، فهم حريصون على أن يسألوا عن أحكام الشرع، ليعبدوا الله على علم، والسؤال هنا عن الخمر والميسر، و(الخمر) أي شيء يستر العقل ويُغَطّيه. أما (الميسر) فهو نوع من القمار والمراهنات، وسمي المَيْسِر لأن فاعله يأخذ أموال الناس بيُسر وسهولة وبدون تعب.

والجواب على السؤال: ﴿**قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**﴾ أي: قُل لهم: إن في هذه الأشياء إثم كبير، ووزر عظيم، وضرر شديد. والضرر من الخمر معروف حيث يُفسد عقل الإنسان، فينتهك الحرمات، ويُؤذي الناس، ويُضيّع الصلوات، ويبعد عن الطاعات.

ومن مضار الميسر أنه يُفسد الاقتصاد، فيزيد الفقراء فقرًا والأغنياء غنىً، ويؤدي إلى إتلاف المال، والظلم والاعتداء والخصومات التي قد تصل إلى القتل أو الانتحار.

﴿**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ يوجد فيهما بعض المنافع، فالخمر فيه: اللذة والنشوة والراحة التي تحصل بسبب تخدير العقل، والربح الناتج عن بيعها، ومنفعة الميسر تكون لأشخاص مُعَينين، حيث يصل إليهم الربح دون تعب أو جُهد، بينما يُظلَم الآخرون، ولكن هذه المنافع مهما كَبُرَت فإن الإثم أعظم منها وأكبر، قال تعالى: ﴿**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾.

ولو لم يقل ﴿**وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ لاستغربوا وقالوا: إن لنا في الخمر منافع: نكتسب منها، وننسى بها همومنا، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما، ولم يتم التحريم بعد، فالمسألة ما زالت حتى الآن في منطقة النصح والإرشاد.

﴿**وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾ هذا كلام ربنا، حتى لو سعى أهل الكتاب وتابعيهم في ترغيب المسلمين بشرب الخمر، وتزيينه بذكر بعض المنافع الصحية؛ بأنه ييسر الهضم، أو

نافع لحصى الكلية[1]، إلا أن إثمه وذنبه أكبر من نفعه، وسيئاته أعظم من مردوده المادي. وبالمناسبة، فإن الله لم يجعل الشفاء في حرام أبدًا، فالشفاء فيما أباحه، ولهذا لما أخبر رجُلٌ النبيَّ ﷺ: إنه يصنع الخمر للدواء، قال له: **(إنها ليست بدواء ولكنها داء) (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم)**، ويكفي كلام رسول الله صدقًا. (الترمذي وابن حبان).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ وهذا سؤال آخر من أسئلة المؤمنين للرسول ﷺ، والسؤال عن الأشياء التي يُنفقونها، أخبرهم الله أنه (العفو) أي: الزائد عن الحاجة وعن النفقة الواجبة، أو ما تيسر بما لا يشق على القلب إخراجه.

يقول تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ أي أن الله تعالى يُفَصِّل الأحكام الشرعية لنا لكي نتفكر في الدنيا والآخرة، فإذا تفكرنا وجدنا الدنيا دار زوال، والآخرة دار مقام، فلا تختاروا الفانية، على الباقية.

وقد يكون المعنى: أن تتفكروا في أمور الدنيا، فتعمروها بالبر والعبادات، لتربحوا في الآخرة، فيعيش المجتمع في أمن وخير في الدنيا، ويفوز في الآخرة.

وسؤال آخر من أسئلة المؤمنين، وهذه المرة عن اليتامى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى**﴾ يقول ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا أُنزَلت: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ وَقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً**﴾، انطَلَقَ كل مَن كَانَ عِندَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، فصارَ طَعَامُهم يبقى حَتَّى يَأكُلَهُ أَو يَفسُدَ، فَاشتَدَّ ذَلِكَ عَلَيهِم، فأخبروا النبي ﷺ فأنزل الله الْآيَةَ، فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه (أخرجه أبو داود).

الجواب: ﴿**قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾ أي: أن واجبكم تجاه اليتامى أن تعملوا ما يُصلحهم ويُصلح أموالهم، وتحفظوها من التلف والضياع، بالاتجار فيها لأجل الله تعالى، لكن لو أخذتم من أموالهم شيئًا وخلطتموه مع أموالكم في الطعام وغيره فهذا جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم.

(1) عبارة: (قليل من الخمر يُصلح المعدة) في الإنجيل المحرف بلفظ: "لا تكن فيما بعد شراب ماء، بل استعمل خمرًا قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس إصحاح 5: 23).

لاحظوا قوله: ﴿**فَإِخْوَانُكُمْ**﴾ وتدبروا فيها جيدًا، إنهم إخوانكم.. أخوة الدين، التي هي أعظم من النسب والقرابة، فاليتيم يشعر أنه منبوذ إذا تجنب صاحبُه أن يأكل أو يشرب معه، فيجب مُعاملتهم ومصاهرتهم ومخالطتهم على أساس أخوة الدين.

﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾ يعني: أن الله تعالى يعلم ما في نُفُوسِكم وقلوبكم من نوايا تجاه هذا اليتيم وأمواله، فهو يعلم من ينوي له الشرّ كأخذ ماله بغير حق، ويعلم المصلح الذي ينوي الخير له، ويُجازي كل واحد منكم حسب نيته.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ**﴾ العَنَت يعني التشديد والمشقة، يعني: لو أراد الله تعالى لشدد عليكم في مسألة اليتيم وأمواله، لكنه رحيم بكم، فيسَّرَ وَوَسَّعَ عليكم.. ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)**﴾ العزيز: له القوة المطلقة والعظمة المطلقة، والحكيم: الذي له حكمة بالغة في كل أمر من أموره، وشأن من شؤونه.

۞ ۞ ۞

من أحكام نظام الأسرة في الإسلام (221-223).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ**﴾ "هذه بداية عشرين آية في نظام الأسرة فقد أولاها الله عناية كبيرة، لأنها الحضن الذي يتولى رعاية شباب الأمة وحمايتهم وتنميتهم جسديًا وعقليًا وروحيًا، لهذا بدأت بما يصون العقيدة، فنهى المؤمنين عن تزوج المشركات ما دمن على شركهن، وعن تزويج المشركين ما داموا على شركهم، لأن في مصاهرتهم عدة محاذير، بعضها يخل بالعقيدة الإسلامية، وبعضها يهدمها".

و(لا) للنهي الذي يُفيد التحريم، و(المشركات) يعني الوثنيات، ولا تشمل نساء أهل الكتاب؛ لأن الله تعالى فرَّق بينهما في سورة البينة، ورخَّصَ في زواجهن في سورة المائدة.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾ هذه واضحة، فالأَمَة المؤمنة خير من الأَمَة المشركة، وإن أعجبكم شيء في المشركة، مثل الجمال أو المال أو العمل أو غير ذلك، فإذا كان هذا في الأمة فإن الزوجة أَولى منها، فهي التي تحافظ على البيت والأولاد، فالدين هو المعيار.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا**﴾ نهي من الله سبحانه لعباده المؤمنين عن تزويج المؤمنات بالمشركين، فإنه أفظع وأشد خطرًا وضررًا من نكاح المؤمنين للمشركات، فقد يفتنها عن دينها، وقد لا يمكنها من إقامة دينها، ويستحيل أن تؤثر في أولادها وتربيهم على الإسلام، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وهي فاقدة السلطة والتأثير، لهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ (الْمُمْتَحَنَةِ: 10).

﴿**وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾ إذا كان العبد المؤمن خير وأفضل من العبد المشرك، فإن الزوج من باب أَولى أن يكون مؤمنًا.

﴿**أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾ هذا سبب التحريم، فالمشركون يدعون إلى طريق النار؛ بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم، فلا يُؤَمَّنُون على أعراض المسلمين ولا أولادهم.

﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**﴾ فدين االله وشرعه وأحكامه تأخذ من التزم بها إلى طريق المغفرة، ثم إلى رضوان الله والجنة.

ثم قال تعالى: ﴿**وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)**﴾ فكل هذه الآيات التي يُبيّنها ربنا تبارك وتعالى للناس؛ حتى يتفكروا فيها ويتدبروها ويعوها، ويتذكروها دائمًا، على مرّ الأزمان والدهور، فإذا تفكروا فيها اكتشفوا عظمة رحمة الله وكرمه وفضله.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**﴾ سؤال آخر، وحكم شرعي آخر، و(المحيض) هو ("الدم" الخارج من الرحم على وجه مخصوص في زمن مخصوص)، وقد يُطلق على مكان أو زمان خُروجه، وسبب نزول الآية أَنَّ اليَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ المَرأَةُ فِيهِم لَم يُؤَاكِلُوهَا، وَلَم يُجَامِعُوهُنَّ فِي البُيُوتِ، فَسَأَلَ الصحابةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنزَلَ اللهُ الآية، فَقَالَ ﷺ: (**اصنَعُوا كُلَّ شَيءٍ إلا النِّكَاحَ**) فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَن يَدَعَ مِن أَمرِنَا شَيئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ... (أخرجه مسلم).

قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ أَذًى**﴾ يعني: قل لهم يا محمد أن هذا الدم فيه إذىً، ولم يُحدد لمن الأذى، وهذا يدل على أن الأذى قد يلحق بالرجل والمرأة على حد سواء: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾ أي: فاعتزلوا إتيانهنَّ في وقت المحيض، وفي قوله تعالى: ﴿**هُوَ أَذىً**﴾ تنبيه

على أن العقل يقتضي تجنبه، ولمّا كان الإنسان قد يتحمل الأذى ولا يراه محرّما، صرّح بتحريمه بقوله: ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ**﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**﴾ قال: ﴿**تَقْرَبُوهُنَّ**﴾ كناية عن الجماع، ولم يقل: (تقتربوا منهن) قال العلماء: وهذا يدل على جواز الجلوس والحديث والأكل والشرب معهن وغير ذلك، بل ومباشرتهم دون الجماع، وقد ثبت ذلك في السُّنة النبوية.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ**﴾ اللفظ ﴿**تَطَهَّرْنَ**﴾ يقتضي المبالغة في الطهارة، لذلك فرَّق العلماء بينها وبين كلمة ﴿**يَطْهُرْنَ**﴾، فحملوا الثانية على انقطاع الدم، والأولى على الاغتسال من الحيض، فإذا اغتسلن فإن الله قد شرع لكم أن تأتوهن في المكان المشروع، الذي سمح الشرع به.

ثم قال تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**﴾ شبه النساء بالأرض التي يحرثها صاحبها، ويزرع فيها ما يشاء، وبأي طريقة، لكن في المكان المشروع.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ**﴾ من أعمال الخير التي فيها رضا الله تعالى، التي تنفعكم في الدنيا والآخرة، فاشكروا الله على نَعَمِهِ ورُخَصه وتخفيفه عنكم، وقَدِّمُوا أيضًا نوايا حسنة قبل العمل؛ مثل: الولد الصالح والذرية الطيبة، ونية الاستعفاف عن الحرام... فكل هذه أعمال خير التي تتحصلون بها على الأجور ورضوان الرب الغفور.

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ أي: خافوا عقاب الله في كل أعمالكم، وخاصة في أمور الزواج، وقد شدد الرسول ﷺ جدًا على عدم إتيان الزوجة في غير مكان الحرث.

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ**﴾ وسيقف أمامه كل واحد من الناس يوم القيامة للحساب، فيُحشر وحيدًا، ويُحاسَب وحيدًا فيجزيكم على أعمالكم، قال تعالى: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** (95)﴾ (سورة مريم)، وفي صحيح البخاري: (**ثُمَّ لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلاَ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ**).

﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** (223)﴾ الذين يُطيعون أمر الله ولا يُخالفونه لأجل أهوائهم أو عاداتهم، سواء في أمر الزواج أو غيره، فهؤلاء يُبشرهم بالثواب الجزيل والجزاء الحسن.

۞ ۞ ۞

لا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم (224-225).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ في هذه الآية عدة أقوال:

- **الأول**: لا تمتنعوا عن شي مِنَ الأعمال الصالحة بحجة أنكم حلفتم، يعني: تجعلوا الأيمان التي تحلفونها سببًا يمنعكم من الأعمال الصالحة.
- **الثاني**: لَا تُكثروا من حلف الأيمان بِاللهِ، فهذا أتقى لقلوبكم وأبَرّ لأعمالكم، لهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (سورة المائدة:89).
- **الثالث**: لا تحلفوا الأيمان في كل حق وباطل، فتحلفوا على كل صغيرة وكبيرة.

وكل هذه المعاني ممكنة، لكن القول الأول أقوى؛ لأن أصل (عُرضة) من الاعتراض أي المنع[1]، فلا تجعلوا -أيها المسلمون- أيمانكم تمنعكم من عمل الخير والبر والتقوى، ولا تتعذروا بأنكم حلفتم، فإذا حلفتم -مثلاً- على ألا تَصِلُوا أرحامكم؛ فَكَفِّرُوا عن اليَمِين، وصِلوهم، فقد قال رسول الله ﷺ فيما صح عنه: (**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**) (أخرجه مسلم).

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224)﴾ يسمع كل شيء، ويعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فاليمين اللغو: الذي لم يقصد به الحلف، بل جرى أثناء الكلام، فهذه تكون لاغية، كأن يقول شخص لصاحبه: تفضل فيقول: " لا والله"، فيقول "لازم تتفضل" فيدخل بعد أن قال "لا والله"، فهذه تسمى "اليمين اللغو"؛ لأنه لم يقصد الحلف، ومثلها لو حلف على أمر؛ فتبين أنه خطأ، كأن يقول: والله لقد رأيت فلانًا ثم تبين أنه يشبهه، فهذا لغو، وقد سُئِلَت عائشة رضي الله عنها عنه فقالت: هو قول الرجل:"لا والله" و"بلى والله"، ما لم يعقد عليه قلبه (أخرجه ابن حبان).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ يدل على أن هذه الأيمان لا يوجد لها كفارة، وليس عليها إثم.

---

(1) ولهذا يقال للسحاب: عارضٌ، لأنه يمنع رؤية السماء والشمس، واعترض فلانٌ فلانًا أي منعه من فعل ما يريد.

ولفظ اللغو أصلاً يُشير إلى أنه ملغي وغير محاسب عليه. ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ أمّا إذا قصد اليمين وعقد عليها قلبه، فهذه فيها كفارة؛ لأنه قاصد لها، وتُسمى يمين منعقدة، إذا أخلَّ بها وجبت الكفارة، التي بينتها آية المائدة 89، وهي:

1- إطعام عشرة مساكين نصف صاع من قوت البلد. 2- كسوة عشرة مساكين ما يُجزئ في الصلاة. 3- عتق رقبة مؤمنة. وهو مخير في هذه الثلاثة السابقة، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام، ولا يجوز الصيام إلا عند العجز عن الثلاثة السابقة.

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ**﴾ يغفر لكم ويُسامحكم، و﴿**حَلِيمٌ** (225)﴾ يُمهلكم حتى تتوبوا، ويفتح باب التوبة إلى قيام الساعة، ويقبل التوبة الصادقة من أي أحد، ففي الحديث: (**إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلا كُتِبَتْ وَاحِدَةً**) (أخرجه الطبراني).

۞ ۞ ۞

من أحكام (الإيلاء والطلاق) (226-232).

قال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ**﴾ ما زالت الآيات في أحكام الزواج، وبعد أن عَمَّمَت الآيتين السابقتين أحكام اليمين، هنا تُخصص (الإيلاء) وهو يمين الزوج على أن لا يطأ زوجته، أو "الحَلِفُ عَلَى تَركِ كَلَامِهَا أَو عَلَى أَن يَغِيظَهَا أَو يَسُوءَهَا أَو نَحوِ ذَلِكَ"[1].

﴿**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ**﴾ هؤلاء الذين يحلفون أن لا يطأوا نساءهم، فَيُحَرّمون ما أَحَلَّ الله، وَيَحرِمُونَهُنَّ من متعة شرعها الله لهن، فليعلموا أن هذا مُحَرَّم، وليس الأمر كما في الجاهلية، حيث كان أحدهم يحلف على زوجته السنة والسنتين، فتبقى معلقة، لا هي متزوجة ولا مطلقة، وهذا ضرر للمرأة، وقد حَرَّم الإسلام الضرر بكل أنواعه، وأحواله.

فأراد الله تعالى أن يرفع هذا الضرر وهذا الظلم عن المرأة، فقال: ﴿ **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**﴾، والتربص يعني الانتظار والإمهال، يعني: أن هؤلاء يُمهَلون أربعة أشهر حتى يرجعوا إلى رشدهم، وَيَكُفُّوا عن إيذاء نسائهم.

(1) نيل الأوطار ج 6 ص 304.

﴿**فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (226)﴾ فإن تراجعواعن أيمانهم وتابوا إلى ربهم، ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**﴾ سيغفر لهم ولا يُعاقبهم، و﴿**رَحِيمٌ**﴾ برحمته حلّ لهم هذه المعضلة، فرجعوا إلى زوجاتهم، وعاد الوئام والصلح بينهما، لكن عليه كفارة يمين.

في حال حدد الحالف مدة زمنيةً كشهر مثلاً، وانتهت المدة، فليس عليه كفارة؛ لأنه لم يحنث في اليمين، أما في حال استمرّ بضرره حتى انتهت المهلة الشرعية (أربعة أشهر) ولم يُراجعها فقد تبيَّن أن نيته الإضرار، أو أنه يريد الطلاق، وهنا يجب أن يختار الرجوع أو الطلاق، ولها أن تطلب الطلاق إذا انقضت المدة ولم يأتها، لهذا قال تعالى بعدها:

﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ**﴾ أي امتنعوا من الرجوع، فهذا دليل على أنه لا يُريدها، فإن حصل هذا الحق الواجب وهو الرجوع إلى امرأته، وإلا أُجبر الطلاق.

﴿**فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (227)﴾ وهذا وعيد وتهديد لمن يحلف وهو يقصد الضرر، فليعلموا أن الله سَمِعَ قولهم، ويعلم أفعالهم كلها، حتى خبايا قلوبهم وصدورهم يعلمها، فلا تكن نيتكم الإضرار بالنساء أو أذيتهن، فالضرر عمل لا يقبله الله.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ فإذا ما حصل الطلاق، فإن المطلقات (يَتَرَبَّصْنَ) أي يُمهلن أنفسهن ثلاثة قُروء، ويمتنعن عن الزواج فيها، و(القُروء) جمع قَرْء وهو إما "الحيض" أو "الطهر". قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: "والعلة هي استبراء الرحم، وإعطاء مهلة للزوجين في أن يراجعا نفسيهما، فربما بعد الطهر الأول أو الثاني يشتاق أحدهما للآخر، فتعود المسائل لما كانت عليه، لكن إذا مرت ثلاثة أطهار فلا أمل ولا رجاء في الرجوع".

والمراد بالمطلّقات هنا البالغات المدخول بهن غير الحوامل، لأن غير المدخول بها ليس لها عدة: ﴿**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**﴾ (الأحزاب: 49)، والحامل عدتها: ﴿**وَأُوْلَاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ (سورة الطلاق: 4). أما المرأة التي لا تحيض وكذا اليائسة فعدتها ثلاثة أشهر لقوله تعالى: ﴿**واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ واللائي لَمْ يَحِضْنَ**﴾ (سورة الطلاق: 4) الآية.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ حَرَّم الله على المرأة المطلقة أن تُخفي حملها إن كانت حاملاً، فمن حِكَم العدة: استبراء الرحم، حتى لا تختلط الأنساب، فحفظ النسب مقصد ضروري من مقاصد الشرع، لهذا قال: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: دلالة على صدق إيمانهن، فمن أخفت حملها فهذا نقص في إيمانها.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ هذه دعوة للإصلاح، فالأزواج من حقهم أن يردوهنَّ ما لم تنقض العدة، فإذا انقضت بانت المرأة، أي أصبحت بائنة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي للزوجات، سواء كن مطلقات، أو لا ﴿مِثْلُ الذِي عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق ﴿بِالمَعرُوفِ﴾: فكما أن عليها أداء حقوق زوجها، وأن تقوم بما فرض الله عليها؛ فإن لها حقوق، فيجب على الزوج معاشرتها بالمعروف، وأن يقوم بحقها الذي أوجب الله عليه.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: فضل، كالميراث، والولاية العظمى، والحقوق؛ وهذا من باب الاحتراس حتى لا يذهب الذهن إلى تساوي المرأة، والرجل في كل شيء. وفَسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما: كما تريد منها يجب أن تُعطيها زيادة، وكما تُحب منها يجب عليك أن تُحب لها زيادة، وفسّرها الطبري رحمه الله بمزيد من الأعباء المطلوبة من الرجل، حتى لا يغتر الرجل بالتفضيل الذي فضله الله به على المرأة، فيطغى عليها، ولا يُعاملها بما يليق.

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)﴾ العزيز يعني: الغالب، والحكيم: له في كل أمرٍ حكمةً، فالأحكام الشرعية شَرِعَت لحكمة بالغة، ومنها حفظ حقوق الناس، وعدم الإضرار بهم.

يقول تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ هاتان الكلمتان قضت على عادات الجاهلية في إهانتة المرأة، فكان إذا أراد أن يَضُرَّها طلقها، ويراجعها قبل انتهاء العدة، ويصنع بها مثل ذلك أبدًا، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، وقد فعل ذلك رجل زمن النبي ﷺ، ووصل الخبر إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (أخرجه الترمذي).

فـ ﴿الطَّلاقَ﴾ أي الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَانِ﴾ بأن يطلق مرة ثم يراجع، ثم يطلق مرة ثم يراجع، أما الثالثة فلا رجعة بعدها، هذا المعنى الأول.

وقيل: معناه الطلاق الشرعي يكون على التفريق: ﴿**مَرَّتَانِ**﴾ ولم يقل: طلقتان إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة لا دُفعة واحدة.

فالإسلام رَحِمَ المرأة وأعلى شأنها، وحدد الطلاق بِمَرَّتَين فقط، والثالثة: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ**﴾ فيُرجعها معززة مكرمة، لها كل الحقوق المتعارف عليها بين الناس، وإلا ﴿**تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ يُطلق سَراحها بإحسان، دون اتهام في كرامتها أو عِرضها أو خُلُقها.

بعد ذلك حَرَّمَ الله الطمع في النساء بطلب فدية، فقال: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**﴾ يعني: إذا سرَّحتموهن بإحسان -أيها الرجال- فإنه لا يحل لكم أن تأخذوا شيئًا من المهر مقابل الطلاق، هذا طبعًا للمدخول بها، والخلوة بالزوجة كالدخول، أما غير المدخول بها فلها نصف المهر كما سيأتي -بإذن الله- في الآية (237).

هذا إذا كان الزوج هو الذي يُريد أن يُطلّق، أما إذا كانت رغبتها، كأن كرهت الرجل لنقص في دينه، أو خُلُقه، فيحل لها أن تختلع منه، قال تعالى: ﴿**إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ فيجوز أن يأخذ مقابل الطلاق، وفي السيرة قصة امرَأَة ثَابِتِ بنِ قَيسٍ التي لم تُحبه وطلبت الطلاق، فقال ﷺ: (**أَتَرُدِّينَ عَلَيهِ حَدِيقَتَهُ؟**) قَالَت: نَعَم، فقَالَ ﷺ: (**اقبَل الحَدِيقَةَ وَطَلِّقهَا تَطلِيقَةً**) (أخرجه البخاري).

﴿**وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)**﴾ ولا يجوز لمسلم أن يتعدى حدود الله تعالى، ومخالفة أحكامه وشرعه، فهذا ظُلم للنفس، وفيه ظلم للغير، وأي ظُلم أكبر من أن يُحل الإنسان حرامًا أو يُحرم حلالاً؟!

﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا**﴾ والطلاق مرتان، وبعدها إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فإن قَبِلَ الزوج بالتسريح بإحسان، يعني يُطلقها ﴿**فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾، وبهذا يُغلَق الباب على تلاعب الرجال بالنساء، فَقَيَّدَ رجوعها إليه بالزواج من آخر زواجًا حقيقيًا، ليرتدع الأزواج عن التساهل بالطلاق، وظُلم المرأة، والإضرار بها، وهذه خطة إلهية لحفظ كرامة المرأة، وردع الرجال عن التمادي بالطلاق.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا**﴾ يعني: الزوج الثاني طواعية دون إكراه، أو اتفاق مُسبق بينه وبين الزوج الأول ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا**﴾ فيجوز للزوج الأول أن

يرجع إليها مرة أُخرى، بشرط: ﴿**إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ**﴾ أي: بنيّة إقامة شرع الله، لا بِنِيَّة الانتقام منها، لهذا تكررت كلمة (حُدود الله) مرة أخرى للتأكيد على أن هذا أمرٌ وشرعٌ من الله، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (230)﴾ فالذين يعلمون أن أحكام الله تعالى وشرائعه لا يُحاولون -مجرد محاولة- أن يتجاوزوها.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ هذه الآية فيها تأكيد على الأحكام السابقة، للتحذير من خطورة الإضرار بالناس، وخاصة المرأة، وتجاوز حدود الله وتشريعاته، فإذا قاربت العدة على أن تنتهي فيجب أن تختاروا أحد الخيارين لحل المشكلة ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾ فإما أن تُرجعوهن إليكم مع القيام بما أوجب العرف من المتعة والنفقة وغيرها، وإما أن تُطلقوا سراحهن بالطلاق.

﴿**وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا**﴾ ولا يجوز أبدًا أن تمسكها عندك لأجل أن تَضُرَّها، ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ فمن اعتدى على أحد، سواء زوجته أو أهلها، أو غيرهم، فقد أوقع نفسه في معصية الله وسخطه، ومن يتعمد الاعتراض أو مخالفة أوامر الله تعالى فقد عرَّض نفسه لغضبه.

﴿**وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا**﴾ أي: لا تتلاعبوا بأحكام الله، ولا تتهاونوا في امتثال أوامره والتزام حدوده، فَتَقْبَلُوها متى شئتم وعلى من شئتم، وترفضونها متى شئتم وعلى من شئتم، فتجعلوا آيات الله تعالى وأحكامه مجالاً للسخرية والعبث، ولا ينبغي للمسلم ذلك، فقد سُمي المسلم مُسلمًا لأنه يقبل أحكام الشرع وأوامر الله ويستسلم لها.

﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ**﴾ وتَذَكَّروا نِعَم الله عليكم، وهي نعم لا تُحصى، أهمها نعمة الإسلام، ونعمة الإيمان، ونعمة العقل، ونعمة الحياة والزواج، وغيرها، والتفكر فيها يدفعنا إلى اليقين أنه الشرع هو الحل للخلافات.

﴿**وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾ واذكروا أن الله أكرمكم وأنزل كتابًا فيه من الآيات والأحكام والتشريعات ما يُصلح الأحوال في الدنيا والآخرة، فيأمر بالخيرات، ويزجر عن المنكرات، فينبغي تطبيقه في حياتكم اليومية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231)﴾ فيجب عليكم أن تتقوا الله وتخافوا من عقابه، إذا ما عصيتموه، أو استهنتم بأحكامه فأضررتم بنسائكم وأهلهن، فهو عليم بكل أحوالكم، يعلم ما تُسرون وما تُعلنون، وسيُحاسبكم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الخطاب إما أن يكون للأزواج، يقول لهم: لا يحق لكم إذا انقضت عدة المطلقة أن تمنعوها من الزواج، بحيث لا يقبل الزوج أن يتزوج أحدٌ مطلَّقته أَنَفَةً وكبرًا، فلهن أن يخترن من يُناسبهن من الأزواج، وليس لكم عليهن سُلطان.

أو يُخاطِب أولياء المطلقة، فيقول: إذا وافقتم على طلاق ابنتكم، فليس لكم أن تمنعوها من الرجوع إلى زوجها مرة أُخرى، إذا تراضوا، بمهر وعقد جديد، طبعًا هذا بعد الطلقتين، أما الثالثة فهو مبتوت بها من قبل، فلا ترجع إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره.

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فامتثال أوامر الله تعالى وقبولها والاستسلام لها صفة من صفات أهل الإيمان، فمن آمن بالله واليوم الآخر؛ فإن إيمانه هذا يدفعه إلى الطاعة، ويمنعه من الظلم.

فيجب أن تكونوا أيها المسلمون من أهل الإيمان، فتُطيعوا أوامر الله ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أزكى وأطهر لقلوبكم، ولأعمالكم، وفيه الطّهر بحفظ العرض والشّرف.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232)﴾ يعلم ما هو خير لكم فيأمركم به، ويعلم ما يضركم فينهاكم عنه، وأنتم لا تعلمون الحقائق وأبعاد المستقبل، ومخاطر ترك المرأة الأيم أو الثّيب من غير زواج، إرضاء للأهواء وحظوظ النّفس.

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

هذه بعض أحكام الرضاع والنفقة على الزوجة وأولادها، (الوالدات) هن النساء اللواتي ولدن أطفالاً ويُرضعنهم فإنهن ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ فتمام الرضاعة سنتين، والأكمل والأفضل والأصلح أن يتم الرضاعة.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (المولود له) هو الأب، ولم يقل الزوج، لسببين: الأول: لأنه قد لا يكون زوجًا، وإنما مُطَلِّق، والثاني: حتى يُحَفِّز عاطفة الأبوة في داخله، فيطيب نفسًا بالنفقة، وحتى لا يقول: هو ابنها فلتنفق عليه هي، لا، بل هو ابن لك أنت، هي ولدته لك ومنك، ويعتز بك، ويحفظ نسبك أنت، فعليك ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الطعام واللباس ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ حسب ما هو متعارف عليه بين الناس. و(المعروف) هو الخير والإحسان، وهو عكس المنكر، فيجب أن تُنفقوا عليهن وعلى أولادهن بإحسان، دون منة أو تذمرّ أو اعتراض، فهذا حكم الله وشرعه.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قال بعض المفسرين: يعني على حسب طاقة ومقدرة الزوج، فلا يُكَلَّف فوق طاقته، مِن غَيرِ تَفرِيطٍ وَلَا إِفرَاطٍ. وقال غيرهم: الوسع ضد الضيق، يعني: يجب أن يبذل جهده ووسعه في الإنفاق عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ نهي مرةً أُخرى عن الضرر، فلا يجوز أن تَضُرّ الأم طفلها بالامتناع عن إرضاعه، نكاية في زوجها، كما أنه لا يجوز أن يضرَّ الوالِد (المولود له) بولده فيمتنع عن النفقة، أو يأخذه من أمه ويمنع رضاعته منها، باختصار: يُمنع كل أنواع الضرر من الجانبين وليأخذ كل ذي حق حقه بالمعروف.

ولاحظ أيضًا تكرار لفظ (الوالدة) ولفظ: (المولود له) استثارة لعاطفة الأبوة والأمومة، حيث أن هذا الولد هو ولدهم على أية حال، وهم مسؤولون عنه، فلا يجوز للأب أو الأم إلحاق الضرر به بسبب الخلاف بينهما.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وهذا من عظمة هذا الدين الحنيف، فلو مات والد الطفل فإن ورثته مُكَلَّفون بالطفل، وجاء اللفظ (الوارث) عامًّا حتى يشمل أي وارث كان، سواء أب أو أخ أو ابن أو غيره.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الفصال: هو الفطام، لأنه يفصل الولد فيستقل في غذائه عن أمه، والمعنى: أن الوالدين هما صاحبا الحق المشترك في رعاية الولد وإصلاح شؤونه، فتقليل مدة إرضاعه يكون عن رضى وتشاور مبني على مصلحة الولد، فلا يبيح لأحد الوالدين الاستبداد به دون الآخر.

ثم قال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ فإذا أتفقتم -أي الوالد والوالدة، أو المُطَلِّق والمُطَلَّقة- على أن يتم إرضاع الطفل عند مرضعة أُخرى غير أمه، فإن ذلك جائز، بشرط أن يكون بتسليم واتفاق وموافقة كلا الطرفين، و(بالمعروف) أيضًا.

قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (233)﴾ فلتضعوا مخافة الله أمام أعيُنكم، فلا تضروا الناس ولا تؤذوهم، فربكم بصير بكم، وبما تعملون.

۞ ۞ ۞

تكملة أحكام الطلاق، وعدة الوفاة (234-237).

بعد بيان عدة المطلقة، وهي ثلاثة قُروء، يُبيّن هنا عدة المتوفى عنها زوجها، فيقول: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ أي: الذين ماتوا وتركوا خلفهم زوجات، فيجب أن ينتظرن أربعة أشهر وعشرة أيام قبل الزواج بزوج آخر، وهذا الحكم عام يشمل المدخول بها وغير المدخول بها، بالإجماع.

وقد شُرِعَ إحداد المرأة المتوفّى عنها زوجها وفاءً للزّوج، ومراعاةً لحقّه العظيم عليها، فلا يصحّ شرعاً ولا أدباً أن تنسى ذلك الجميل، وليس من الوفاء أن يموت زوجها، ثمّ تنغمس في الزّينة وكأنّ عِشرةً لم تكن بينهما.

قال تعالى: ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ يعني انقضت العدة وتَمَّت ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ أي يتزينَّ أو يتطيبن أو يلبسن ما يشأنَ من اللباس، لكن (بالمعروف) الذي يُرضي ربنا تبارك وتعالى، بحيث لا تخرج بهذه الزينة والطيب خارج البيت –مثلاً- أو غير ذلك، مما لا يقبله الشرع.

﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (234)﴾ تأكيد على مراقبة الله تعالى للعباد، فهو عليم خبير بكل الأحوال، سرها وعلانيتها، فإذا خالفتُم أمر الله فإنه بكم عليم خبير.

﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ**﴾ لا يجوز للمرأة أن تتزوج أثناء عدتها، سواء عدة الطلاق أو عدة الوفاة، وهنا تُخاطب الآيات الرجال، حيث لا

يجوز لهم أن يطلبوا الزواج من النساء وقت العدة، إلا أنه يجوز التلميح بذلك، بأن يوصل لها هذا الخبر بطريقة أو بأُخرى، ثم قال: ﴿**أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ**﴾ ويجوز أيضًا أن تُخفوا في نفوسكم نية طَلَب الزواج منهن بعد العدة، يعني واحد أراد امرأة كان قد توفي زوجها، فنوى أن يخطبها بعد انتهاء العدة، فإن هذا لا جُناح عليه.

﴿**عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ**﴾ فقد يذكر أحد لغيره، أو حتى في نفسه هذه الرغبة.

ثم أضافت الآية حكمًا مهمًا، قال تعالى: ﴿**وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا**﴾ أي أنه لا يجوز أن تأخذوا منهن وعدًا، أو تُعطوهن وعدًا بالزواج بالسرّ والكتمان، ﴿**إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾ وهُوَ مَا أُبِيحَ مِنَ التَّعرِيضِ، فالمواعدة سرًا ليست من القول المعروف.

﴿**وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾ صحيح أن الله خفف ورفع الحرج عن التعريض وتبييت النية للزواج من المرأة وهي في العدة، إلا أنه لا يجوز عقد النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله الذي قَدَّره الله، يعني إذا اتخذ أحدهم قرارًا بطلب المرأة للزواج فلا يجوز أن يطلبها أو يعقد عليها إلا إذا انقضت عدتها.

قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾ تحذير من الله تعالى لمن أخفى في نفسه أنه سيُخالف أوامر الله، ويتعدى حدوده، لكن من يتوب فإن الله يقول: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)**﴾ فإذا أضمرتم في أنفسكم ما لا يُرضيه، فإن لديكم باباً واسعاً وهو التوبة؛ فتعرضوا لمغفرة الله عز وجل، وتوبوا إليه.

قوله تعالى: ﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ**﴾ فليس عليكم إثم إن طلقتم النساء بعد العقد وقبل الدخول بها، لأنه قبل العقد لا يكون طلاقًا، ﴿**أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ أو قبل أن تُحددوا المهر، وقال: (تفرضوا) لأن المهر فرض من الله للنساء، فإذا طلقها بعد العقد وقبل تسمية المهر: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾ اجعلوا لهن شيئًا من مال أو غيره تُرضونهن به، ﴿**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**﴾: كُلّ حسب قُدرته ورزقه.

وقد يكون معنى ﴿**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**﴾ أي: على كل من الموسع والمقتر أن يبلغ جهده وقدره وطاقته في إكرام الزوجة المطلقة وإمتاعها.

﴿**مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** (236)﴾ فالمتاع واجب على الذين يُريدون أن يكونوا من (المحسنين)، لأنهم يُحسنون إلى الناس، وإلى أنفسهم بالحصول على محبة الله، فهذه العطية من عمل أهل الخير والإحسان، طبعًا على الوجه المعروف شرعًا وعُرفًا.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ**﴾ الحكم كان في الطلاق قبل العقد وقبل تحديد المهر، وهنا في الطلاق بعد العقد وبعد تحديد المهر، وقبل الدخول، فإذا طلَّق الرجل زوجته قبل أن يدخل بها، أو يخلو بها، فإن لها نصف المهر، ولها أخذه، فهذا حقّ لها، وليس مِنَّة من الزوج، ﴿**إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ**﴾ يُسامحن هن بأنفسهن دون إكراه أو تخجيل.

﴿**أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ والذي بيده عقدة النكاح إما أن يكون وليّ الزوجة، فيكون معناها: أو يعفو وليّها فيُسامح في نصف المهر الخاص بها.

أو هو الزوج؛ لأن عُقدة النكاح مازالت بيده وله حق إرجاع الزوجة، فيكون المعنى: لها الحق في نصف المهر، إلا إذا سامحَت هي، أو سامح الزوج المُطَلِّق بنصف المهر خاصته، فيُعطيها المهر كُلّه، وسواء سامَحَ وعفا هذا أو هذا فالله تعالى يقول: ﴿**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ أي أن العفو من سمة أهل التقوى، فالذي يعفي هو الأكثر تقوى.

﴿**وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ لتتسابقوا إلى الفضل وإلى الخير، فالعفو من أي واحد منهما خير وفضل، و﴿**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (237)﴾ سيُجازيكم على فضلكم بفضل منه جل جلاله، فهو أهل الفضل وأهل المغفرة.

۞ ۞ ۞

فاصل؛ من أحكام الصلاة (238-239).

قال تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى**﴾، لماذا دخلت آيات الصلاة، بين آيات أحكام الأسرة؟؟ ذكر العلماء لهذا عدة أسباب:

(1)- إن الصلاة هي علاقة المسلم بالله، ومن كانت علاقته بالله قوية فإنها تدفعه إلى تطبيق أحكام الشرع، وعدم ظُلم الآخرين.

(2)- التذكير بأن أحكام الشرع الخاصة بالمعاملات هي مهمة مثل العبادات، التي أهمها الصلاة، فحافظوا عليها كمحافظتكم على الصلاة.

(3)- لما كان الطلاق وأموره مصحوبًا غالبًا بالمشاكل والهموم، أتت آية الصلاة لتوجه المؤمن بأن راحته بالصلاة، كما قال ﷺ: (**يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا**) (أخرجه أبو داود).

(4)- "أمرَ بِالمُحافظةِ على الصلاة فِي ثنايا أحكامِ الأولادِ والأزواجِ، لِئَلَّا يُلهِيَهُمُ الِاشتِغَالُ بِشَأنِهِم عَنهَا"، يعني: ما ينبغي أن تُلهيكم أموركم الدنيوية ومشاغلكم ومشاكلكم عن الصلاة، والعبادة.

﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى**﴾ حافظوا على الصلاة وخاصة صلاة العصر، والحفاظ عليها بالمداومة، وإتمام أركانها وواجباتها، وسُننها، وأيضًا الحفاظ على أجرها من أن تمحوه المعاصي، فهناك معاصي تَمحو بعض الحسنات.

﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** (238)﴾ أي: أقبِلوا على الله بصدق، وأطيعوه بحُبّ، وبشوق ورغبة، واخشعوا في صلاتكم، وأصل (القنوت) طاعة الله تعالى والخضوع له.

﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا**﴾ يجب عليكم إقامة الصلاة والمحافظة عليها، في كل أحوالكم، لهذا شرع ربنا صلاة الخوف دلالة على أهمية الصلاة، ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ**﴾ من أي شيء: عدوّ أو سبع، أو غيره ، فإنه تصح الصلاة واقفًا أو ماشيًا أو راكبًا، حسب الظرف.

﴿**فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (239)﴾ فإذا زال الخوف فصلوا الصلاة العادية التي علمكم الله إياها، ولم تكونوا تعلموها من قبل.

وقيل: إذا زال خوفكم فاذكروا الله واشكروه؛ لأنه علمكم هذه الصلاة التي تجزئ في حال الخوف، فَيَسَّر عليكم، وخفف في الصلاة رحمةً ورأفةً بكم.

۞ ۞ ۞

عودة إلى أحكام الأسرة والطلاق (240-242).

تعود الآيات مرّة أُخرى للحديث عن الأحكام الاجتماعية، وبالأخص الطلاق، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ**﴾ أي: إذا مات شخص، وترك زوجةً أو زوجات فإن لهن وصيَّةً من الزوج المتوفى عبارة عن نفقة لمدة عام كامل، يتمتعن بها، ويصرفن على أنفسهن منها، ﴿**غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ أي: بشرط أن لا يَخْرُجنَ خلال هذا العام من مسكن الزوجية إلا للضرورة.

وقد تكون الوصية من الله تعالى لأولياء المتوفى، أي: أن الله تعالى يوصيكم أن تجعلوا لهن من مال أزواجهن ما يكفيهم سنة كاملة.

﴿**فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ**﴾ فإذا أردن الخروج من أنفسهن، وإنهاء العدة، فليس عليكم يا أولياء الزوج المتوفى إثم أن توافقوا، ﴿**فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ**﴾ من التزين والتطيب، فهي مخيّرة بين ملازمة البيت مع أخذ النفقة، وبين الخروج مع تركها، والتزين هذا والتطيب يجب أن يكون (بالمعروف) الذي يُرضي الله، ولا يخرج عن العادة والعُرف.

هذا كان قبل الإسلام، وكانت النفقة والسكن واجبتين في مال الزوج لِسَنَة وليس لها من الميراث شيء، وفي بداية الإسلام جاء التخيير بين البقاء في العدة أو الخروج منها، ثم جاء النسخ بعدها إلى أربعة أشهر وعشرًا، وهو قول جمهور العلماء، ونُسِخَ الحولُ بأربعة أشهر وعشرًا، ونُسِخَت الوصية للزوجة بفرض الميراث، كما في سورة النساء.

ورأى بعض المفسرين أن الآية ليست منسوخة، حيث دمجوا الحُكمين مع بعضهما، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرًا، وحكم وصية الزوج بأن تظل الزوجة في بيته حولاً كاملاً لا تهان، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة وبقية الحول والعام وصية، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها" كما ذكر الشيخ الشعراوي رحمه الله.

قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (240)﴾ عزيز: ذو قوة ومنعة بالغة لا يقدر عليه أحد، وحكيم: له الحكمة البالغة في أحكامه وتشرعاته، وإذا لاحظنا فإن كثيرًا من آيات

الأحكام تنتهي باسم: الحكيم، للدلالة على أن كل التشريعات الربانية لها حكمة بالغة، تَصُب في مصلحة البيت والمجتمع المسلم، والحفاظ على أمنه وأمانه وسلامته واستقراره.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** (241)﴾ أي: إن لكل مطلقة متاعًا، فعلى الزوج أن يُمتعها به بالمعروف، وهو حق على كل من أراد أن يكون من أهل التقوى والصلاح، جبرًا لخاطرها وأداء لبعض حقوقها.

ثم يقول تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** (242)﴾

أي: أن الله تعالى يُبيّن ويُوضّح أحكامه وتشريعاته وما فيها من حكمة بالغة، في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي ﷺ، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي: لأجل أن تُشغلوا هذه العقول في التفكر فيها وفي الحكمة منها، وما فائدتها على المجتمع، وتعقلوا كيف كرَّم الإسلام المرأة وجعل لها من الحقوق، وليس كالأديان والملل المحرفة.

۞ ۞ ۞

من قصص الأمم السابقة (243-251).

تنتقل الآيات إلى موضوع آخر، وقصة جديدة من قصص الأمم السابقة، وما ذُكرت هذه القصص إلا للاعتبار، والاتعاظ.

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ**﴾ والاستفهام للتعجب وتشويق السامع، فهؤلاء قوم من الأمم السالفة، خافوا على أنفسهم من الموت، فخرجوا هاربين، قيل: سبب هروبهم تفشي الطاعون في مدينتهم، ففروا من قدر الله يبتغون مكانًا آمنًا؛ فأراد الله أن يريهم أنه لا مفر منه إلا إليه، وقيل: هاجمهم عدو فأمرهم الله بالجهاد فهربوا وَسَلَّمُوا أرضهم، وهذا أقرب لأن الآية التي تليها أمرت بالجهاد.

﴿**وَهُمْ أُلُوفٌ**﴾ إما جمع (أَلف) أي: أن عددهم كان بالآلاف، وإما جمع (آلِف) من الألفة، أي: بينهم ألفة ومحبة، فلم يكن سبب خروجهم خلافات أو شجارات بينهم.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ هؤلاء الناس عندما وصلوا إلى المكان الذي اعتبروه آمنًا أمر الله بأن يموتوا جميعًا، فماتوا، ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ أي: أمر بعودتهم للحياة بعد مدة، فالله تعالى بقدرته يُحيي من يشاء، ويُميت من يشاء، وهو صاحب القدرة والقوة والمُطلقة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ فضله شامل، واسع، يشمل كل شيء في حياتهم، من الذَّرَّة إلى المجرة، ومن فضله أنه يهديهم إلى الصراط المستقيم، وإلى الدين القويم، وإلى العقيدة الصحيحة، والعبادات السليمة، والأخلاق الحميدة التي ترقى بالمجتمع. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (243)﴾ لا يؤدون شُكر هذه النعم العظيمة التي أكرمهم بها، وتفضل بها عليهم، كما أراد ربهم جل جلاله.

والعبرة من القصة "أن الحَذَر لا يغني من القدر"، كذلك الفرار من الجهاد لا يزيد في العمر، بل الأجل محتوم، والرزق مقسوم، فالهرب خوفًا من الموت لا يمنع الموت، قال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (78)﴾ (النساء). فاستعدوا للموت بالأعمال الصالحات وترك المحرمات، والوقوف عند حدود الله، فإن الموت لا يمنعه مانع ولو كان في أفضل البلاد، أو في أرقى مستشفى.

ثم يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إما أن يكون الخطاب هنا لهؤلاء القوم الذين هربوا من الجهاد في سبيل الله، كأنه يقول لهم: ما ينبغي لكم أن تهربوا أو تتوانوا عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا قول ضعفه جمع من المفسرين.

أو الخطاب لجميع المسلمين من بعدهم، فتكون القصة تمهيدًا للأمر بالجهاد، يقول: يا أيها المسلمون إذا دعاكم داعي الجهاد في سبيل الله، وحان الوقت للدفاع عن دين الله وشرعه والمسلمين؛ فلا تتوانوا، وأقبلوا ولا تهربوا كما هرب هؤلاء.

﴿وَقَاتِلُوا﴾ في سبيل الله المعتدين الذين يقاتلونكم، ويسرقون الأرض والخيرات، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)﴾ لا تنسوا أن الله يسمع قولكم، كالتحريض على الجهاد ورفع همة المجاهدين. واختيار صفة السمع والبصر هنا مناسب جدًا، فإن من لم يخرج للقتال سيتكلم في المؤمنين والمجاهدين، فالله يسمعه، ويعلم حتى نوايا القلوب.

﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا**﴾ هذا كناية عن الصدقات والإنفاق في سبيل الله تعالى، فالجهاد يكون بالنفس والمال، وسمى الصدقة قرضًا لعدة أسباب:

الأول: لأن القرض يجب أن يرجع لصاحبه، فالله يقول: المال الذي تُنفقونه في سبيل الله سيرجع لكم: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** (39)﴾ (سورة سبأ).

الثاني: لأن القرض لازم الأداء، فلا يجوز تأخير موعد سداده، وكأن ربنا يقول: ما أنفقتم من شيء في سبيل الله لن يتأخر جزاؤكم عليه.

الثالث: لأن أجر القرض أكبر من أجر الصدقة، كما قال النبي ﷺ: (**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُقْرِضُ مُسْلِمًا قَرْضًا مَرَّتَيْنِ إِلا كَانَ كَصَدَقَتِهَا مَرَّةً**) (أخرجه ابن ماجة).

ووصف القرض هنا بأنه (حسن) للترغيب في أن تكون الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى من مال طيب، وكسب حلال، فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

هذا القرض سيرُدّه الله عليك بلا شك، بل: ﴿**فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً**﴾ أي: لا يُرجعه كما هو، بل يُضاعفه، فأنت تتعامل مع الكريم ذي الفضل. والأضعاف الكثيرة لا يعلم عددها إلا الله، فهي أكثر من سبعمائة ضعف.

﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ واسم الله "القابض" يعني: أن الله عز وجل: يقبض الأرواح وبيده الموت والحياة، وهو الذي يمسك الأرزاق عن العباد بحكمته: ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ**﴾ (سورة العنكبوت)، وعكسه البسط والتوسيع، فكل أمر ضيقه الله عز وجل فقد قبضه، وكل أمر وسعه الله عز وجل فقد بسطه. ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (245)﴾ بلا شك، سنرجع إليه، وسنقف بين يديه، وسيكون هناك الحساب على الصغير الكبير، والنقير والقطمير.

☜ وقصة أُخرى من قصص الأمم السابقة، وقعت لبني إسرائيل في فترة من فترات حياتهم، حيث كانوا مضطهدين مهزومين أمام أعدائهم، وقد سلب أعداؤهم التابوت الذي فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وقد شعروا بالذل ومرارة الهزيمة، فقالوا: السبيل الوحيد هو الجهاد في سبيل الله، وهذه القصص للاعتبار والاتعاظ لا للتسلية.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ والاستفهام أيضًا للتعجُّب والتشويق؛ يعني: ألم يأتك خبر أو علم عن قصة ﴿**الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى**﴾؟ إذًا هذه القصة:

(1)- عن (ملأ) وهم رؤساء القوم وأشرافهم، وخصهم بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يقومون على مصالح العامة وشؤونهم.

(2)- وهم من بني إسرائيل، والمعروف عن بني إسرائيل أنهم أهل فساد وظلم وعدوان وتكبر ومحادة لله ولأنبيائه، ومحاولة الالتفاف على الشرائع والأحكام.

(3)- كانوا بعد موسى، أي: بين موسى وعيسى، وقد روي أنه ﷺ قال: (**أول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وبينهما ألف نبي**)[1] والحديث ضعيف.

نعود إلى القصة، هؤلاء الملأ انهزموا أمام أعدائهم، وهربوا، فطلبوا من نبيهم طلبًا: ﴿**إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ من هو هذا النبي؟ لا نعلم، لكنه نبي من أنبياء الله إلى بني إسرائيل لأجل توجيههم إلى عبادة الله والاستقامة، وهذا إشارة إلى أن القتال كان مفروضًا على بني إسرائيل، وأن الدفاع عن النفس والأرض والعرض كان مشروعًا لرفع الذل والظلم، ولإعلاء كلمة الله، لهذا قالوا في طلبهم: ﴿**فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.

فطلبوا من نبيهم أن يختار مَلِكًا، ليُجاهدوا تحت إمرته في سبيل الله، لكن نبيهم يعلم طبيعتهم المائعة، وأنهم لو أمروا بالقتال فسوف يتراجعون، فأراد التأكد من هذه الهمة، وهذه الروح الجهادية التي استيقظت فجأة: ﴿**قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا**﴾ يعني: أخاف إن كُتب عليكم القتال أن تتقاعسوا وتتراجعوا! ﴿**قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾ أي: كيف لا نُقاتل وقدطُردنا من بلادنا، وسُبيت أولادنا؟ فهذا يدفعنا إلى الدفاع عن أرضنا وأهلنا.

فدعا نبيهم ربَّه تبارك وتعالى أن يأتيهم بمَلِكٍ، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وسمح لهم بالجهاد، لكن: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ**﴾ نقضوا عهدهم، وجَبُنوا، إلا القليل الذين استجابوا لأمر ربهم وأطاعوه. ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** (246)﴾ فهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بِعَدَم اتباع أوامر الله فإنه يُعلمهم ويعلم نواياهم.

---

(1) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، لابن حبان، ج 1 ص 360، انظر السلسلة الضعيفة (1910 و 6090).

ثم قال تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**﴾ هؤلاء أصرّوا على نبيهم أن يدعو الله تبارك وتعالى أن يُرسل لهم ملكًا، ليُقاتلوا تحت إمرته، وهنا اختار الله تعالى لهم رجلاً منهم اسمه (طالوت)، وكان ذا حكمة وعِلم وفهم وذكاء.

تفاجأ الملأ من هذا الاختيار، فقد أرادوا أن يكون من بيت عز ومال، وهذه طبيعة بني إسرائيل المادية، وطالوت فقير لا مال له، لهذا رفضوا أن يكون ملِكًا، و﴿**قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ**﴾ وهذا تساؤل عجيب، فهم من طلب من الله أن يختار، ولما اختار لهم رفضوا، فالعناد متأصل فيهم.

قال لهم نبيهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**﴾ هذا اصطفاء من الله، والله يعلم أنه أهل للمُلك، ولقيادتهم إلى النصر وتحرير الأرض، ﴿**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ وهذه هي الصفات المطلوبة في القائد، فهؤلاء لما وجدوا أنَّ الأمر جِدّ رفضوا وتراجعوا.

وقولهم: ﴿**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**﴾ يدل على كِبرهم، فهم يُريدون الاستئثار بالمُلك لأنفسهم، فرفضوا أمر الله، ورفضوا طاعة الملك طالوت؛ لأنه ليس من الأشراف.

ثم قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (147)﴾ أي: لماذا تعترضون وأنتم تعلمون أن الله تعالى يؤتي الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء؟ أليس هو (الواسع العليم) الذي وسع علمه ووسعت قُدرته عظمته وسلطانه وملكه كل شيء؟

نبيهم كان يعلمهم جيدًا، فقد عاشرهم وعلم خداعهم وكذبهم، لهذا شكك في صدق قولهم من البداية، وهنا أراد أن يبين لهم آية مادية على أن هذا اختيار من الله، فلم يكفهم أن نبيًا أخبرهم، -والأنبياء أصدق الناس-: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ تأتي الملائكة إليهم بالتابوت الذي أُخِذَ منهم، كدليل على أن طالوت هو الملك من عند الله، والتابوت فيه أشياء مادية ورثوها عن آل موسى وآل هارون.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (248)﴾ والمعجزات تزيد في إيمان المؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بصدق فإن هذه المعجزة الربانية ستزيدكم إيمانًا، وترفع

معنوياتكم للجهاد، لكن هيهات، فبني إسرائيل لا يعرفون إلا الجدال والمِراء. فلما جاءت المعجزة الربانية، سَلَّمَ القومُ مُكرهين، ووافقوا على طالوت، وبدأ بتجهيزهم للقتال، ولما خرج بهم للمعركة أراد أن يختبر طاعتهم، فلا بد قبل المعركة من اختبارات للتأكد من جهوزية الجُند، ولا بد من اختبارات صغيرة قبل الاختبار الكبير.

﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ**﴾ انفصلوا عن مكان سكنهم وانطلقوا، ﴿**قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾، فعندما تمرون على هذا النهر فلا تشربوا منه، فمن خالف أمري فليرجع ولا يتبعني؛ لأنه لا يستحق أن يكون في هذا الجيش، أما من لم يشرب والتزم الأمر وأطاع فإنه يبقى معي ويقاتل.

وقول طالوت لجنوده: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ**﴾ يعني أن هذا أمر من الله، وليس مني أنا، فأراد اللهُ أن يُعلمهم ويُعلمنا أن أمر الله أهم من أمرك، وحُكم الله أفضل من رأيك، والذي يُفَرِّط في أمر الله عند أول اختبار لا يصلح أن يكون من جُند الله، والذي لا يستطيع أن يمنع نفسه عن شهوته لأجل الله لا يصلح أن يكون من جُند الله.

ثم أراد أن يُخفف الأمر لأن في القوم عطشى فخفف عليهم، فقال: ﴿**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾ أي: مسموح أن يشرب الواحد منهم ملئ كفه فقط، ﴿**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ**﴾ معظمهم شربوا منه، إلا القليل لم يشربوا، أو شربوا (غرفةً) واحدةً.

﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ انطلق طالوتُ إلى المعركة، ولما تواجه الجيشان، تفاجأ بنو إسرائيل بعدد جيش أعدائهم، و﴿**قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾، أي: لا نستطيع عليهم، فهم أكثر منا عددًا وعُدَّة، وهنا تدخل أصحاب الإيمان القوي الذين لم يشربوا من النهر مطلقًا: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)**﴾ وهذا يدل على إيمانهم العميق بالله، ونصره للصادقين، ولو كانوا ضُعفاء، ولو كان عددهم قليلاً، فالله تعالى ينصر ويعز بالأسباب وبغير الأسباب وبعكس الأسباب، فالعزيز من أعزه، والمنتصر من نصره.

﴿**وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249)**﴾ أي: معهم بنصره وتأييده وحفظه وتوفيقه.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ وقفوا أمام جيش جالوت، وتوجهوا إلى الله بالدعاء، وهذا موقف المسلم الصَّادق، يُعِدُّ العدة ويأخذ بالأسباب، ثم يتوكل على الله ويدعو، فهؤلاء رفعوا أكفهم إلى ربهم تبارك وتعالى بثلاث دعوات: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يا رب صُبَّ علينا الصبر كله، وهذه استعارة عن كثرة الصبر. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ هب لنا قوة وهِمَّة تجعلنا نثبت أمام عدونا ولا نَفِرّ من القتال. ﴿وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (250)﴾ فأنت تنصر المؤمنين الصادقين، وتهزم الكافرين الذين يصدون عن سبيلك، ويُقاتلون أولياءك.

وفي نهاية المعركة ونتيجتها: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ﴾ فقد انتصرت الفئة القليلة المؤمنة على الكثيرة الكافرة، وما كان هذا النصر إلا بإذن وتوفيق وتيسير من الله تعالى.

ومن نتائج هذه المعركة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ وداود هو نبي الله ﷺ، قيل: لم يكن نبيًا بعد، وكان جنديًا في جيش جالوت، وقيل: أنه هو النبي الذي أُبهم في بداية القصة، وقد ورد في القصة كثير من الإسرائيليات، التي تخلط الحق والباطل، والصدق بالكذب، ونحن أغنياء عنها بما في أيدينا من القرآن والسنة.

﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ أي: داود، أعطاه اللهُ المُلكَ الذي كان بيد طالوت، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة بعد نبيهم، أو هي الزبور الذي أوحاه الله إليه. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من العلم الذي اختَصَّهُ به ﷺ، فألانَ له الحديد، ومكَّنه من التحكم به، وصناعة الدروع.

قال تعالى معلقًا على قصة جالوت وطالوت: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ فالهدف من الجهاد في سبيل الله هو دفع ومنع فساد أهل الفساد، فلولا أن الله سبحانه وتعالى يَدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد بأهل الإصلاح، لغلب أهل الباطل وطغوا على الصالحين، ولعاثوا في الأرض فسادًا.

﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)﴾ فهو المتفضل على جميع مخلوقاته، فهذا النصر هو فضل على المسلمين بأن يُعزهم ويرفع شأنهم بالنصر والتمكين، وأيضًا على الذين لم يؤمنوا، بأن يعيشوا في ظل حكم عادل صالح.

۞ ۞ ۞

قصص القرآن هي القصص الحق (252-254).

قال تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ يعني: ما قصصنا عليك يا محمد من القصص والأخبار، هي القصص الحق، وليست كأخبار أهل الكتاب التي وضعوها من عند أنفسهم. فقصة طالوت وجالوت ذُكرت في (العهد القديم) في سفر صاموئيل الأول، وكلها كذب؛ لأن فيها طعن في الأنبياء المعصومين، أما ما يُخبرك الله به فهو الحق، لهذا جاء بعدها: ﴿**وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** (252)﴾ "فلأنك من المرسلين فإن الله أيدك بالمعجزات والكرامات، ويُخبرك بالقصص الصحيحة"، وهي شهادة على صدق نبوته ﷺ لأنه أُميّ، لا علم له بأخبار الأمم السابقة، إلا ما علمه الله تعالى عن طريق الوحي.

ثم يقول تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ هؤلاء الأنبياء -الذين أنت منهم يا محمد- فَضَّلنا بعضهم على بعض، الضمير في (فضلنا) يعود على رب العزة جل جلاله، والله سبحانه يُفضِّل من مخلوقاته كما يشاء، أما نحن فنؤمن بكل الأنبياء، ولا نُفَرِّق بين أحد منهم، وجاء في الصحيحين: قال ﷺ: (**لا تُفَضِّلوا بين أنبياء الله**).

ثم بَيَّنت الآية بعض هذا التفضيل، فقال تعالى: ﴿**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**﴾ خَصَّ الله تعالى بعضهم بكرامات، فكلم بعضهم، كآدم ﷺ، وموسى ﷺ، ومحمَّد ﷺ.

﴿**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾ فَخَصَّ بعضهم بالنبوة، وأخرين بالنبوة والرسالة، أو بالنبوة والمُلك، أو تفاوت في عدد الأتباع. وقيل: "والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتيَ ما لم يؤته أحد من الآيات" ولو لم يؤتَ إلا القرآن لكفى به فضلاً.

ثم قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ وقد خَصَّ عيسى ﷺ بالذكر لأن الاختلافات التي حصلت في بني إسرائيل بعده كبيرة جدًا، بين إفراط النصارى ومبالغتهم فيه حتى جعلوه إلهاً أو ابن إله، وتفريط اليهود الذين ذموه وحاولوا قتله، وكلا الفريقين أخطأ السبيل، ولذا خصَّته الآية: ﴿**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**﴾، وهي المعجزات، فتكلم في المهد، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، وكان ينفخ في هيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله...

ثم قال تعالى بعدها: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ لو أراد الله تعالى أمرًا لكان هذا الأمر كما أراد، فلو شاء أن لا يقتتل هؤلاء لما اقتتلوا، ﴿**وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا**﴾ فسبب الاقتتال هو الاختلاف، والاختلاف يؤدي إلى تَعَصُّب كل طرف لقوله، فيكون الاقتتال، لهذا أَمَرَ اللهُ تعالى أمة الإسلام بالوحدة والائتلاف، وعدم الاختلاف، في آيات وأحاديث كثيرة.

ثم يُبيّن ربنا نوع الاختلاف الذي حصل في بني إسرائيل، فقال: ﴿**فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ**﴾ فالاختلاف كان في الدين، ونبيهم عيسى ﷺ، الذي جاءهم بالآيات البينات والمعجزات، فمنهم من آمن به ومنهم من كَفَرَ.

والاختلاف في الدين أخطر أنواع الاختلاف، فإذا كان الاختلاف على قطعة أرض في هذه الدنيا قد يؤدي إلى الشجار والقتل، فما بالك بقضية الإيمان والكفر؟ لهذا جعل الله المسلمين أمة واحدة مجتمعة، لا ينبغي أن تتفرق أو تختلف، فقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ (المؤمنون: 52)، فالدين واحد، والأمة يجب أن تكون متوحدة عليه، لهذا كان شعار أعداء هذه الأمة (فَرِّق تسُد) وقد نجحوا للأسف.

☜ بعد أن أخبر الله تعالى بأن وجود الاختلاف هو سبب للقتال، كرر وقال: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا**﴾ ليبين امكانية الاختلاف دون قتال، فلا ينبغي للأمة أن تجعله سببًا للاقتتال والقطيعة، فالاختلاف وارد في الأمور الحياتية، لكن في الدين لا اختلاف.

﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** (253)﴾ فهو الذي يفعل ما يشاء بقدرته وحكمته، فلا رادَّ لقضائه، ولا يملك أحد أن يعترض على حُكمه.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ وتختصر هذه الآية كل ما يجب على المؤمن فعله في حياته، قاعدة مهمة تقول: أيها المؤمنون استغلوا حياتكم في الدنيا في كل ما ينفعكم يوم القيامة.

قيل: المقصود الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، لأنه سبق الحديث عنه، والإنفاق لا ينحصر بالمال كما يظن البعض، فإن الحياة رزق، والصحة رزق، والوقت رزق، والذرية

رزق، حتى الحكمة وحسن التدبير رزق، والمؤمن يُنفق في سبيل لله، نصرًا لدينه، ونفعًا لعباده، وابتغاء رضوانه، والجهاد يحتاج إلى الإنفاق من كل شيء وليس المال فقط.

﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ**﴾ وهذا الإنفاق يكون قبل يوم القيامة؛ لأنه إذا جاء يوم القيامة لا ينفع أن يفتدي أحدٌ نفسه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ**﴾ (آل عمران:91).

﴿**وَلَا خُلَّةٌ**﴾ الخليل هو الصاحب، فلا تنفع في ذلك اليوم صُحبة أحد، حتى الأخ يفر من أخيه، والابن من أبيه وأمه، إلا صحبة أهل الدين فإنها تستمر وتدوم وتنفع، قال تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة الزخرف: 6).

﴿**وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ لأهل الكُفر، فالكافر الذي حق عليه العذاب لا تنفعه شفاعة الشافعين، أما أهل إيمان فإن هناك شفعاء يشفعون لهم، كالصيام والقرآن، والرسول ﷺ.

وختام الآية: ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ أي أن الكافرين بالله هم الذين ظلموا أنفسهم، وحصر الظلم فيهم لعظم ظلمهم، يقول عطاء بن دينار رحمه الله : "الحمد لله الذي قال: ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ ولم يقل: "والظالمون هم الكافرون" (أخرجه الطبري).

۞ ۞ ۞

أعظم آية في القرآن الكريم وما بعدها (255-257).

﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...** (255)﴾. آية الكرسي، سُميت بذلك لذكر كرسي الرحمن جل جلاله فيها، وهي أعظم آية في القرآن، وثبت في فضلها أحاديث كثيرة.

وبدأت الآية بلفظ الجلالة ﴿**الله**﴾، هذا الاسم الجامع لكل صفات الكمال، ومعناه المألوه أي المعبود المستحق للعبادة لأنه اتصف بصفات الألوهية. وقد ورد اسم (الله) بملحقاته (مثل: لله، بالله، تالله، فالله) في القرآن (2699) مرة، وهذا العدد عدد أولي مفرد يعبر عن وحدانية الله فهو لا ينقسم إلا على نفسه وعلى واحد لأن الله واحد!

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ وهذه الكلمة أصل دين الإسلام، وأصل التوحيد، الذي جاء به كل الأنبياء، من آدم وحتى محمد عليهم الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25). فكل رسول أتى قومه وقال لهم: ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة هود:84).

ومعنى (لا إله إلا الله) أنه لا يوجد من يستحق العبادة في الأرض ولا في السماء إلا (الله)، وكل عبادة لغيره باطلة، لهذا استغرب كفار قريش واستنكروا لما قال لهم محمد ﷺ: (**قُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللهُ تُفْلِحُوا**) (أخرجه أحمد)، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (سورة ص: 5)؛ لأنهم اعتادوا تعدد الآلهة؛ ولأنها تبطل آلهتهم المزعومة.

ومن صفات الإله أنه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وحياته تامة كاملة لم يسبقها عدم ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص، فكم في هذه الدنيا من أحياء! كثيرون، لكنهم يعتريهم النقص، ثم يموتون، لهذا أمرنا ربنا بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ... (58)﴾ (سورة الفرقان)، فصفة الحياة له جل جلاله صفة ذاتية، فالله تعالى لم يزل ولا يزال حياً.

و﴿الْقَيُّومُ﴾ جل وعلا قائم بنفسه وقائم بغيره، فكل مخلوق مفتقر إليه، فلا قوام لأحد إلا بالله، وهو غني كل الغنى عن جميع خلقه، والمخلوق يعتمد في حياته على رزق الله من غذاء وماء وهواء، فإذا منعها عنهم ماتوا، فالمخلوق ليس قائمًا بذاته، أما رب العزة (حيّ قيوم) قائم بذاته جل جلاله؛ ولا يحتاج أحدًا من خلقه.

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ إن من كمال قيوميته أنه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ و(السِّنَة) مقدمة النوم كالنعاس، وهي صفة نقص، وربنا منزه عن كل نقص، قال ﷺ: (**إِنَّ اللهَ لا يَنَام وَلا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام**) (أخرجه مسلم)؛ لأن جميع الكائنات محتاجة إليه في بقائها.

ثم قال سبحانه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهُنا يُبيّن عظمة مُلكه جل وعلا، فجميع ما ومن في السماوات والأرض مُلكٌ لهُ، مقهورون وخاضعون لمشيئته، وهو المصرف لشؤونهم، والرقيب عليهم، فهم يفتقرون إليه، وهو متكفل بهم، لأنه ربهم.

ثم يقول تعالى مبيّنًا سُلطانه وعظمته: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهذا استفهام إنكاري، فمن يستطيع أن يشفع في ذلك الموقف دون إذنٍ من الله تعالى؟ فلا أحد يشفع عنده إلا إذا أَذِنَ له، ورضي عن الشافع والمشفوع له.

ثم يُبَيّن تبارك وتعالى سعة علمه: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ فلا تخفى عليه خافية، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، يعلم ما يُدركونه وما لا يُدركونه، فكل علم في الدنيا هو مصدره، ولا يستطيع أحد أيًا كان أن يعلم أي علم أو يتعلمه إلا إذا شاء الله وأراد له ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾ في الحقيقة اختلف المفسرون في معنى الكرسي، فقيل: إنه العرش، وهذا قول بعيد، وقيل: إنه موضع القدمين للرب عز وجل، وهذا فيه حديث صححه بعض العلماء، وقيل: إن الكرسي معناه العلم، فيصبح معنى الآية: وسع علمه السماوات والأرض. وهذا هو المشهور عن ابن عباس.

فالكرسي مخلوق عظيم من مخلوقاته، ومن عظمته أن السماوات والأرض صغيرة جدا بالنسبة إليه، حتى روي في الحديث: (**يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**)[1].

﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي: لا يُتعِب ربَّ العزة حفظ السماوات والأرض من أن تزولا أو تميدا أو تضطربا، فالسماوات فيها أجرام عظيمة، لو اختل توازنها؛ أو تغير مسارها درجة واحدة لحصل من الكوارث ما الله به عليم، فمن الذي يحفظها؟ إنه الله:

- أولاً: يحفظها بما فيها من أجرام وكواكب ومجرات من أن تصطدم ببعضها البعض، كما قال تعالى: ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ (الحج: 65).
- ثانيًا: ويحفظ الأرض من أن يختل مدارها، ويثبتها بالجبال الراسيات؛ فلا تميد ولا تضطرب، قال تعالى: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ (سورة النحل:15).
- ثالثًا: يحفظ أعمال عباده، فلا يضيع منها شيء أبدًا، ثم يُحاسبهم عليها، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ... (6)**﴾ (الشورى: 6).
- رابعًا: يحفظ العبدَ من الشرور والآفات والعذاب، إن هو حفظ حدوده، قال النبي ﷺ: (**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**) (أخرجه الترمذي).

---

(1) صحيح ابن حبان (361)، وقال الألباني: ضعيف جداً، انظر (السلسلة الضعيفة) (1910 و 6090)، لكنه صحح ما يتعلق بالعرش كحديث منفصل أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش، انظر الصَّحِيحَة رقم (109).

- خامسًا: يحفظ السماوات من كل من يُحاول اختراقها من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: 32).
- سادسًا: يحفظها ويحفظ من فيها، كحفظ سلالات المخلوقات، وحفظ السلاسل الغذائية، وحفظ العوالم في البحر والبر والجو من أن تنقرض وتنتهي.

فالله تعالى يحفظ ذلك كله بلا مشقة ولا كُلفة، ودون أدنى تعب أو نصب، بل ذلك يسير عليه جل وعلا، وصدق سبحانه حين قال: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ والعلي اسم من أسمائه جل وعلا، والعلو صفة من صفاته، وهو عَليٌّ في كل شيء، علو في المكانة، فهو عالٍ في قدره، وعالٍ في كمال صفاته، وفي كمال أفعاله وحكمته فيها، وقد جاء هذا الاسم مقروناً باسم العظيم لبيان عظمة هذا العلو. وأيضًا علو القهر والغلبة، فلا ينازعه منازع ولا يغلبه غالب: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: 18). كما أنه عالٍ في المكان، يعني: مُرتفع في السماء، كما ثبت في القرآن الكريم قول ربنا: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17)﴾ (سورة الملك).

﴿الْعَظِيمُ (255)﴾ وهو الذي يُعَظِّمه خَلقُهُ، فله سبحانه صفة العظمة في كل شيء: عظيم في ذاته، وفي أفعاله، وفي صفاته، وكل ما دونه صغير ضعيف، ومن مُلئ قلبُه بهذا فإنه لا يخاف مما سواه، فهو وحده ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه.

ثم يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

آية الكرسي أَسَّسَت مبادئ الإسلام، مبادئ التوحيد الخالص، ونبذ الشرك، مبادئ الدين الحنيف، وبعدها يقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وهذه الآية تقرر وتؤكد قاعدة عظيمة من قواعد هذا الدين، وهي قاعدة حرية الاعتقاد؛ إذ الأصل أن يختار الناس عقيدتهم بمحض إرادتهم، من غير إكراه مادي أو ضغط معنوي، فإن الإكراه يتنافى مع الكرامة التي امتن الله بها على الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء:70).

لماذا لا يجوز إكراه غير المسلم على الإسلام؟ لأن التوحيد دين الفطرة ظاهرٌ لا يحتاج لأن تُكرِهَ الناس عليه، ولا سبيل أصلاً إلى إكراه الناس عليه، لهذا قال: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾، أي: أصبح الدين الحق الذي يوافق الفطرة، ويوافق العقل السليم واضحًا للناس، وهذا يدفعهم إلى الدخول فيه. والسؤال: كيف يتبيَّنَ الرشد من الغي؟

1- عن طريق العقل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، في الكون والإنسان، فمن تفكر فيهما بحق اهتدى إلى سبيل الرشد، والتوحيد الخالص.

2- عن طريق الأنبياء، فقد أوضحوا للناس الحق، ورغبوهم في اعتناقه، وحذّروهم من الكفر والضلال والغي.

3- عن طريق القرآن الكريم، فالمتفكر والمتدبر فيه يصل إلى قناعة تامة بأن دين الله وعبادته هو الحق، وعبادة غيره غي وضلال.

4- عن طريق هدي النبي ﷺ، وسلوكه في عبادته، ومعاملته، ودعوته؛ فإنه بهذه الطريقة العظيمة تبين للكفار، وغير الكفار حسن الإسلام؛ وتبين الرشد من الغيّ.

يقول تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ**﴾ و(الطاغوت): ما يُعبَد من دون الله وهو راضٍ بذلك، فمن تَرَكَ عبادة المخلوقات، وعَبَدَ الله وَحدَهُ، وشهد أن (لا إله إلا الله) ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**﴾ أي: تشبَّث بالحق، واستقام على الصراط المستقيم.

و(العُروة الوثقى) هي شهادة الحق (لا إله إلا الله)، فمن تمسك بهذه الشهادة فقد تمسك بالدين القويم الذي سار عليها النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.. هذه العُروة الوثقى ﴿**لَا انفِصَامَ لَهَا**﴾ أي: لا تنقطع، ولا تقطع صاحبها فتتركه، قال تعالى: ﴿**وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (256)﴾ يسمع أقوالكم، إذا شهدتم أن لا إله إلا الله، ويعلم ما في قلوبكم من صدق أو كذب، فكم من الناس لا تنفعهم (لا إله إلا الله) لأنهم قالوها كذبًا ونفاقًا، لكن من قالها مخلصًا بها فإنها تنفعه، قال ﷺ: (**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**) (أخرجه البخاري).

***

﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ والولي: المسؤول عن الأمر، المتولي له والقائم به، كولي اليتيم، فالذين آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وتشبثوا بِالعُروةِ الوُثقى فإن الله وليهم، وهو قريب منهم بنصره وتأييده، ودفاعه، وحفظه، وعونه، وتوفيقه، ورحمته.

كيف تكون هذه الولاية؟؟ قال: ﴿**يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ يُنجيهم من كل أنواع الظَّلام والشرور، فيُخرجهم من ظلام الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ظلام الرياء إلى نور الإخلاص، ومن ظلام الذل إلى نور العزة، ومن ظلام الشك إلى نور اليقين، ومن ظلام الظلم إلى نور العدل... .

وجاءت (الظُّلمات) بالجمع (النُّور) مُفردة لأن طُرُق الباطل كثيرة ومُتعددة، و"النور" طريقه واحد، وهو الطريق المؤدي إلى رضوان الله وجنته، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ (سورة الأنعام:153).

يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بالله ﴿**أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ لأنهم آمنوا بالطواغيت وعبدوها وامتثلوا أمرها، فطواغيتهم ﴿**يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ وأهم نور: نور الهداية، فيُخرجوهم منه إلى ظلمات الكفر والشرك أو الإلحاد.

ثم جاء الحكم الرباني عليهم، فقال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)**﴾ خالدون: يعني دائمون: فلا هم يخرجون منها، ولا هي تنتهي عنهم.

۞ ۞ ۞

أمثلة عملية على التوحيد الصادق (258-260).

ثم تضرب الآيات مثلاً لمن آمن بالله وكفر بطاغوتٍ من الطواغيت: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾ هذه قصة حصلت مع إبراهيم ﷺ عندما التقى بِمَلِكٍ طاغوت، كان يدعو الناس إلى عبادته، قيل: اسمه "النمرود بن كنعان".

إبراهيم ﷺ ذهب ليدعو هذا المَلِك إلى دين الله، فسأله الملك: من ربُّك؟ فقال: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ جواب عجيب، فإبراهيم ﷺ يعلم علم اليقين أن وضع الروح في الجسد وإخراجها منه لا يكون إلا بأمر من الله، والروح لا يعرف ما هي إلا ربها.

استغرب الملكُ من جواب إبراهيم ﷺ، و ﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ هذه مسألة سهلة.. هذا رجلٌ كنت سأقتله؛ وسَأُطلِق سراحه، فقد أحييتُه بعد أن كان في عداد الأموات، وهذا رجل حيّ قتله، فقد أَمَتَّه.. فعلم إبراهيم ﷺ أن هذا المِلك يُدَلّس على الناس؛ لأن حجته ضعيفة وغير منطقية، إذ كيف تقول عن شخص حيّ أصلاً: قد أحييته؟ فلو أطلق سراحه، ومات وهو على باب السجن، فماذا يصنع هذا المِلك؟

فذهب إبراهيم ﷺ إلى حُجة أقوى وأوضح، فقال له: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾.. وهذه لا حيلة له فيها، ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ والفعل (بُهِتَ) معناه: غُلِبَ وتحيَّر، أو ذهبت حجتُه ولم يجد جوابًا. ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (258)﴾ أي: لا يوفقهم ولا يلهمهم حُجة، "فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حَريٌّ أن يَهدِيَه الله عز وجل".

فهذا مثال على رجل آمن بالله وكَفَر بالطاغوت، فأخرجه الله من الظلمات إلى النور، فَنَصَره وأعَزَّه وأكرمه، وأصبح قُدوة لكل الصالحين في العقيدة والصدق والثبات، بينما الآخر كان طاغوتًا، فلم ينفعه ظلمه ولا تجبره ولا تكبره ولا كل من عبدوه.

وقصَّةً أُخرى، تُبيّن أن الله يُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، وأنه لا يُعجزه شيء، قال تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ**﴾ فلم يُذكَر لنا من هو الرجل، ولا القرية، ألا أن بعض روايات الإسرائيليات ذكرت أن اسمه (العُزير) وأن القرية هي (بيت المقدس).

قال تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا**﴾ أي: هل سمعتم بقصة الرَّجُل الذي مَرَّ على قرية خَرِبَةٍ، وأهلها موتى؟ هذا الرجل كان يركب حمارًا، ويحمل معه طعامًا وشرابًا، وعندما رأى القرية تساءل: ﴿**أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾؟

أراد الله تعالى أن يُجيب على تساؤل هذا الرجل ﴿**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ**﴾، ومكث مئة عام ميتًا، ثم أحياه، وسأله: ﴿**كَمْ لَبِثْتَ**﴾ كم مكثتَ ميتاً؟ فأجاب الرجل بقوله: ﴿**لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ بناء على التقدير والتقريب، قال العلماء: قال ذلك؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار؛ فظن أنه مكث يومًا أوبعض يوم.

◈ لكن؛ كيف تكلم الله تعالى مع هذا الرَّجُل؟ الله أعلم بذلك، فقد يكون عن طريق رجل معين، أو مَلَكٌ على هيئة رجل، أو بالوحي أو كلامًا كموسى إن كان نبيًا، وقيل: أرسل الله إليه ملك الموت فكلمه.

﴿**قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**﴾ أخبره أنه لبث مائة عام ميتًا، ثم أخبره بالدليل: ﴿**فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**﴾ هذا الطعام والشراب الذي كان معك ما تغير طيلة هذه الفترة الزمنية، والطعام والشراب من أسرع ما يفسد مع الزمن.

ثم أعطاه دليل البعث، فقال: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ**﴾ الذي مات، وتحلل وصار رفاتًا: ﴿**وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ**﴾ فستكون قصَّتك عبرة يعتبر بها الأقوام على مدى الأزمان، ﴿**وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾ (نُنشزها) يعني نرفعها، فنُعيد الحياة إلى العظام ونجمعها ببعضها، ثم نكسوها لحمًا كما كانت، وقد رأى الرجل كل هذا أمامه، عندها أيقن حق اليقين أن الله تعالى قادر على الإحياء والبعث والنشور: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (259)﴾.

وفي قراءة: ﴿اعلم﴾ بدون همزة، وتقديرها: اعلم -أيها الرجل- أن الله على كل شيء قدير، و(القدير) هو الذي يفعل الفعل بلا عجز، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** (44)﴾ (سورة فاطر).

وقصة أُخرى، ومثال آخر على البعث، وعلى ولاية الله للمؤمنين، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ونعود إلى خليل الله إبراهيم مرة أُخرى، وقد ضَرَبَ الله به الأمثال لأنه القدوة للناس: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ (الممتحنة:4).

سأل إبراهيمُ ﷺ ربَّهُ أن يُريه ويُعلمه كيف يُحيي الموتى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ**﴾ "ولم يكن إبراهيم ﷺ يَشُكّ في القدرة الإلهية، ولا يجوز على الأنبياء مثل هذا الشّك، ولا يصح لأحد أن يقول: "ممكن الشيطان أغواه فشككه"، فإنه ليس له سلطان على أنبياء الله وأولياءه، وإنما سأل كي يزداد إيمانًا، فقوله: ﴿**أَرِنِي كَيْفَ**﴾ طَلَب مشاهدة الكيفية، وليس اختبار القدرة الإلهية.

قال الله تعالى له: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِنْ**﴾ وهذا دليل على أن سؤال إبراهيم ليس شكًّا، فقال: ﴿**بَلَى**﴾ إي: الإيمان قد ترسخ في قلبي، ولم أشكّ طرفة عين في قدرتك، ﴿**وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ فإنما سألتُ حتى يرتاح القلب ويطمئن، ولأزداد يقيناً وإيماناً.

أجابه الله طلب سيدنا إبراهيم ﷺ، فقال له: ﴿**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾ (فَصُرهُنَّ) قَرِّبهُنَّ أو اضممهن إليك، أو: قطعهن، فالمعنى: خذ يا إبراهيم أربعة طيور، ثم اذبحهن وقَطّعهن، ﴿**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا**﴾ ولا يهمنا نوع الطيور ولا عدد الجبال، فلو كان لذلك أهمية لَنَصَّ عليها القرآن، أو بَيَّنته السُّنَّة.

نَفَّذ إبراهيم الأمر فأتى بالطيور ووزعها على الجبال القريبة، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**﴾ أي: نادِ عليهن، فنادى، عندها تجمعت أجزاء كل طير، واتصلت ببعضها، وعادت للحياة، وأتت إلى إبراهيم ﷺ مشيًا، وهذه يدل على عظمة الله وقدرته المطلقة، فلا أحد سواه يُحيي الموتى، ولا يُعيد الحياة إلى الأشلاء الممزقة، لهذا قال بعدها: ﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (260)﴾ والعزيز هو الذي لا يُعجزه شيء، والحكيم هو ذو الحكمة البالغة، حيث يضع الأمور في مواضعها المناسبة.

تنويه: قال بعض العلماء: "وهذا يشير إلى أهمية العلم التجريبي، والاختبارات العملية، لمعرفة كيفية تركيب الأشياء"، وأن هذا علم مطلوب، ويؤجر عليه صاحبه.

۞ ۞ ۞

أجر الإنفاق في سبيل الله، وسعة الكرم الإلهي (261-262).

قال تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**﴾ من كرمه تعالى على المؤمنين أنه يُضاعف أُجورهم، وهُنا يضرب مَثَلاً لبيان عظيم أجر الصدقة، فقال: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ**﴾ (البخاري)، فالحبة الوحدة تُصبح سبعمائة، فكذلك يُضاعف الله الصدقة، ويُثيب عليها.

﴿**يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ تشمل الجهاد، والعلم، والدعوة، ورفع مستوى الأمة الاقتصادي ومحاربة الفقر، وتشمل النفقة على العيال،... فتشمل كل نفقة تُرضِي الله.

﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ أكثر من هذا، بحسب إخلاص المُنفق وطيب نفسه بما أنفق، ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (261)﴾ واسع الكرم والرزق، وواسع الفضل، وعليم بأحوال عباده، لا تغيب عنه عباداتهم ونفقاتهم، وعليم بما في قلوبهم من إيمان وإخلاص، ولا يعلم عدد هذه الأضعاف إلا من يُضاعفها جل جلاله، ففي الصحيحين إنها تصل إلى سبعمائة ضعف، ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾.

يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى**﴾، فمن أسباب مضاعفة أجور الصدقات: (1) عدم المنّ بها، (2) عدم الإيذاء أو الضرر، سواء باللفظ أو بالفعل. فالذين يُنفقون بلا مَنٍّ ولا أذى: ﴿**لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أي أن الله تعالى لا ينسى لهؤلاء هذا الصنيع، فإن أجرهم حاصل لا محالة، بل يُضاعف لهم إلى أضعافٍ كثيرة.

وأيضًا: ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ فهم آمنون، لا يخافون على أنفسهم، ولا يخافون أن تُبخس أعمالهم، ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (262)﴾ على ما فاتهم في الدنيا من التعب والنَّصَب عندما يجدوا أجره وثوابه، بل يتمنوا أن لو ازدادوا منه.

يقول تعالى: ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ**﴾ والمعروف هو ما فيه نفع، دنيوي أو أخروي، فمُجَرَّد الكلمة الطيبة التي تنفع الناس؛ كدُعاء لمسلم، أو عفو عن مظلمة أو نصيحة، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تقدير كبير، أو رحمة صغير... ﴿**خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى**﴾ خير من كل الأموال التي تتصدق بها مع المَنّ أو الأذى، حتى وإن كانت بالملايين.

﴿**وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** (263)﴾ والغنيُّ: هو الذي لا يحتاج إلى غيره، والله ليس محتاجًا لأحدٍ من مخلوقاته، ولا يحتاج إلى صدقاتنا، ولا عباداتنا، فهو الغني، وغناه مُطلق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** (15)﴾ (سورة فاطر).

۞ ۞ ۞

لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى (264-265).

هذا خطاب أخر للمؤمنين يُحذرهم من تصرفات تمحق الأجور وتُبطِل الأعمال، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالاذَى**﴾ يا أهل الإيمان، لا تمنعوا أنفسكم من الأجر وتحرموها من ثواب الأعمال الصالحة التي تعملونها، عن طريق (المَنّ) بالصدقة و(الأذى) فيها. فالمنان والمؤذي يطلب ثناء الناس، ويَوَدّ أن يذكروه، لذا قال تعالى بعدها: ﴿**كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**﴾ مثل هذا كمثل الذي يُرائي بصدقته، ويبغي أن يُقال عنه (جواد) أو (كريم).

﴿**وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ**﴾ لأنه لا يؤمن بأنه سيؤجر على عمله يوم القيامة، وهذا العمل ليس من صفات المؤمنين بالله وباليوم الآخر، فالإيمان يتطلَّب التصديق التام بأنه سَيُجازيه بجزيل الثواب على الصدقة، سواء في الدنيا أو في اليوم الآخر.

﴿**فَمَثَلُهُ**﴾ أي المنان، والمؤذي بصدقته ﴿**كَمَثَلِ صَفْوَانٍ**﴾ أي: الحجر الأملس ﴿**عَلَيْهِ تُرَابٌ**﴾ يُغطيه، فيرى الناس هذا التراب فيظنوه أرضًا خصبة وترابًا صالحًا للزراعة، ﴿**فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا**﴾ فإذا ما أصابه المطر تبينت حقيقته وصار صلدًا يعني: عاري، تبيَّن أنه لا يُستفاد منه في الزراعة ولا غيرها، وكذلك أعمال أهل الرياء والمَنّ يظنون فيها الأجر، لكنها عند الله لا شيء.

فهؤلاء: المرائي والمنان المؤذي ﴿**لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا**﴾ لن يكسبوا أجر وثواب أعمالهم، بل يخسرون خسارتين: المال الذي أنفقوه؛ لأنه لا يُعوّض بسبب الرياء، وخسارة الأجر الثواب. أما من يتصدّق مخلصًا، فسَيُخلفه الله في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿**وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)**﴾ الذين أصروا على كُفرهم وماتوا على ذلك؛ لا يهديهم الله إلى التوبة، ولا إلى ما ينفعهم في الآخرة؛ لإصرارهم على الكُفر، فيوم القيامة أيضًا لا يهديهم إلى طريق الجنة، بل إلى النار.

أما إذا تَفَكَّروا وتدبّروا آيات الله تعالى المقروءة والمرئية، جاهدوا أنفسهم وشهواتهم، ثم قصدوا الإيمان والتوبة، فإن الله يهديهم ويوفقهم، لذلك لقوله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)**﴾ (سورة العنكبوت).

كان هذا مَثَل من يُبطِل صدقته بسبب عدم إخلاصه، وثم يَضرِبُ مثلاً مُقابلاً: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**﴾ فقط الهدف من إنفقاهم وأعمالهم (إرضاء الله تعالى)، فلا مَنّ ولا سُمعة ولا رياء، وإنما ﴿**ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**﴾..

﴿**وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ أيّ أن أنفسهم مُتيقنة أن الله سيجزيهم خيرًا، ومن تيقن أن ثوابه من الله؛ فما حاجته إلى أجر البشر؟ ومن عَلِمَ أن الله سيمدحه في السماء، فما حاجته إلى مدح البشر؟ وقد ثبت أن الله تعالى يُباهي الملائكة بمن يعمل الصالحات.

وقيل: معناه: أنهم جاهدوا أنفسهم بالإنفاق والأعمال الصالحة وضحوا لأجل أن يثبُت الإيمان في نفوسهم، والأعمال الصالحة تُثَبّت الإيمان واليقين في القلوب، وتُثبِّت الجوارح على الطاعات، فكل عمل صالح يَزيد في الإيمانَ؛ سواءً كان صغيرًا أو كبيرًا.

فهؤلاء المنفقين المخلصين مثلهم ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ**﴾ بُستان كثير الزرع، يتخلله ماء، ﴿**بِرَبْوَةٍ**﴾ والربوة هي المكان المرتفع، على رأس تلة مثلاً، هذه الجَنّة ﴿**أَصَابَهَا وَابِلٌ**﴾ مطر شديد، فسقى مزروعاتها، ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**﴾ أي تضاعفت ثمارها، وكَثُرَ إنتاجها.

وهذا البُستان: ﴿**فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ**﴾ أي: إذا لم يُصبه من المطر إلا القليل فإنه يُنتج أيضًا، ويُثمر الكثير لخصوبة أرضه، فلا يُمحِل ولا يَجِفّ، سواء أمطرت أم لم تُمطر، وكذلك عمل المؤمن لا يضيع عند الله، يتقبله ويُكثِّره، لهذا خُتمت الآية: ﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (265)﴾ فلا يغيب عنه أي عمل عملتموه، وسيُجازيكم عليه.

۞ ۞ ۞

الذنوب تُحبط الأعمال (266-269).

الرياء والمنّ والأذى تُحبط الأعمال، وهنا يضرب الله تعالى مثلاً يُبيّن لنا ذلك، فقال: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ ألا يُحب أحدكم أن يملكَ أرضًا كبيرةً، وبستاناً فيه من الأشجار والثمار الكثير؛ كالنخل والأعناب ومن كل الثمار التي يستفيد منها؟ كل إنسان يتمنى هذا.

لكن هذا الرجل ﴿**وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ**﴾ كبير في العمر وضعيف، لا يستطيع نفع نفسه، وعنده أولاد كُثُر، لكنهم صغار أو مرضى لا يستطيعون نفعه،

﴿**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾ دُمر بُستانه كله واحترق بإعصار في نار، ففقده وهو أحوج ما يكون إليه، ولا يوجد حيلة لاسترداد ما ضاع، أو إعمار ما احترق.

وكذلكَ الإنسان الذي يعمل الصالحات، ويجمع الأجور والحسنات، ثُم يُبطلها بأعماله القبيحة، وأخلاقه السيئة، وبالرياء، فهذا الإنسان يفقد حسناته في وقت هو أحوج ما يكون إليها، كما فقد هذا ماله وجنته وهو في أشد الحاجة إليها، فيندم هناك النادمون.

﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الايَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** (266)﴾ أي هذه الأمثال، وهذه الآيات إنما يُبيَّنها الله لكم كي تعتبروا وتتعظوا منها، فتتفكروا وتكونوا مثل أهل الصلاح والنجاة، ولا تكونوا مثل أهل الضلال والخسران.

ثم يقول تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الارْضِ**﴾ خطاب لجميع المؤمنين، أن يُنفقوا من الطيبات وهي أحسن ما عندهم وأطيبه، وقوله: ﴿**مَا كَسَبْتُمْ**﴾ أي: ما تعبتم وبذلتم جُهدًا في الحصول عليه، بِالتجارةِ والصناعةِ وغيرها، ﴿**وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الارْضِ**﴾ ما حصلتم عليه دون تعب؛ كالنباتات والثمار والمعادن وغيرها. فإذا أردتم الانفاق؛ تحروا أفضل ما عندكم وأطيبه، ﴿**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ فلا تختاروا أردأ الأشياء وتتصدقوا بها.

﴿**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**﴾ هذا الخبيث الذي لو عُرِضَ عليكم لما قبلتموه، وما أخذتموه، ﴿**إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ أي: تأخذوه حياءً وخجلاً، فلا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا الطيبات ونعطي الله الرديء؛ لأن أحدنا لا يرضى أن يأخذ لنفسه هذا الرديء، فكيف يقبل أن يتصدق به لله؟ وفي صحيح مسلم: قال ﷺ: (**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا**).

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** (267)﴾ غني عن عباده وصدقتهم وعبادتهم وأعمالهم، وهو ليس بحاجة إلى أي منهم، فلا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى.

ثم يقول تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ**﴾ يُخبركم أنكم ستفقرون، وأن أموالكم تذهب هدرًا، وتنقص ولا تُعَوّض، وهذا ما نفاه ربُّنا جل وعلا فقال: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ**

﴿خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (272)﴾، أي: لن ينقص المال من الصدقة وإن رأيناه ظاهريًا ينقص، فلا تستمعوا لوعد الشيطان؛ لأنه يأمركم بِالمعاصِي وَمُخَالَفَةِ أوامِرِ اللهِ.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ فالله يعدكم في مقابل ذلك شيئين: المغفرة، والعفو والمسامحة، ثم دخول الجنة، فإن من يغفر الله له ويُسامحه فإنه من أهل الجنة، و﴿فَضْلاً﴾ زيادة في الجنة، وقد يكون الفضلُ: الخَلَف والتَّعويض في الدنيا.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268)﴾ واسع في كل شيء جل جلاله، فرحمته واسعة، ومغفرته واسعة، وفضله واسعٌ، وجوده واسع، وعلمه واسع بكل أحوالكم.

ثم يقول تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ قيل: الحكمة هنا الفقه في القرآن، أو العلم بالدين، أو النبوة، وقيل: معرفة الحق والعمل به، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فإذا شاء رب العزة فمشيئته نافذة، فيؤتي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا يملك أحد الاعتراض على حكمه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ خيرًا في الدنيا من رزق وفضل، وخيرًا في أخرته جزاء ما عمل، فيُفضي به إلى السَّعَادَة الابَدِيَّة. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الالْبَابِ (269)﴾ أصحاب العقول وأصحاب الذكاء هم من يعتبرون من هذه الآيات، فيُقبلوا على طاعة الله، ويلتمسوا رضاه، في كل أقوالهم وأفعالهم.

۞ ۞ ۞

من أحكام النذر و الصدقات (270-274).

ما زال الحديث عن الإنفاق في أوجه الخير، وينتقل إلى حكم النذر، قال تعالى: ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ الله تعالى يعلم أنكم أنفقتم أو نذرتم، وستجدوه في سجلات لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة، ولن ينساه أو يُهمله.

﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (270)﴾ الذين ظلموا أنفسهم وظلموا العباد وأنفقوا رئاء الناس، أو أتبعوه بالمنّ والأذى، أو أنفقوا من الخبيث، أو لا يُوفون بالنذور، فليس لهم من ناصر عند الله، ولا مُحامُ يُدافع عنهم هناك، ولا شفيع يُطاع..

ثم يقول تعالى: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾ إذا أعلنتم بالصدقة وأظهرتموها رغبة في تشجيع الناس على الصدقة، فإن هذا شيء محمود، وجيّد، ﴿**وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ وإذا كانت مخفية لا يعلمها إلا الله فذلك خير من إظهارها. ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ**﴾ أي يُجازيكم على هذه الصدقات بأن يُكفر عنكم من سيئاتكم، ﴿**وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (271)﴾ عالِمٌ بنواياكم وبأعمالكم.

قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ أنت لست مسؤولاً عن هداية الكافرين، ووظيفتك محصورة في تبليغهم الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ فالله عز وجل يهدي من اقتضت حكمته هدايته. أو من يشاء الهداية ويسعى لها؛ فإنه يهديه ويوفقه إلى الصواب، ولا هادي سواه جل جلاله.

فبعد أن رَغَّبَ في الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء، بَيَّنَ هُنا أنه لا ينبغي التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره، لأن الصدقة لسد حاجته، ولا دخل لها بإيمانه، فالمؤمن يكون خيره عامًّا، ويسبق سائر الناس بالفضل والجود.

﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ**﴾ إن ما تُنفقونه من أموالكم أو أي خير، يثبت لكم أجره عند الله، فأنفقوا لأجل أن تُرضوه، فالنفع يعود عليكم في الدنيا والآخرة.

﴿**وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ**﴾ فإن الأصل في أعمالكم النوايا، فنفقتكم ليست لأجل الفقراء ولا لأجل دينهم، بل لأجل الله وطاعة له، وليس لسُمعة أو رياء ولا مكانة، فلا فرق بين فقير قريب أو بعيد، أو مسلم أو غير مسلم إذا كان مستحقّا.

وقيل: أن معناه تُنفقوا لتنالوا شرف النظر إلى وجهه الكريم، أو نيتكم دخول الجنة لتروا وجهه الكريم: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ** (22) **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** (23)﴾ (سورة القيامة).

﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾ فأن الله تعالى سوف يَرُدّ هذا المال إليك ولا شك، كما قال ﷺ: (**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**) (رواه مسلم)، وإن لم تحصل عليه في الدنيا فإن نصيبك في الآخرة محفوظ، لهذا قال بعدها، ﴿**وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** (272)﴾ فهو العدل جل جلاله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** (40)﴾ (النساء)، حتى الكافر والمشرك فإن الله لا يظلمه أبدًا، اسمعوا إلى حبيبنا

ﷺ وهو يقول: (**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**) (رواه مسلم).

ثم يُبين ربنا تبارك وتعالى إلى من تُدفع الصدقات، ومن هم أكثر الناس حاجة للصدقة، فهذه ستة صفات لمن يستحق الصدقة: الصفة الأولى: ﴿**لِلْفُقَرَاء**﴾ والفقير: الذي لا يملك ما يكفيه، أو: الذي لا يملك نصاب الزكاة. والمسكين أحسن حالاً منه.

والصفة الثانية: ﴿**الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ إما أنهم حَصَرُوا أنفسهم وأوقفوها على الجهاد في سبيل الله، وخدمة دينه، أو أنهم حُصِرُوا بعدوٍ أو مرضٍ أو شيخوخةٍ أو عجزٍ فمنعهم هذا من الكسب والإنفاق على أنفسهم وأهلهم وعيالهم.

والصفة الثالثة: ﴿**لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ**﴾ والضرب في الأرض هو السعي فيها للكسب في تجارة وصناعة وفلاحة وغيرها، فهم لا يستطيعون أن يذهبوا للعمل لأي سبب، كالمتفرغين للجهاد أو سجناء، أو المطاردين والمطلوبين، أو عليهم إقامة جبرية...

والصفة الرابعة: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ أي: الجاهل بحالهم، فالذي يراهم وهو لا يعلم عنهم؛ يحسبهم أغنياء من التعفف، فيسترون فقرهم ويترفعون به عن مهانة السؤال. (وليس المقصود الجاهل غير المتعلم).

والصفة الخامسة: ﴿**تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾ فقد يُعرفوا من صفاتهم؛ لأنهم يُحاولون إخفاء فقرهم، لكن فيهم صفة التواضع وعلامات الفقر والشقاء ظاهرة عليهم، ما يجعل ذا الفراسة يعرف حالهم، فيُعطيهم ويصون كرامتهم ويغطي حاجتهم.

والصفة السادسة: ﴿**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**﴾ والإلحاف هو الإلحاح، أي أنهم لا يطلبون من الناس تعففًا، ولا يُلِحُّون في السؤال، قال ﷺ: (**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِن الْمِسْكِينُ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ ولا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**) (أخرجه البخاري).

﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ** (273)﴾ سَمَّاهُ خيرًا، أي طيِّبًا حلالاً، وهو لا يخفى عنه عز وجل، سواء كان سرًا أو علانية، ينميه ويضاعف أجره.

ثم أثنى ربنا تبارك وتعالى على المتصدقين بشكل عام، فقال: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً**﴾ يُنفقون بكل طرق ووسائل الإنفاق ﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ أعمالهم محفوظة عند الله، وأجرهم ثابت، فلا يبخسهم الله منه شيئًا ﴿**وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** (247)﴾ لا خوف عليهم في الدنيا، ولا يحزنون في الآخرة.

بهذه الآية يختم ربنا جل وعلا صورة مشرقة من صور التكافل الإسلامي الإنساني الاقتصادي الراقي في مجال الاجتماع الاقتصادي، المتمثل في الصدقات التطوعية.

۞ ۞ ۞

الربا شر مستطير (275-281).

بنى الإسلامُ الاقتصادَ على أساسات قوية متينة، منها: ما سبق من الصدقات وآلية توزيعها، وهنا يُبين ربنا تبارك وتعالى أساسًا آخر من أساسات الاقتصاد الإسلامي، الذي يهدف إلى نشر العدل والمحبة بين المسلمين، ألا وهو تحريم الربا.

وقد بدأت الآيات بتصوير حال آكل الربا يوم القيامة، فقال: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ أي: هيئته كهيئة المصروع الذي أصابه مس شيطاني، فهو يسير بتخبط، فلا يعرف إلى أين يذهب، ولا كيف يمشي، وفي الحديث: (**... فمن أكل الربا بُعِث يوم القيامة مجنوناً يتخبط**) (رواه الطبراني).

﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾ أي أن عذابهم هذا وهيئتهم هذه بسبب تحليلهم للربا، وادعائهم أنه مثل البيع، لكن: ﴿**وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ فجعل الله البيع طريقة مشروعة مُحلله، بينما الربا مُحرمة، فلا وجه للتشبيه.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ**﴾ فأي إنسان وصل إليه خبر تحريم الربا، فاتعظ وانتهى عنه، فإن الإثم الذي حصل قبل علمه مغفور عنه، وعليه ردّ المال لأصحابه.

أو: ﴿**فَلَهُ مَا سَلَفَ**﴾ من المال، فلم يأمرهم بِرَدّ الزيادات المأخوذة في الجاهلية، والله أعلم بنيته، لذا قال: ﴿**وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ**﴾ فمن أخذ الربا جاهلاً بحكمه، ثم تركه ابتغاء وجه

الله، يشمله ربه بمغفرته، ويُغنيه بحلاله عن حرامه، وكما قال الرسول ﷺ: (**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءً لِلهِ إِلا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ**) (أخرجه أحمد).

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (275)﴾ أما من لم يُطع ربه، واستمر في أخذ الربا بعد أن علم حُكمه، فهو من أصحاب النار الخالدين فيها، لأنه رفض أمر الله، واستبدل بشرعه شرع غيره، وبحكمه حُكم غيره.

ثم يقول تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا**﴾ القمر يكون محاقًا يعني غير ظاهر، ثم يَتدرَّج حتى يُصبح بدرًا، ثم يتدرج حتى يعود محاقًا، فقوله (يمحق) يعني يكون زاهيًا أمام صاحبه -كما البدر- ثم يتسلل إليه الخراب من حيث لا يشعر، فيقضي عليه.

فمال الربا ممحوق في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لا بركة فيه وفي الآخرة لا ثواب عليه، بل وزر وإثم، حتى وإن تصدق به فلن يُقبل منه، فإن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا.

﴿**وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ يزيدها ويُنميها ويُكبرها، حتى تُصبح مثل الجبل أو أعظم.

﴿**وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** (276)﴾ يرفض تطبيق شرعه، فَيُحلّ ما حَرَّم، أو يُحرّم ويُجَرّم ما أحل الله، وكفر بنعمه، واستخدمها في المعاصي، وهذا لا يُحبه الله تعالى.

في المقابل يُعطي الحل المناسب للمشاكل الاقتصادية في العالم: نظام الزكاة الإسلامي بدل الربا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ...** (277)﴾:

- ✓ أولاً: ﴿**آمَنُوا**﴾ وهو الأساس الذي ترتكز عليه كل الحياة في ظل الإسلام، الإيمان الذي يُصلِح المجتمع، ويحل المشاكل الاقتصادية للفرد أو المجتمع والدولة.
- ✓ ثانيًا: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾فأعمالهم كلها (صالحات) فيها خير ونفع للنفس وللناس.
- ✓ ثالثًا: ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**﴾ أي: علاقتهم بالله كانت قوية.
- ✓ رابعًا: ﴿**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**﴾ أي: علاقتهم بالناس علاقة خير ونفع ورحمة، وليست علاقة ظُلم واعتداء واستغلال وتخريب ودمار.

فهؤلاء ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (277)﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (278)﴾ إنه الإيمان مَرَّةً أُخرى، فهو الذي يدفع صاحبه إلى طاعة الله، وإلى صالح الأعمال، والأقوال، فإن كنتم -يا أيها الذين آمنوا- تُريدون أن تُبرهنوا على صدق إيمانكم، فخافوا من الله، واتركوا كل أنواع الربا، ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ تهديد شديد اللهجة من رب العزة لكل من تسول له نفسه تحدي أوامر الله تعالى، والاستمرار في معصيته، ومخالفة أوامره، ومن يستطيع على تلك الحرب؟

لكن الله تعالى يفتح بابًا آخر للخلاص، إنه باب التوبة، والحل فيه: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** (279)﴾ فالحل للتخلص من إثم الربا وجريمته فإن لك أن تأخذ حقك، وهو رأس مالك، فلا تكون ظالمًا ولا مظلومًا.

وتظهر أيضًا الرحمة الربانية في المجتمعات، بالإنظار والتيسير على المعسر، فقال تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ**﴾ وهذه من أكبر وسائل المحبة والألفة والتقارب بين المسلمين، وخاصة بين الأغنياء والفقراء، وبين الأقوياء والضعفاء، وبين الحكام والمحكومين، لهذا حض عليها الإسلام ورغب فيها.

﴿**وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ وهذا كرم رباني عظيم، حيث يعتبر مسامحتكم للمَدين صدقة يُضاعف أجرها، ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (280)﴾ هذا الفضل وهذا الأجر وهذا الكرم الرباني، لإنكم ستُنفقون من كل ما رزقكم الله لأجل الله.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (281)﴾.. خطاب لكل الناس: المسلمين والكافرين، العرب والعجم، الرجال والنساء... كلهم يشملهم هذا الأمر الرباني، وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم، فكان ختامه مسك.. كلمات يسيرة جدًا، إلا أنها تشمل كل شيء مطلوب في الحياة، كل شيء في هذه الدنيا، فيها طريق النجاة من النار، وطريق الفوز بالجنة، آية تُذكّر الناس بحتمية زوال الدنيا، وفنائها، وبحتمية يوم القيامة، حيث العرض والحساب، فقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا**﴾ بعقيدتكم وبعباداتكم وبأخلاقكم، وبأفعالكم وبأقوالكم، ﴿**يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ وتُرَدُّونَ إلى ربكم جل جلاله، الذي خلقكم.. ﴿**ثُمَّ تُوَفَّىٰ**﴾ هناك

﴿**كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ**﴾ حيث تُبلى السرائر ولا تخفى خافية، وتُنشر الصحف، وتُعرض الأعمال، ويوفي ربُّنا لكم أجوركم فيُجازي المحسن، ويُعاقب المُسيء.

﴿**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ وحاشاه جل جلاله أن يظلم أحدًا، فهو تبارك وتعالى العدل، الذي يُحاسب على الصغير والكبير، ألم يقل: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة).

۞ ۞ ۞

آية الدين أطول آية في القرآن الكريم (282-283).

آية الدَّين، أطول آية في القرآن، وسُميت بذلك لأن فيها أحكام الدَّين بين المسلمين، وتبدأ بنداء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وإذا صُدِّر الخطاب بـ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ دل على أن الالتزام بأوامر الله من الإيمان، وأن مخالفته نقص فيه.

﴿**إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ**﴾: أي إذا تعاملتم بينكم بالدَّين، فدايَنَ بعضُكم بعضاً، والدَّين هو مال في ذمة أحدٍ لأخيه، بسبب بيع أو إقراض أو غيره.

﴿**إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾: أي إلى مدة محدودة، لكن هل تحديد الأجل أو المدة الزمنية واجبة؟ لا تدل الآية على الوجوب، وفي الصحيحين: قال النبي ﷺ: (**مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ**).

﴿**فَاكْتُبُوهُ**﴾: أي اكتبوا الدَّين المؤجَّل؛ ووثقوه، وتوثيق الدَّين بإحدى الطرق الثلاثة: (الكتابة، والإشهاد، والرهن) وهو مُستحب، والحكمة من الكتابة: توثيق الحقوق حتى لا تضيع بالنسيان أو الغلط، والاحتراز من المخادعين الذين لا يخشون الله تعالى.

﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**﴾ والائتمان يكون بعدم توثيق الدين بالكتابة أو الشهود، ولكن في هذه الحال يُحتاج إلى التقوى والخوف من الله، فليس كل الناس يؤتمنون.

﴿**وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**﴾ فيجب عليكم أن تختاروا كاتبًا عادلاً كي يكتب بينكم، وقوله تعالى: ﴿**بَيْنَكُم**﴾؛ يعني يجب أن يكون الطرفين حاضرين، فلا

تتحقق البينية إلا بحضورهما، ولابد أن يكون الكاتب محسناً ومُتقنًا للكتابة؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ**﴾ فلفظ (كاتب) يوحي بالإتقان. وقوله: ﴿**بِالْعَدْلِ**﴾ أي بالاستقامة -وهو ضد الظلم- والمراد به ما يُرضي الله.

﴿**وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ**﴾ فما ينبغي لكاتبٍ أن يمتنع عن الكتابة إذا طُلِبَ منه ذلك، إلا إذا كان عذرُه مقبولاً شرعًا؛ لأنه برفضه يرفض أمر الله له. ﴿**كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ**﴾ أن يكتب، بحيث تكون كاملة ويبذل جهده في إتقانها، أو يكون المعنى: لأن الله علمه من علمه، فليشكر نعمته عليه، ولا يمتنع من الكتابة. ﴿**فَلْيَكْتُبْ**﴾ توكيد، أي: ينبغي عليه أن يكتب، ولا يرفض الكتابة.

﴿**وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ**﴾ أي صاحب الحق هو الذي يُملي على الكاتب ما يكتب، ووَجَّهَ إليهِ أمراً ونهياً؛ الأمر: ﴿**وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ**﴾ يعني يضع مخافة ربه أمام عينيه، فلا يقول إلا الصدق، خوفًا من الله. والنهي: ﴿**وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً**﴾: أي لا يُنقِص أو يُقَلِّل لا في كميته، ولا كيفيته، ولا نوعه، وقوله ﴿**شَيْئاً**﴾ بالتنكير حتى ولو كان شيئًا قليلاً فإنه لا يجوز أن يبخس به.

﴿**فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً**﴾ أي لا يُحسن التصرف لجهله؛ ﴿**أَوْ ضَعِيفاً**﴾ أي: ضعف الجسم (صغيراً لم يبلغ؛ أو كبيراً لكنه مجنون أو سفيه)، ﴿**أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ**﴾ فلا يقدر أن يتكلم (أخرس مثلاً)، أو ليس له خبرة في العقود والبيوع فهذا لا يُملِل؛ وإنما ﴿**فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ**﴾ وَ(وَلِيّه) هو المسؤول عنه أمام الشرع، أي المكلف برعايته والنفقة عليه، ويتولى شؤونه من أب، أو جد، أو أخ، أو أم، أو غيرهم.

لاحظ مرة أُخرى لفظ: (بالعدل) للتأكيد ثم للتأكيد، فالعدل أساس كل المعاملات والقوانين في الشرع الإسلامي، فلا يجوز للكاتب أن يُحابي أحدًا كقريبه أو صاحبه، ولا أن يظلم أي شخص لأي سبب، وإن كان عدوه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىَ أَلَّا تَعْدِلُوا..** (8)﴾ (المائدة).

﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ**﴾ أي اطلبوا شهيدين اثنين ليشهدوا على العقد، على أن يكونا من الذكور، ولفظ (رجال) يدل على أنهم بالغين عاقلين، ﴿**فَإِن لَّمْ**

﴿**يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ**﴾ فيجوز أن يحل بدل الرجلان رجل وامرأتان بالغتان. ﴿**مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾ أي: يكون الشهود ممن يرضى الناس شهادتهم، ويُعرفون بتقواهم وصلاحهم، ويُعرفون بالعدل كذلك.

وجاء اللفظ (شهيدين) بدل (شاهدين) يَدُلّ على وجوب الحضور والتواجد في مجلس العقد، ويعرفون دقائق وتفاصيل العقد، بينما (الشاهد) قد يشهد بعلمه أو بسماعه، كما قال تعالى: ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا**﴾ (يوسف:26)، والله أعلم.

لماذا كانت شهادة الرجل بشهادة امرأتين؟ قال تعالى: ﴿**أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ**﴾ فإذا نسيت أحداهما شيئًا، فتذكرها الأخرى به.

﴿**وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا**﴾ أي، لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لأداء الشهادة؛ لأنهم بشهادتهم يُنفذون أمر الله، ويُحيون سُنة توثيق العقود وكتابتها، ويحفظون حقوق الناس من الضياع أو النسيان أو الظلم من الدائن أو المدين.

قال تعالى بعدها: ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ**﴾ : (لا تسأموا) يعني لا تملوا، فلا يقولن أحدكم: هذا دَيْنٌ صغير قليل ليس له قيمة حتى نكتبه ونوثقه، فيتساهل فيه، فلتكتبوه وتوثقوه، سواء كان الدَّين صغيرًا أو كبيرًا، ﴿**إِلَىٰ أَجَلِهِ**﴾ إلى حين الأجل المُتفق عليه بين الطرفين. ﴿**ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾ فتوثيقكم للدَّين أكثر عدلاً في شرع الله ودينه، ﴿**وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ**﴾ أي: أعظم عونًا على إقامة الشهادة وأدائها، ﴿**وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا**﴾ أي: يُبعد الشك والريبة من القلوب، فتطمئن وترتاح.

ثم يقول تعالى: ﴿**إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا**﴾ فإذا كانت المسألة بيع وشراء عادية، وكان التسليم والقبض فيها حالاً، فليس هناك حاجة للكتابة والتوثيق، لكن الأفضل والأكمل: ﴿**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**﴾ وذلك لمنع النزاع والشقاق، وكي يرتاح القلب ويطمئن.

﴿**وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ**﴾ فيجب على الكاتب والشاهد أن يتقيا الله تعالى، فلا ينوي أحدهما الضرر بأحد الطرفين، ولا مُحابة الآخر، ﴿**وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ**﴾ فإذا قصد الضرر، فإن هذا ليس من صفات أهل الإيمان والصلاح، وإنما من صفات

أهل الفِسق، و(الفِسق) هو الخروج عن طاعة الله تعالى إلى معصيته، فلا تكونوا منهم. وقد يكون المعنى: "وَلا يَجُوز أن يَلحَقَ ضَرَرٌ بَالكَاتِبِ أو بِالشَّاهِدِ لِمَا يَقُومَانِ بِهِ" فيُجبرهم الدائن مثلاً على شيء، أو تهديدهم، أو تعطيل مصالحهم لأجل الشهادة أو غير ذلك، فإن الاعتداء على الآخرين من صفات أهل الفسق. ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ خافوا منه واخشوه، ولا تُقدموا على عصيانه ومخالفته، ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ فهو خالقكم وهو الذي يُعَلّمكم كل ما فيه الخير لكم، وما ينفعكم، وما يجلب الأمن والراحة والطمأنينة لكم، على مُستوى الفرد والمجتمع.

﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (282)﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض والسماوات.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ**﴾ هذه الآية تابعة لآية الدَّين، أو مُكملة لها، ﴿**وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا**﴾ إذا كنتم في سفر، وفي السفر قد لا يوجد كاتب، ولا شهيد، لذا فإن الله سبحانه سمح للمسلمين بأن يتعاملوا شفويًا لكن بشرطٍ يضمن حق الدائن، وهو: ﴿**فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**﴾ و(الرهان) أو (الرهن) هو: "جعل شيءٍ له قيمة مالية في نظر الشرع وثيقة دَين". وقوله: ﴿**مَّقْبُوضَةٌ**﴾ أي: يقبضها صاحب الحق كوثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق.

ثم يقول تعالى: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**﴾ فإن كان الذي عليه الدَّين أمينًا عند الدائن، ولم يرتهن منه شيئًا لحسن ظنه به، فعلى المدين أن يؤدي الحق إلى صاحبه في الوقت المتفق عليه ﴿**وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**﴾ أي: لا يستغل هذه الثقة ولا يُرجع الأمانة إلى أهلها، فعليه أن يتق الله ويخاف من عقوبته إذا خان ثقة صاحب الحق، فالمؤمن لا يخون الأمانة ولا العهد.

ثم رجع إلى خطاب الشهود وقال: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ**﴾ فترفضوا أن تشهدوا، أو تكتموها فتُنكروا أنكم شهدتم، وهذا تأكيد على أهمية المسألة.

﴿**وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ وهذا يدل على تحريم كتمان الشهادة أو رفضها، فإن الإثم يلحق من يفعل ذلك، وقد خصص اللهُ الإثم بالقلب لأنه مكان الإيمان والتقوى.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)﴾ لا يغيب عنه شيء، في الأرض ولا في السماء.

۞ ۞ ۞

الخواتيم (284-286).

قال تعالى: ﴿**للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ فكل ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات ملكه، لا تخفى عليه خافية فيها، سواء الظواهر والسرائر والضمائر.

﴿**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ**﴾ بما أنه يعلم ما تُبدون وما تخفون، فسوف يُحاسبكم على كل صغيرة وكبيرة، حتى ما تُخفونه في أنفسكم، ﴿**فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ بحكمة وعدل، ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284)**﴾ ولا أحد يقدر أن يمنعه، وليست مشيئته كمشيئته البشر مبنية على المحاباة والهوى، فمشيئته مبنية على الرحمة والعدل والحكمة وكمال العلم.

جاء في صحيح مسلم أنه لمّا نزلت هذه الآية، اشتدّ ذلِك على أصحابِ رسُولِ اللهِ ﷺ، فأتوه، وَبَرَكُوا على الرُّكبِ، وقالُوا: أي رسُول اللهِ كُلِّفنا مِن الأعمالِ ما نُطِيقُ، الصّلاةُ، والصِّيامُ، والجِهادُ، والصّدقةُ، أما هذِهِ الآيةُ فلا نُطِيقُها، قال ﷺ: (**أتُرِيدُون أن تقُولُوا كما قال أهلُ الكِتابينِ مِن قبلِكُم: سمِعنا وعصينا، بل قُولُوا: ﴿سَمِعنَا وَأَطَعنَا غُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ﴾**)، قَالُوا: ﴿**سَمِعنَا وَأَطَعنَا غُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ**﴾.

فلمّا قرأوها وأطاعوا أمر الله ورضوا به، أنزل اللهُ: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالمُؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعنَا وَأَطَعنَا غُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ**﴾، فلمّا فعلُوا ذلِك، نَسَخَها، فأنزل: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا إِلا وُسعَهَا لَهَا مَا كَسَبَت وَعَلَيهَا مَا اكتَسَبَت رَبَّنَا لا تُؤَاخِذنَا إِن نَسِينَا أَو أَخطَأنَا**﴾، قَالَ: (نَعَم)، ﴿**رَبَّنَا وَلا تَحمِل عَلَينَا إِصرًا كَمَا حَمَلتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبلِنَا**﴾ قَالَ: (نَعَم)، ﴿**رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾ قَالَ: (نَعَم)، ﴿**وَاعفُ عَنَّا وَاغفِر لَنَا وَارحَمنَا أَنتَ مَولانَا فَانصُرنَا عَلَى القَومِ الكَافِرِينَ**﴾ قَالَ: (نَعَم).

وهذا يدل على علمهم وشدة خوفهم من الله، فقد خشوا أن يحاسبهم على ما يخطر في بالهم من وساوس، فطمأنهم الله بقوله: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ فلا يؤاخذهم

بنياتهم أو ما في قلوبهم، كما جاء في الصحيحين: قال ﷺ: (**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا مَا لَمْ تَعْمَل أو تَتَكَلَّمْ**).

بل إنه أكرمهم بأن جعل هَمَّهُم ونياتهم إذا لم يعملوا بها أجورًا وثوابًا، كما ثبت في الصحيحين: (**فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً**).

ثم يقول تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**﴾ فيُخبرنا بأن الرسول ﷺ يؤمن بالقرآن الكريم الذي أنزله الله إليه، ومن آمن بشيء، فإنه يجب أن يُطبقه في حياته، فلو اقتنع إنسان أن تنظيف الأسنان -مثلاً- بفرشاة الآخرين تنقل العدوى إليه، فإنه سيكون حريصًا كل الحرص على أن ينظف أسنانه بفرشاة الآخرين، ومن آمن بما أنزل الله تعالى فإنه يحرص كل الحرص على تطبيقه في حياته العملية.

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي: والمؤمنون يجب أن يؤمنوا كذلك بما أنزل الله تعالى على رسوله.

﴿**كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ كل من الأنبياء وأتباعهم يؤمنون بالله، وبملائكته وكتبه الذي أنزلها وبرسله كلهم، وهذه أركان الإيمان. وكلهم يقولون: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾ فلا نُفاضل بينهم، بل نؤمن بأن الله اختارهم لتبليغ دينه، ولهداية الناس، كل في مكان بعثته، ومحمد إلى الناس كافة، فنُحبهم ونُقَدّرهم، وكلهم ثقات مأمونون على الدين، معصومون عن الخطأ في تبليغه.

﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ أي: يقول هؤلاء المؤمنون لربهم: يا ربنا سمعنا قولك، واستجبنا لأوامرك، وانتهينا عن نهيك، كما أمرتَنا، ليس كمن قال: سمعنا وعصينا. ويقولون أيضًا: ﴿**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**﴾ ندعوك ربنا أن تغفر لنا ما قصّرنا، وما غفلنا عنه من أعمال وأقوال لا تُرضيك. ﴿**وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** (285)﴾ فإن يقيننا أننا إليك راجعون، ومصيرنا الوقوف بين يديك، ومآلنا أن نُعرض عليك..

فمن كان هذا حاله ومقاله فإن الخير سيأتيه من حيث لا يحتسب، ومن هذا الخير: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾ أي: جزاء إيمانكم وتصديقكم وتطبيقكم، فإن الله قد خفف عنكم، فلا يُكلف الله أحد منكم إلا طاقته، وهذه لها معنيان:

الأول: أن الله لا يُكلف العبد من الطاعة إلا ما يستطيع فعله، فإن لم يستطع فأن الله يُخفف عنه، كالتخفيف في الرخص الشرعية مثلاً، فإن لم يستطع الصلاة واقفًا أو قاعدًا أو نائماً حسب حالته، وإن لم يستطع أداءها بسبب السفر أو المرض جمعها.

الثاني: أن الله لا يُكلف العبد من الطاعة إلا ما يستطيع فعله، فالصلاة خمس مرات مثلاً، وصيام شهر، وزكاة ربع العشر... يطيقها كل أحد، فالعبادات ليست مُتعبة، أما أصحاب الأعذار فإن لهم تسهيلات خاصة رحمة بهم، تتمثل في الرُّخَص الشرعية.

يقول تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ بما أن الله تعالى لم يُكلف الأنفس ما لا تطيق، فإن حسابها سيكون على حسب عملها، فإن لها الأجر الجزيل على ما كسبت من خير، أما إن رفضت وعصت فإن عليها من الإثم مُقابل ذلك.

﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ وهذا دُعاء من أدعية المؤمنين الذين يُطيعون الله ورسوله، فيستجيب الله جل جلاله لهم، ورحمهم ولطف بهم، وأصدر قانونًا إلهيًا، بخصوص هذه المسألة، ونص القانون هو: ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ (الأحزاب:5).

ويضرب النبي ﷺ مثالًا عمليًا لهذا القانون، فيقول: (**مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا، لاَ كَفَّارَةَ لَهَا إِلا ذَلِكَ**) وقرأ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**﴾ (طه: 14)، وفي رواية: (**مَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ فَلْيُصَلِّهَا إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَمَنْ نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّها إِذَا ذَكَرَهَا**) (متفق عليه).

﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا**﴾ (الإصر): العهد أو الإثم أو الشيء الثقيل، أي: لا تأخذ منا يا رب عهدًا لا نستطيع الوفاء به، كما فعل بنو إسرائيل من قبل، ولا إثمًا نقترفه، ولا أشياء ثقيلة ومهمات صعبة لا نستطيع أداءها.

﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾ أي: لا تُحملنا يا ربنا من التكاليف والأوامر والنواهي ما لا نطيق، فلا نستطيع أن نعمله فتغضب علينا. ﴿**وَاعْفُ عَنَّا**﴾ أي تجاوز عما قصرنا فيه من الواجبات وفعلناه بالخطأ، ﴿**وَاغْفِرْ لَنَا**﴾ تجاوز عما اقترفناه من السيئات عمدًا؛ ﴿**وَارْحَمْنَا**﴾ أي أكرمنا برحمة من عندك حتى لا نقع في فعل محظور، أو في نتهاون في مأمور.

﴿**أَنْتَ مَوْلَانَا**﴾ متولي أمورنا، والمتصرف في أحوالنا، تستطيع أن تُبعدنا عن الحرام وتقربنا من طاعتك، وتستطيع أن تحمينا من كل سوء وكل شر.

﴿**فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (286)﴾ لأنك وَلِيّنا، ومتولي أمورنا؛ فلا تجعل للكافرين علينا سبيلاً، لا تنصرهم علينا، بل انصرنا عليهم، فأنت القادر على ذلك.

والنصر لا يكون في الحروب فقط، بل قد يكون في الكلام والدعوة إلى الله، فلو دعوت قومًا مثلاً وأسلم منهم على يديك أحدهم فهذا نصر لك ولدينك، ولو قامت فضائية بالرد على المشككين في الدين -مثلاً- وأفشلت مخططاتهم في تشكيك المسلمين في دينهم فهذا نصر، والآية عامة في جميع أنواع النصر، في الحرب وفي السلم، فاللَّهُمَّ انصرنا على القوم الكافرين.

ملاحظة: أخرج الشيخان أن النبي ﷺ قال: (**الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**)، قيل: كفتاه وحفظتاه من الشر ووقتاه من المكروه، وقيل: كفتاه قيام الليل، وذلك لما فيهما من معاني الإيمان والإسلام والالتجاء إلى الله عز وجل والاستعانة به والتوكل عليه وطلب المغفرة والرحمة منه.

۞ ۞ ۞

وبهذا تم الحديث عن تفسير سورة البقرة، وذلك بفضل منه جل جلاله ومنةٍ منهُ وكَرَم.. فله الحمد وله الشكر على هذه النعمة العظيمة، ونسأله جل وعلا أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.. وأن يُعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما يُعلمنا.. إنه هو السميع المجيب...

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (سورة يونس)

۞ ۞ ۞

المحتويات

المقدمة..... 5
سورة البقرة..... 6
البداية، وصفات المتقين (1- 5). 7
أهم صفات المتقين: 8
أهم جائزة للمتقين أصحاب هذه الصفات الستّ: 11
من صفات أهل الكفر (6-7). 12
من صفات المنافقين (7-20) 13
ما هي عقوبة المنافقين ؟ 18
أول خطاب للناس (21-25). 20
ويضرب الله الأمثال للناس (26-27) 24
هلا تفكرتم ؟ (28-29). 27
بداية خلق آدم عليه السلام (30-38). 28
آدم عليه السلام وزوجته. 31
من صفات بني إسرائيل (40 -43). 33
من صفات بني إسرائيل أيضًا (44-54). 38
مثال آخر على ظُلم بني إسرائيل أيضًا. 42
اللقاء على جبل الطور، وطلب غريب (55- 74). 44
نعمة أُخرى.. 45
قصة أخرى من عجائب بني إسرائيل..... 46
نِعَم أخرى لهم.. ولكن !! 47
وعجيبة أخرى من عجائب بني إسرائيل..... 48
فاصل بين الآيات.. 49

عودة إلى بني إسرائيل، وقصة أخرى:.....50
قصة أخرى.. وجريمة أخرى: 52
شَرُّ خَلَفٍ لِشَرّ سَلَف، وصفات إضافية (75 - 91).....56
مستمرون في الكذب والتزوير.....58
عودة إلى بني إسرائيل مرة أخرى (83 – 86).....60
عودة إلى بني إسرائيل، وصفات سيئة أخرى (87 - 89).....64
صفقة خاسرة (90 – 91).....67
تذكيرهم بجرائمهم والأدلة على ظلمهم (92 - 96) 69
وتتوالى البراهين على كذبهم وإجرامهم.....71
لماذا لا يتمنى اليهود الموت؟.....73
شبهات وكذبات أخرى لبني إسرائيل (97- 105) 74
سليمان عليه السلام وكذبهم عليه (102 – 104).....77
كشف نواياهم الخبيثة.....83
إعلان رباني مهم (106-107).....85
تحذيرات وتوجيهات للمسلمين (108-110).....87
عودة إلى بني إسرائيل وكِبرهم وفِكرهم الخبيث (111- 113).....91
استمرار جرائمهم على مر الزمان (114-115) 94
عودا على بدء.. وادعاءات أهل الكتاب (116- 118).....98
تعليمات أخرى للنبي ﷺ وللمسلمين (119-123).....102
جوائز إبراهيم عليه السلام (124-126) 106
وما زلنا مع الخليل إبراهيم ﷺ (127- 129) 110
إبراهيم ﷺ الإمام والقُدوة (130- 134).....113
خطاب لبني إسرائيل، وتعليمات للمسلمين (135- 138).....117

أأنتم أعلم أم الله؟؟ (139-141). 122
قصة تحويل القبلة، ومكر اليهود (142-144) 125
الثبات الثبات (145- 147) 130
فاستبقوا الخيرات (148- 150). 133
فاذكروني أذكركم (151- 152). 135
وسائل نافعة تُعين على الصبر (153- 157)..... 138
السعي بين الصفا والمروة (158). 141
ترغيب بني إسرائيل في التوبة (159-162)..... 143
الواحد الأحد وحده يستحق العبادة (163)..... 144
الله الخالق (164-165)..... 146
البراءة يوم القيامة (166-167). 149
الرازق والرزاق هو الله وحده (168-171)..... 151
كلوا من رزق ربكم واشكروا له (172-173). 154
عاقبة من كتم ما أنزل الله (174-176)..... 155
معنى البِر على حقيقته (177)..... 157
مثال عملي على العدل الإلهي (178-179)..... 159
من أحكام الوصية قبل الموت (180-182). 162
من أحكام الصيام وشهر رمضان (183-187). 164
قاعدة في المعاملات المالية (188). 169
جواب سؤال (189)..... 171
الحكمة من القتال في سبيل الله وبعض أحكامه (190). 172
من أحكام الحج والعمرة (196-203). 176
النفاق والفساد مَهلكة (204-207). 181

ادخلوا في السِّلم كافة (208-210)..... 183
بالمثال يتضح المقال (211-212)..... 185
الابتلاء سُنة من سُنن الحياة (213-214)..... 187
من أحكام الإنفاق والجهاد في سبيل الله (215-218)..... 189
أسئلة أخرى وأجوبتها (219-220)..... 192
من أحكام نظام الأسرة في الإسلام (221-223)..... 194
لا تجعلوا الله عُرضة لأيمانكم (224-225)..... 197
من أحكام (الإيلاء والطلاق) (226-232)..... 198
تكملة أحكام الطلاق، وعدة الوفاة (234-237)..... 205
فاصل؛ من أحكام الصلاة (238-239)..... 207
عودة إلى أحكام الأسرة والطلاق (240-242)..... 209
من قصص الأمم السابقة (243-251)..... 210
قصص القرآن هي القصص الحق (252-254)..... 217
أعظم آية في القرآن الكريم وما بعدها (255-257)..... 219
أمثلة عملية على التوحيد الصادق (258-260)..... 224
أجر الإنفاق في سبيل الله، وسعة الكرم الإلهي (261-262)..... 227
لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى (264-265)..... 229
الذنوب تُحبط الأعمال (266-269)..... 231
من أحكام النذر و الصدقات (270-274)..... 233
الربا شر مستطير (275-281)..... 235
آية الدين أطول آية في القرآن الكريم (282-283)..... 238
الخواتيم (284-286)..... 242